

من تاريخ الحركات الفكرية
في الاسلام

الجزء الاول

من تاريخ الحركات الاجتماعية

تأليف

بندلي جوزي

استاذ في جامعة باكو

ودكتور في الاداب العربية

مطبعة بيت المقدس ❀ القدس

اهداء الكتاب

الى الشبيبة العربية الناهضة ، الى الذين حرّروا عقولهم من تأثير الخرافات الاجتماعية والدينية والقومية ، الى اصحاب العقول السليمة والضمائر الحيّة ، اهدي هذا الجزء من كتابي « من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام »

المؤلف

القدس الشريف في ١٠ آب سنة ١٩٢٨

المقدمة

وحدة النواميس الاجتماعية

اذا نحن عرفنا ان اول من وضع مبادئ علم التاريخ واساليب الانتقاد التاريخي هم مؤرخو الغرب كنيبور (Nibour) ورانكه (Ranke) وشلوسر (Schlosser) وغيرهم، وان هؤلاء المؤرخين بنوا احكامهم ونظرياتهم على تاريخ الغرب وحده اذ لم يكونوا يعرفون من تاريخ الشرق الا الشيء اليسير، سهل علينا والحالة هذه ان ندرك مقدار ما في اقوال بعض مؤرخي الغرب عن الشرق وتاريخه من الغرابة والطيش، فهل من طيش اكبر من ان يقول احدهم « انه لم يكن ولن يكون للامم الشرقية تاريخ بمعنى هذه الكلمة المعروف بين علماء اوروبا وان اساليب البحث التاريخي التي وضعها علماء الغرب لا يمكن ان تطبق على تاريخ الشرق » واية غرابة او بالاحرى اي جهل اعظم من ان يقال « ان العوامل المؤثرة في تاريخ الامم الاوروبية والنواميس العمومية الفاعلة في حياتهم الاجتماعية هي غير العوامل والنواميس العاملة في تاريخ الامم الشرقية وحياتهم وثقافتهم »

لو صدرت هذه الافكار الغريبة عن مؤرخي الاجيال الوسطى، او لو صدرت عن اناس عرفوا بالتعصب الديني او القومي والاغراض السياسية او الاستعمارية ، لكان لهم في الجهل والتعصب عذر، اما وقد صدرت ولا تزال احيانًا تصدر عن فئة من العلماء ومؤرخي العصر التاسع عشر بل العشرين فاي عذر لهم ؟

يقول المؤرخ شلوسر المذكور « ان اهم فرق بين تاريخ الغرب وتاريخ الشرق هو ان الدين والشعائر الدينية والاداب والنظام الدولي المدني حتى الفنون انفسها ترتكز في الدول الشرقية المشبعة بروح الاستبداد والسلطة الدينية على نفي تطور الموجودات ونفي تطور الحضارة المحلية وتأثير الحضارة الغربية عليها » ولهذا يكفي على رأى المؤرخ المذكور ان نعرف دوراً صغيراً من حياة اية امة شرقية قديمة كانت لان نتصور حالة تلك الامة الاجتماعية في كل ادوارها التاريخية مهما طال امدها ومهما طرأ على تلك الامة من التغييرات الداخلية اذ لا حاجة الى معرفة تاريخ تلك الامة كله لفهم حالتها الاجتماعية في دور كبير من حياتها قضته تحت حكم اسرة واحدة وسماء واحد » وفي ذلك من الغرابة ما لا يحتاج اليوم الى تبيين واشد من ذلك في الغرابة ان يقوم مؤرخ آخر اشتهر بأبحاثه عن تاريخ الشرق القديم وتاريخ بابل والبابليين على الاخص فيحاول ان

يؤيد صحة هذا الفكر العقيم ببراهين لا تقبلها اليوم طلبة المدارس ،
منها ان الشعوب الشرقية كانت تعتقد في ان ما يحدث في هذه الحيوة
الدنيا ليس هو الا صورة منعكسة لما يحدث هناك في السماء ، وان
حياة المجتمعات الانسانية يجب ان تنظم وتجري طبقاً لحركات
الكواكب السماوية » ومعنى هذه العبارة الغامضة ان هناك فرقاً
بيّناً بين نفسية الامم الشرقية ونفسية الامم الغربية يمكن ان يعبر عنه
بان الشعوب الشرقية لا تقول بمبدأ التطور والاستقراء اللذين هما
اسّ العلوم الحديثة ولا تقيم لهما وزناً ، وان الاحكام العامة لا تبنى
عندهم على استنتاجات منطقية مرتبطة بعضها ببعض ومؤسسة على
فكر او نظرية عامة سابقة لتلك المراقبات تتوقف عليها جميع
اعمالهم وافكارهم »

هذا رأي بعض مؤرخي الغرب في تاريخ الامم الشرقية
وعقليتهم ، فلا عجب والحالة هذه اذا رأيناهم ينكرون على تاريخ
الشرق تطوره ويحسبونه نتيجة سبب او عامل واحد ترجع اليه
حياة الامم الشرقية في جميع ادوارها ومظاهرها ، مما ينتج عنه ان
ليس للامم المذكورة تاريخ بالمعنى العلمي المقصود من هذه الكلمة
وهو ما قاله بعضهم كما اشرنا الى ذلك سابقاً .

نعم ان كلام العلماء المذكورين كان في تاريخ الامم الشرقية

القديمة كبابل واشور ومصر الخ . فهل يا ترى يصدق هذا الكلام على تاريخ الامم الشرقية الحديثة ، او امم الاجيال المتوسطة ، وهل حاول احد المؤرخين ان يطبق النظرية المذكورة على التاريخ الحديث كتاريخ الامم الاسلامية مثلاً ؟ نعم قد حاول بعض من تأثر بافكار شلوسر وفنكار ان يدخل تحت هذا الحكم تاريخ القرون الوسطى للامم الشرقية حتى الحديثة منها ولا سيما تاريخ الاسلام ، واشهر من اقدم عَلَى ذلك المستشرق الفرنساوي ارنست رينان وذلك في بعض محاضراته عن اليهود والاسلام مثل « الاسلام والترقي » و « منزلة الامم السامية بين سائر الامم » واليك ما قاله في محاضرته الثانية مما له علاقة بموضوعنا « ان الاسلام يكره العلم ويدعو الى هدم المجتمع المدني وإنْ هو الا بساطة الروح السامي الهائلة التي تضغط على دماغ الانسان وتسد امامه الطرق المؤدية الى كل فكر حر وكل بحث علمي ، مستعيضة عن كل ذلك بتكرارها الممل : لا اله الا الله » فانت ترى انه لم يبق بعد هذه العبارة الا ان يقوم صاحبها ويقول لنا ان حياة الامم الشرقية الاسلامية ترتكز على نواميس وعوامل غير التي ترتكز عليها حياة الامم الغربية ، وقد قاله فعلاً في تلك المحاضرة نفسها حيث جاء « انه كان للشعوب الآرية من يوم عرفها التاريخ مجلة حقوق قديمة . . . اما

حياة العرب واليهود البطريركية (القديمة) فانها كانت دائماً خاضعة لنواميس اخرى» وقال في موضع آخر «ان تطور الامم الساميَّة الديني كان يقوم دائماً على نواميس اخرى» وان «العربي او المسلم على الاطلاق يبعد عنا اليوم اكثر من ذي قبل، فالمسلم والاوروبي اليوم شخصان لا يجمعهما شيء من اساليب التفكير والشعور كانهما من عالمين مختلفين».

وقد كرَّر رينان هذه الافكار والعبارات في محاضرته الثانية بل جاء بما هو اشد منها، ولكنا نقتصر على ما ذكرناه هرباً من الاطالة واعتقاداً منا انه لو قُدّر لرينان ولمن اخذ عنهم نظريته المذكورة ان يعيشوا الى هذا اليوم ويروا باعينهم آثار الحركة الفكرية في البلاد العربية والشرق على الاطلاق، لتبرأ مما قاله عن عقلية الامم الشرقية ونفسيتهم، ولهذا، ولأن هذه النظرية اصبحت اليوم في خبر كان، لا نرى فائدة في ادحاضها، لان الزمان تولى ادحاضها بنفسه ويكفينا هنا ان نقول ان مصدر هذه الافكار العقيمة الفاسدة هو اولاً قلة معرفة اصحابها لتاريخ الامم الشرقية وضعفهم في تحليل المواد التاريخية التي كانت في ايديهم في ذلك الوقت تحليلاً علمياً محضاً وثانياً لان الكتبة المذكورين بنوا حكمهم عن مستقبل الامم الشرقية مستندين على حالتهم العمرانية والاجتماعية في الماضي

القريب، وهو حكم في نظر اهل المنطق فاسد، وما مثلهم الا كمثل عربي مسلم من اهل الجيل العاشر او الحادي عشر زار اوروبا في ذلك العصر ورأى ما كان عليه سكانها وقتئذ من الجهل والتعصب الديني والفقر فحكم عليهم بالجمود وقضى على مستقبلهم وقال ان لن تكون لهم حياة اجتماعية بمعنى هذه الكلمة الحاضر

الا انه يسرنا ان نجاهر بان اكثر علماء تاريخ الشرق المعروفين بترفعهم عن الاغراض القومية او السياسية هم على غير رأي شلوسر وفنكلر ورينان ومن حذا حذوهم من مؤرخي الجيل السابق، ولو لا خوفنا من الملل لاتينا على اقوال كثيرين منهم ليرى القارئ منها ان افكار رينان واشياعه لم يعد احد يذكرها اليوم او يهتم بها ولهذا نقتصر على شهادة واحدة فقط لعضو اكاديمية بطرسبرج الاستاذ بارتولد الذي يعدونه اليوم من اكبر مؤرخي الشرق الاوسط ان لم يكن اكبرهم على الاطلاق . قال الاستاذ المذكور في كتابه « تاريخ الابحاث عن الشرق في الغرب وفي روسيا » ما تعريبه :

« لو كان نظر الامم الشرقية من البساطة والوحدة على ما يتصوره بعض مؤرخي الغرب لكان البحث في تاريخ الشرق ومعرفته اسهل من معرفة تاريخ الغرب على المستشرقين الذين يدرسون في الغالب الاعصر المتأخرة من تاريخ الشرق ، والذين توافرت لديهم المصادر

التاريخية اكثر ممن سبقهم يرون ان عدد الاشخاص الذين عرفوا بكمال ووحدة نظريتهم لا يزيد في الشرق على عدد امثالهم في الغرب وان الدين وشعائره كانت مضطرة وفي الشرق ايضاً ان تلتئم مع شروط الحياة اكثر من التئام هذه الشروط معها وان كثيراً ما كانت تنشأ تحت لواء الدين حركات مصدرها العوامل الاقتصادية او السياسية لا الدينية كما كنا نظن قبلاً » وقال في موضع آخر « ان اديان الامم الشرقية الكبيرة كالبوذية والبراهمية والاسلام كانت تعدّ زمناً طويلاً المصدر الوحيد لمعرفة نظر الامم المذكورة الى هذا العالم ومعرفة نظامهم الدولي والاجتماعي وكان العلماء يبنون عليها وحدها حكمهم عن ماضي وحاضر ومستقبل تلك الامم ويحاولون ان يستعينوا بها على بيان اسباب سقوط الشعوب التي كانت ولا تزال تدين بتلك الاديان ». وقال العلامة المذكور في مقالة عن الحركة الثورية التي حدثت في سمرقند سنة ١٦٦٥ ما تعريبه : « انا نستطيع ان نبرهن بصورة قاطعة ان من السهل ان نطبق على تاريخ الشرق تلك النتيجة التي وصل اليها علماء التاريخ في الغرب وهي ان بين ترقي الادراك الاجتماعي وبين ترقي طبقة

---

(١) ص ٣١ (من الطبعة الثانية)

التجار والصناع صلة قوية »[١]

واهم من ذلك في نظري ان اكثر علماء اوروبا اصبحوا اليوم يجاهرون بان لا تأثير للدين على انحطاط العمران في البلاد الشرقية وان لهـذا الانحطاط الوقتي اسباباً غير الدين اهمهـا مهاجرات وفتوحات الامم المتوحشة كالمغول والترك وغيرهم ، والحروب الصليبية ، وبعد اكثر بلاد الشرق عن مراكز الحضارة الجديدة ، وتحول طرق التجارة ، الى غير ذلك من الاسباب التي يعلمها اليوم طلبة المدارس الوسطى والتي اشرنا الى بعضها في مقالة نشرناها في اللغة الروسية قبل ثلاثين سنة تحت عنوان « الاسلام والعلم ».

ينتج مما ذكرنا ان تاريخ الشرق وحياته الاجتماعية وعقلية شعوبه على الاطلاق والشعوب الاسلامية على الاخص تخضع لنفس النواميس والعوامل التي تخضع لها حياة وتاريخ الامم الغربية وان امم الشرق قطعت في حياتها الطويلة وستقطع ذات المراحل او الادوار الاجتماعية التي قطعتها الامم الغربية فلا فرق اذن

---

(١) انظر مجلة القسم الشرقي من جمعية الآثار الروسية الامبراطورية ج ١٧ ص ٧

من هذا الوجه بين الشرق والغرب ولا تفوّق طبيعي لاحدهما على الآخر ، وهذا بعض ما نحاول ان نبينه في كتابنا هذا فان وفقنا كان ذلك من حسن حظنا والا فما على المرء الا ان يسعى .

الفصل الاول

اسس الاسلام الاقتصادية

ان القول بان الاسلام فكرة دينية محضة وان ظهوره وتغلبه على وثنية العرب وانتشاره السريع بين اكثر امم الشرق وفتوحات الخلفاء الراشدين وبني امية الواسعة ترجع الى الحماسة الدينية او التعصب الديني يعد اليوم قولاً جزافاً بعيداً عما اثبتته الابحاث التاريخية والاقتصادية كابحاث الاستاذ Wellhausen والامير كايتاني Caetani والاستاذ H.Lammens ونولده كه (F. Noldeke) وعضو اكاديمية بطرسبرج بارتولد (V. Barthold) وغيرهم، فقد اصبح اليوم من المقرر ان الاسلام كغيره من الاديان الكبيرة ليس فقط فكرة دينية بل مسألة اقتصادية واجتماعية ايضاً او بالاحرى هو مسألة اقتصادية واجتماعية اكثر منه فكرة دينية . قال الامير كايتاني (L'Islam non fu un moto religioso-religioso non si fu che la veste l'essenza fu polilica ed economica)

« ان الاسلام لم يكن حركة دينية اذ لم يكن فيه دينياً الا الظاهر، اما الجوهر فانه كان سياسياً واقتصادياً[1] » ومن فضل مؤسس الدين الاسلامي ومظاهر عبقريته انه ادرك مصدر الحركة الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت في ايامه في مكة عاصمة الحجاز، وعرف كيف يستفيد منها و يسخرها لاغراضه

(١) انظر كتابه Annali dell Islam.Vol. I.II

السامية دينية كانت او اجتماعية ٠

يظن كايتاني ان « الاسلام هو آخر مهاجرة هاجرها العرب وان الدافع اليها هو ما كان يدفع سابقاً الى مثلها في جزيرة العرب ، اي جفاف ارضهم المستمر وما يتبع ذلك من الضيق والفقر » ويقول المستشرق الهولاندي الشهير (M. de Goeje) « ان الداعي الى ظهور الحركة الاسلامية هو الدين ، الا ان القبائل الغربية وسكان مكة والمدينة اقبلوا عليه ودخلوا فيه لاسباب غير دينية »[١] ومعنى ذلك ان صاحب الدين الاسلامي استعمل الدين كغيره من اصحاب الاديان الكبيرة قبله وبعده واسطة للوصول الى اغراض اخرى لا علاقة لها بالدين اصلاً اولها علاقة ضعيفة ٠ على كل لا ريب في ان الحركة الاسلامية بنت عصرها ووليدة ذلك الوسط الاجتماعي الذي تكوّن في مكة في اواخر الجيل السادس بعد المسيح ، فاذا اردنا ان نقف على منشأ تلك الحركة التي أدت الى ظهور الاسلام لا بد لنا من معرفة ذلك الوسط وتلك الاسس الاجتماعية التي قامت عليها حياة مكة وما يجاورها من بلاد الحجاز

معلوم ان الاسلام ظهر في مكة وما كان ليظهر الا فيها ، لان الشروط الضرورية لظهوره لم تكن يومئذ متوافرة في غير مدينة من مدن العرب وهذه الشروط كثيرة نقتصر منها هنا على ما يأتي :

كانت مكة قبل الجيل الخامس من التاريخ المسيحي بلدة صغيرة او بالاحرى محطة للقوافل التي كانت تمر بها وهي راجعة من جنوب الجزيرة تحمل بضائع الهند واليمن الى سوريا وفلسطين ومصر ، فاصبحت في اواخر الجيل السادس مدينة تجارية غنية تمد بما كان يأتيها من البضائع المحلية والاجنبية اكثر سكان

(٢) انظر مجلة الشرق الجديدة الروسية ٠ ع ٤

الحجاز واسواقه التي كانت تؤمها العرب من جميع اطراف الجزيرة ومن سوريا والعراق وسائر البلاد العربية . اما اسباب هذا التقدم فكان متوقفاً في الدرجة الاولى على مركزها الجغرافي و وجود الماء فيها ثم على انها اصبحت —ولعل ذلك من اوائل الجيل الخامس— مركزاً دينياً مهماً لقسم كبير من البلاد العربية تحج اليه كل سنة الالوف والوف الالوف من جميع اطراف العالم العربي لزيارة الكعبة المكرمة واقامة شعائر الحج فيها مدة ثلاثة اشهر [1] او للمتاجرة في اسواق الحجاز وعلى الاخص في سوق عكاظ التي كانت تقام كل سنة على مقربة من مكة وكان يحضرها ليس فقط تجار العرب وشعراؤهم بل بعض تجار العجم وسوريا والحبشة الخ

لا اظنني ابالغ اذا قلت ان اكبر دافع الى زيارة مكة كانت هذه السوق وما كان يجري فيها من سباق الخيل ومناظرة الشعراء الى غير ذلك من وسائل اللهو والطرب لا تلك الشعائر الدينية القديمة التي حفظها لنا الاسلام الى هذا اليوم بدون تغيير يذكر . فكان سكان مكة او بالاحرى طبقة قليلة منهم وهم سدنة الكعبة واهل الندوة المعروفون بالملأ يستغلون ايام الحج وشعائره وسوق عكاظ وغيرها من الاسواق كسوق المجنة وذي المجاز ومنى و يستثمرونها لمنفعتهم الشخصية و يستمدون منها نفوذهم بين العرب وقوتهم السياسية والمعنوية المرتكزة على قوتهم المالية

عرف سكان مكة مصدر ثروتهم وقوتهم في الحجاز فاكبوا على التجارة حتى الهتهم عن غيرها من الاشغال، فاصبحت مكة مدينة تجارية محضة لا يفكر اهلها الا في التجارة ولا يهمهم الا جمع المال واستثماره بجميع الوسائل المحللة

(١) انظر عن هذه الاسواق «دائرة المعارف الاسلامية» ج ٢١ ص ٢٠٩-٢١٤

والغير المحالة وما عليك الا ان تقرأ القرآن لتقف على حركة التجارة في مكة ودرجة انهماك سكانها بها و بسائر الاعمال المالية ولتدرك ما كان لهذه السوق الدائمة من التأثير على النبي الكريم وعباراته وفحوي كلامه في اول دعوته بل في جميع ادوار حياته ،فلو انعمت النظر في آيات القرآن لرأيت ان عدد الرجال « الذين لم تكن تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقامة الصلوة واداء الزكوة » (النور ٣٧) كان قليلاً جداً في مكة وان شغف الناس بالتجارة والتجول في اسواق مكة للوقوف على اسعار البضائع وقيمة النقود كان عظيماً جداً حتى ان بعض من اتبع النبي وهاجر معه الى المدينة كان يتركه وهو يصلي ويهرول الى الشوارع ليتنسم الاخبار عن القوافل و يستعلم عن اسعار البضائع لان بعض هؤلاء المهاجرين صاروا في المدينة تجاراً يزاحمون خصومهم في مكة الذين اضطروهم الى المهاجرة بعد ان اكسبوهم حب التجارة والمال .

ونحن لا نعجب من اشتغال سكان مكة بالتجارة وحدها واستثمار ما كان عندهم من المال بشتى الطرق، لان مدينتهم وهي التي وصفها القرآن بانها « واد غير ذي زرع » (ابراهيم ٣٧) لم تكن تصلح لا للزراعة ولا للصناعة فكان اهلها مضطرين ان يعيشوا من محصولات و واردات بلاد اخري وكانت حياتهم وسعادتهم متوقفتين على التجارة او المضاربة بالاموال وما المضاربة،في نظرهم، الا نوع من التجارة ولو لا التجارة ولو لا المضاربة لاضطروا ان يهجروا بلادهم التي الفوها واحبوها على شظف العيش فيها، فكانت حالتهم في ذلك العصر كحالة اخوانهم اليوم يعيشون على الحجاج ومن الحجاج ومن القبائل المجاورة لهم التي كانت ولا تزال الى اليوم تستقرض منهم المال بالربا الفاحش .

هذا ولما كان عدد الحجاج و روّاد اسواق الحجاز كبيراً وكان من واجبات

ومصلحة سكان مكة ان يهتموا بهم و يقدموا لهم كل ما كانوا يحتاجون اليه من طعام وشراب و بضائع ، كانوا والحالة هذه مضطرين ان يحتاطوا للامر سلفاً ويهيئوا بضاعتهم قبل اشهر الحج وافتتاح سوق عكاظ ، فكان لهم في السنة رحلتان رحلة الصيف ورحلة الشتاء (قريش ٢) الى سوريا وفلسطين وجنوب بلاد العرب ليبتاعوا هناك ما كانوا يحتاجون اليه من البضائع وليبيعوا بعض محصولات بلادهم كالتمر والجلد والزبيب الخ . والذي يظهر من بعض الاحاديث واقوال المؤرخين ان رؤوس الاموال التي كانت في ايدي تجار مكة واصحاب القوافل كانت تبلغ احياناً مئات الالوف [١] وانها لم تكن تخص اشخاصاً معلومة بل كانت تجمع من اشخاص عديدة من سكان مكة والطائف على شروط معلومة [٢] يستفيد منها اصحاب القوافل وغيرهم ممن كانوا يؤمنونهم على اموالهم فلاعجب والحالة هذه اذا رأينا اكثر سكان مكة يهتمون للقوافل السنوية و يسألون عنها الرائح والغادي ويختارون لمرافقتها الى الحدود احسن الخفراء واشهر رجالهم في الخبرة التجارية والحنكة السياسية و بعد النظر كابي سفيان وغيره من الملأ المكي ، فكانوا كلما زاد رأس مالهم الذي كانوا ينفقونه على قوافلهم ازداد قلقهم عليها وصعبت مهمة روادها والمسؤولين عنها لان طرق القوافل لم تكن مأمونة من الخطر بل كانت دائماً معرضة لغزو القبائل وسطو شذاذ الطرق وقطاعها الذين كانوا يعيثون في الصحراء فساداً و يعيشون من السلب والنهب ، فكان يصعب على اصحاب القوافل ان يبلغوا ببضاعتهم واموالهم حدود

---

(١) انظر كتاب H. Lammens جمهورية مكة التجارية ص ٣٧ (الجزء الرابع من مجلة Institut Egyptien)

(٢) انظر M. Lammens. La Mecque á la veille de L'hégire, P. 125

سوريا او فلسطين ثم يجتازوا هذه الحدود وجمار كها من دون ان يعض لهم في طريقهم عارض او ينشأ لهم خطر فما كل قافلة كانت تبلغ مرامها ولا كل مكي كان يقدم على جمعها وقيادتها، فكانت القيادة محصورة في اشخاص معلومة عرفوا بثبات الجأش ومضأ العزيمة وحسن السياسة والتوفيق بين مصالح اغنياء مكة وجشع روءساء القبائل التي كانت تمر القوافل باراضيها و يستأجرها اصحابها لخفارتها فكانوا يستميلونهم تارة بالمال وتارة بالمصاهرة وتارة بالارهاب والقوة المسلحة ، ولهذا كان اصحاب القوافل واغنياء مكة مضطرين الى استخدام جماعات كثيرة من الناس لخفارة بضائعهم والمحافظة عليها في الطريق ، وكان اكثر هؤلاء الخفراء من الاحابيش اوعبيد افريقيا وكان عددهم يزداد سنة عن سنة حتى تألف منهم جيش منظم كان يقوم بنفقاته تجار مكة مما يدل على ان تجارتهم كانت رابحة وان ارباحهم كانت عظيمة، والا لما استطاعوا ان يقوموا بهذه النفقات الباهظة و يجمعوا فوق ذلك ثروة كبيرة كما هو معروف .

اما ان تجارتهم كانت رابحة فدليلنا على ذلك ان بعضهم كان يملك مئات الالوف بل الملايين وان مصارفهم كانت ملأى بالدنانير والدراهم مما يستنتج منه ان تجار مكة كانوا يصدرون من البضائع اكثر مما كانوا يستوردون وليس في ذلك شيء من الغرابة فقد عرف من بعض شعوب وقبائل روسيا وآسيا الوسطي في الاجيال الغابرة انها كانت تبيع اكثر مما كانت تشتري من البضائع لانها لم تكن تحتاج — وهي على تلك الحالة من العمران التي تشبه حالة قبائل العرب في القرن السادس — الا الى الضروريات وفي ذلك بيان كاف لعثورهم على كميات كبيرة من النقود العربية في اواسط روسيا وشمالها بين القبائل الهمجية التي كانت تصدر الي الخلافة العربية محصولات بلادها كالفرو

والشهد وانواع الخشب باثمان غالية وتشتري منها ما تحتاج اليه في معيشتها البسيطة .

فالمال اذن كان موفوراً في مكة والطائف وكان اصحابه كثيرين، ولنا على ذلك ادلة عديدة في القرآن وفي الشعر الجاهلي وسيرة الرسول واعظم دليل على ذلك في نظري هو وجود فئة كبيرة من المرابين واصحاب المصارف في اوائل الجيل السابع واضطرارهم — نظراً لتشبع الاسواق التجارية بالمال ولاسباب اخرى — الى تعاطي الربا بل انصراف اكثر تجار مكة اليه حتى صار مصدراً ثانياً لثروتهم واعلاء كلمتهم في البلاد واحد اسباب سخط الناس عليهم لان الربا في مكة كان فاحشاً جداً يتراوح بين ٤٠ و ١٠٠ في المئة[1] اي كما هو اليوم في كثير من البلاد، ولولا ذلك لما حمل صاحب القرآن حملاته المعروفة على المرابين والربا، بل لما منع الربا ولعن المرابين على كل صفحة من صفحات سوره المكية .[2]

ان من يتصفح القرآن بامعان ويبحث عما ورد فيه من الآيات المتعلقة بالربا والمرابين لا يستطيع ان ينكر ان عدد المرابين في مكة كان كبيراً جداً في عصر النبي وان ضررهم على الهيئة الاجتماعية لم يكن بأقل من ذلك، فالويل ثم الويل لمن كان يسقط في شباكهم ويا تعس من كانت تضطره ظروف الحياة الى الالتجاء اليهم، لان هذه الطبقة من الناس لم يكن يهمها من الدنيا الا جمع المال فلم تكن تفقه للرحمة معنى ولا كانت ترى فرقاً بين التجارة والربا الفاحش (البقرة ٢٧٦) وذلك لان التاجر والمرابي كانا في ذلك الوقت

---

(١) انظر La Mecque الخ للكاتب المذكور ٣٠٦ — ٣٣٢

(٢) انظر عن الربا والمرابين بحسب القرآن والفقه كتاب؟ Der Wucher im Qoran etc. Berlin 1903 Emil Cohn.

يعاملان المشتري او المستدين معاملة واحدة ترمي الى غرض واحد وهو الاثراء بجميع الوسائط، فكانوا اذا « اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون(المطففون ١ — ٣) وكانوا يضاربون بالدراهم والدنانير والتبر والنقود الاجنبية فكانوا تارة يزيدون في وزنها او قيمتها وطوراً يخفضون تبعاً لمصالحهم الشخصية وجرياً وراء جشعهم المعهود، ثم كانوا يتلاعبون بالديون بان يؤخروا آجالها او يقدموها او يضيفوا اليها الى غير ذلك من الاعمال التي كانت تؤدي دائماً الى خراب المستدين واستعباده، والتي وصفها صاحب القرآن وصفاً صحيحاً مطابقاً للواقع . قال صاحب الكتاب المذكور : « يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه[1] وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فأن كان الذي عليه الحق سفيهاً او ضعيفاً او لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء (البقرة ٢٨٢) .

كانت نتيجة اعمال هذه الفئة الظالمة خراب المدينين واستعبادهم ثم استثمار اتعابهم بشتى الطرق التي كانت توحيها اليهم ضمائرهم الفاسدة وسنن ذلك العصر وذلك الوسط المنحط، فكان من جملة هذه الطرق ان الدائن كان يحمل امرأة المستدين او بنته على البغاء[2] لايفاء ما على ابيها او زوجها من الدين(سورة النور ٣٣) الذي لم يكن لقريباً سبيل الى ايفائه، لانه كان يزداد كل يوم بل كل ساعة بما كان يضاف اليه من الربا الفاحش، ولهذا لم يكن وقتئذ امل في التخلص من

---

(١) الضمير في «فاكتبوه» يجوز ان يعود الى الاجل والى الدين

(٢) كان ذلك يعرف عندهم بالمساعاة

اولئك الظلمة بالطرق السلمية الا في ما ندر، اما اكثر المدينين فانهم كانوا مضطرين اما الى الهرب الى الصحراء والالتحاق بطبقة المتشردين وقطاع الطرق، واما ان يدخلوا في طبقة الارقاء و يقيموا فيها الى ما شاء الله، وهذا كان حظ الاكثرين كما يستفاد من آيات القرآن والوسائل العديدة التي كان يعمد اليها صاحبه بعد الهجرة اما لتحرير الارقاء واما لتحسين حالهم ٠

كل ذلك ادّى الى وجود طبقتين غير متناسبتي العدد والعدد طبقة المثرين واصحاب البنوك وسدنة الكعبة واصحاب السلطة او طبقة الارسطوقراتية او الملأ او الاعزاء (المنافقون ٨) كما يقول القران وطبقة الصعاليك Troletaires والفقراء والارقاء او الاراذل (الشعراء ١١١) ومن كانت تتوقف حياته وسعادته على ارادة اصحاب اليسار ٠ وان الذي يظهر من مطالعة القرآن [٣] وامعان النظر في المفردات المستعملة هناك للدلالة على طبقة الصعاليك هو ان عدد اصحاب هذه الطبقة في مكة كان عظيماً جداً بالقياس الى عدد اصحاب الثروة فيها ، وان العلاقات بين هاتين الطبقتين لم تكن لتختلف كثيراً عما هي عليه اليوم بين المتمولين والصعاليك او عما كانت عليه حين ظهر الاسلام في روما والقسطنطينية والمدائن ، وهذه العلاقات معروفة اليوم عند الجميع فلا حاجة الى الكلام عنها بالتفصيل ، كما لا حاجة ايضاً الى الاسهاب في وصف حالة الصعاليك في مكة والطائف في ذلك الوقت، و يكفينا لتصوير حالتهم على الاطلاق ان نقول انهم كانوا لا يملكون شيئاً حتى انفسهم، لان حق التشريع كان محصوراً في ايدي الطبقة العليا فكان اصحابها يسنون من الشرائع ما كان يوافق مصلحتهم ، ولما لم يكن لاصحاب هذه الطبقة زاجر من انفسهم

(٣) انظر السور الاتية ١١ : ٢٩ و ٢٤ : ١١١

ولا رادع من ضمائرهم يردعهم عن استثمار اتعاب الصعاليك وامتهانهم و يوقفهم عند حد معلوم من القساوة ، كانت حياة الصعاليك بينهم عرضة دائمة للاخطار وسلسلة يأس وعذاب ، فلا قانون يحميهم ولا شريعة ترق لحالهم وتحاول ان تنتشلهم من هاوية الموت الاجتماعي والرق الابدي ، فكانوا يعيشون في شعاب البلدة واطرافها البعيدة وفي بيوت حقيرة قذرة وعيشة ضنكة وجوع مستمر ، بينما كان الذين اثروا من اتعابهم يقيمون في وسط المدينة في قصورهم الفخمة بالقرب من الكعبة والنادي او دار الندوة مصدري ثروتهم وسلطتهم ٠

هذه صورة مصغرة لحالة صعاليك مكة في اوائل الجيل السابع ، صورة ملؤها اليأس والسخط ، صورة كانت ولا بد تدعو احياناً الى التذمر والاحتجاج واحياناً الى الثورة ، ولا سيما في اوقات الازمات التجارية او الزراعية ، يوم كانت تسوء حالة الفاعل والزارع والرقيق لقلة الاشغال وضغط اصحاب الاموال عليهم ٠ فهل من عجب والحالة هذه اذا خرج صعاليك مكة على ساداتهم وحاولوا بما لديهم من الوسائل ان يحسنوا احوالهم المادية ٠ وهل نعجب اذا سمعنا احياناً شعراء البادية —وما شعراء البادية في ذلك الوقت الا لسان حال الامة والمعبرون عن عواطف الفئة الكبرى منها— ينحون باللائمة على اصحاب الثروة و يقبحون اعمال الملأ المكي و يدعونه الى الرفق بالفقير و يذكرونه بواجبه نحو الارقاء والمظلومين ؟ قال بشر بن المغيرة يحض الاغنياء على مساعدة الفقير

وكلهم قد نال شبعاً لبطنه   وشبع الفتى لؤم اذا جاع صاحبه

وقال الاعشي:

تبيتون في المشتى مِلاء بطونكم   وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

الا انه لم يكن لهذه الصرخات القليلة وهذه الاحتجاجات الضعيفة تأثير يذكر لانها لم تكن موجهة الى استئصال المرض الذي كان ينخر وقتئذٍ قوام

الهيئة الاجتماعية في مكة ويولد ذلك التفاوت بين طبقات الامة الذي تكلمنا عنه قبل ذلك، اذن لم يكن بد لمقاومة هذه الامراض الاجتماعية من دواء انجع ووسائل اقوى ورجال اشد ثباتاً وامضى عزيمة من شعراء البادية، وكان لا بد ايضاً من انتظار الوقت الموافق لأعلان الحرب على الملأ المكي وطبقة المرابين والوقت متى حان يتولى هو بنفسه ايجاد رجل العصر وبطله

لو القينا نظرة الى الوراء وتأملنا ملياً في عمل النبي الاجتماعي في اوائل الجيل السابع للمسيح لتحتم علينا ان نقر ان الاصلاح الاجتماعي بل الثورة الاجتماعية التي احدثها بين ابناء وطنه كانت اهم واعظم واعمق ثورة دعا اليها احد من العرب قبل النبي وبعده .

نحن لا نحب ان ندخل هنا في البحث عن صفات المصلح العربي الشخصية التي دفعته الى اقتحام هذه العقبة الكؤود ، واضطرته الى سلوك ذلك الطريق الوعر الخطر ولكن المجيد ايضاً . قلت الخطر لانه كان يسير بصاحبه عادة الى الجلجلة، بل يكفينا ان نعرف ان النظام الاجتماعي في مكة اعد في اواخر العصر السادس محلاً اجتماعياً لشخص توافرت فيه القوى او الصفات اللازمة كسرعة التأثر ولطف الطبيعة وبعد النظر وطيب القلب ومعرفة طبيعة الناس وحسن السياسة والاستعداد التام لتضحية مصالحه الشخصية بل روحه العزيزة في سبيل المصلحة العامة وتحقيق مبادئه السامية التي توصل اليها بجهده واصبحت جزءاً من نفسه .

انم هذا الرجل الذي توافرت فيه هذه الشروط التي قلما تجتمع في شخص واحد هو محمد بن عبد الله[1] انتدب هذا الرجل ليكون مصلحاً

(١) الارجح ان اسمه قبل الدعوة كان قثم بن عبد اللات

لبلاده او كما يسميه القرآن منذراً وبشيراً لقومه فلباها راضياً مسروراً وانتدابه لم يكن عن صدفة بل كان عن معرفة سابقة لقواه الروحية التي ذكرنا قسماً منها ولاستعداده لمثل هذه الدعوة ، وانما نعني بهذه العبارة الاخيرة معرفة المنتدب للوسط الاجتماعي الذي ولد وعاش فيه قبل الدعوة نحو عشرين سنة كان فيها يتيماً فقيراً يتضور جوعاً ويقتات احياناً وهو يرعى غنم غيره — من الكباث وثمر الاراك ثم صار مستخدماً او وكيلاً في محل تجاري يخص ارملة عاقلة تكاد تكون امه فأصبح مضطراً بحكم وظيفته ان يسافر كل سنة ويخالط الناس ويطلع على احوالهم ويسمع شكواهم ويفكر في اسباب شقاء الطبقة الكبرى منهم والطرق التي يمكن ان تخفف من وطأة الفقر والظلم عليهم ، فكانت هذه الرحلات وهذا الاختلاط بالناس والاصغاء الى احاديثهم مدرسة عملية له اعدته لان يكون ذلك العامل الاجتماعي والمصلح الكبير الذي نعرفه ويعرفه التاريخ

لا شك ان النبي العربي كان اعرف الناس من ابناء بلدته وقومه بامراض البيئة الاجتماعية واقدرهم على مقاومتها ، فقدعركه الزمن وعرك الزمن سنين عديدة قضاها في المراقبة والتفكير ثم دخل مدرسة الحيوة واقام فيها زمناً طويلاً فاطلعته على اسرارها وكشفت له عن غثها وسمينها ، فأدرك معنى الحياة واسباب السعادة والشقاء فيها، فاحب ان يطلع على ذلك السر ابناء بلدته ثم ابناء وطنه ثم العالم كله ، فنهض الى عمله ولا سلاح له الا الاخلاص في النية والاتكال المطلق على الله الذي « وجده يتيماً فآوى ووجده ضالاً فهدى ووجده عائلاً فأغنى » (الضحى ٨) فاية مدرسة اكثر فائدة من ان يكون الانسان يتيماً فقيراً محتقراً فيصبح بجده وامانته وحسن سيرته غنياً محبوباً محترماً ويفقه معنى الحياة ويدرك مصادر الامراض الاجتماعية ثم يفكر في ايجاد علاج

شاف لها وفي مقاومتها على قدر ما تسمح له بذلك قواه العقلية والادبية والوسط الذي يريد اصلاحه والظروف السياسية والعمرانية في ذلك الوقت الى غير ذلك من الموانع التي لم يكن له بدّ من التغلب عليها اذا هو احب ان يصل الى غايته الكبرى التي وضعها امامه ؟

لا شك ان الفقر وما يتبعه من الحالات النفسية كان اكبر مدرسة للمصلح العربي والدليل على ذلك انه كان كثيراً ما يتذكر هذا الدور من حياته ليستمد منه قوى جديدة يستعين بها على مكافحة خصومه والتغلب على تلك العراقيل التي كانت تعترضه في طريقه الاصلاحية ، وان هو نسي هذا الدور اذكره به ربه فقال : « الم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك » ؟ (الانشراح ١—٤) . اضف الى ذلك تيتم الصبي وهو في سن الطفولية وتأثير احاديث الاهل والجيران عن امه وابيه الذي توفي وهو راجع من سوريا يرافق قوافل تجار مكة الاغنياء كعامل او اجير بسيط لا حظ له في تلك القوافل لانه كان فقيراً جداً يخدم اصحاب الثروة في مكة باجرة زهيدة لا تقوم بأود عائلته . وامرّ من ذلك تأثرات النبي في بيت عمه ابي طالب الذي آواه بعد وفاة والده ، وابو طالب كما نعلم لم يكن اسعد حظاً من اخيه عبد الله فكان مضطراً ان يستخدم ابن اخيه ويعوّل عليه في امور كثيرة صعبة . نعم لا ننكر ان كان بين اقرباء الصبي اليتيم من كانت تعد ثروته بعشرات الالوف من الدنانير كعمه ابي لهب التاجر الغني المشهور « الذي لم يغنِ عنه ماله وما كسب » (تبت ٣) او كعمه الثاني العباس صاحب الثروة الكبيرة التي جمعها بالربا الفاحش وجد اسرة بني العباس الا انه لا يستفاد من القرآن والسيرة ان هؤلاء الاعمام الاغنياء كان يهمهم امر ابن اخيهم الفقير

او كانوا يعرفون عنه الشيء الكثير قبل ظهور دعوته وقبل ان بدأ يتهدد ثروتهم المجموعة بشتى الطرق وانه ليغلب على ظني انه كان لهذا التفاوت الكبير في الثروة بين اعمامه، والتأمل العميق في اصل هذا التفاوت، ومصادر تلك الثروة، ثم في اساليب التجارة وطرق معاملة التجار واصحاب المال للناس، اعظم تأثير على عواطف الفتى ونفسيته، وان هذا التباين في الفقر والغنى بين اعضاء العائلة الواحدة هو الذي نبه افكار النبي العربي الى النزاع الاجتماعي الموجود بين طبقات الناس في بلدته، والبحث عن منابعه، وهو الذي دفعه الى اعلان الحرب الكلامية على الطبقة الظالمة الفاجرة المحتكرة لموارد الثروة والمستغلة لاتعاب الفقراء وسكان البادية السذج ٠

رسخت هذه الفكرة في نفس المصلح العربي، وساعد على تقويتها وانمائها فيه ما كان يراقبه يوميًا، حين صار تاجراً او بالاحرى وكيلاً تجارياً لامرأته خديجه، من الكذب والغش في التجارة والافلاس الكاذب واكل اموال اليتامى والتلاعب في الوزن والكيل والبذخ والترف في الطبقة العليا على حساب الفقراء والعمال الى غير ذلك من عيوب التجارة والمضاربة بالمال، فعقد نيته على محاربة هذه الامراض الاجتماعية مهما كلفه ذلك من التعب ٠٠ فأنت ترى مما ذكرانه كان لمنشأ النبي ووسطه الاجتماعي تأثير قوي على ظهوره ودعوته ومضمون اقواله في بادئ الامر بل في جميع ادوار حياته، وانت ترى انه لاصحة لتلك الاحاديث التي تصوره بغير صورته الحقيقية، ولتلك المساعي التي بدت في بعض كتب ظهرت حديثًا في روسيا واوروبا الغربية وهي تحاول ان تجعل من النبي العربي رجلاً مثرياً قام للمدافعة عن حقوق اصحاب الثروة والسلطة في بلاده ومصالحهم المالية ٠٠ معاذ الله ان نحشر المصلح المكي بين

الاشتراكيين او الشيوعيين، او ان نقول ان دعوته كانت ترمي الى اغراض اشتراكية او شيوعية محضة كما خيل لبعض كتبة الغرب[1]، ولكننا نعتقد ان للعوامل الاجتماعية — التي قلما تظهر في الشرق الادنى السامي غير محتجبة بحجاب من الدين كثيف — تأثيراً قوياً على دعوته، وانهُ وقف في جانب الفقراء والصعاليك المظلومين وقفة رجل مغامر في الحياة، ودافع جهاراً عن مصالحهم الحيوية معرضاً نفسه للخطر وغير مبالٍ بعواقب عمله مدفوعاً الى ذلك بعواملٍ ادبية ودينية اكثر منه بعوامل اقتصادية او مالية.

كان سلاح النبي في هذه الحرب الاهلية التي اصلى نارها بنفسه ولا سيما في الدور المكي سلاح من سبقه من مصلحي الاعصر السابقة كصوقراط وبودا وزرداشت والمسيح وسائر انبياء بني سام الذين كان دائماً يحذو حذوهم ويتمثل بهم في جميع ادوار حياته من يوم برز للدعوة الى ان تمّ له الظفر، وما هذا السلاح الا كلمة الاخلاص يدعو بها ويحذر ويستعطف ويسترحم ثم يوعد ويهدد لا يخاف في القول لومة لائم ويقول الحق حتى على نفسه واقرب الناس اليه[2]، هذا عمه ابو لهب الذي برز لمناوأته وراح يفسد عليه عمله ويؤلب الناس عليه فأنه يلعنه ويلعن امرأته ويوعدهما «بنار ذات لهب» نقوم على ايقادها امرأته «وفي جيدها حبل من مسد» (تبت ٤—٥) حيث «لا يغني عنه ماله وما كسب» وهذا احد عظماء مكة واغنيائها المغيرة بن الوليد الذي تعرض للنبي واخذ يعاكسه في مهمته الكبرى فان النبي لم يخش بأسه وقوة ثروته بل دعاه في وجهه «همزة لمزة» واوعده بمحل خالد في الحطمة حيث لا ينفعه ماله «الذي جمعه وعدده» الى غير ذلك من ادلة الجرأة

(١) انظر كتاب M. Grimme «محمد» (جزء اول Munster ١٨٩٢)
(٢) انظر سورة ٢:٢٨ و٢٢:٨١ وغيرها

الروحية والاستخفاف بالاخطار والاقوال التي لم يعتدها سادات مكة واغنياؤها، واعظم من ذلك في الجرأة والتأثير كلمات كان يوجهها الى تجار مكة و ينسب فيها اليهم الجشع [1] والتهافت على حطام هذه الدنيا والتكالب على جمع المال بمختلف الوسائل، و يتهمهم بها باكل مال اليتامى والقصر والمساكين والغش في الوزن والكيل (المصففون ١—٣ والفجر ٢٠) الى غير ذلك من الصفات الممقوتة التي لم تخلُ منها طبقة التجار والمرابين عصراً من العصور الغابرة والتي هي اهم مصادر ثروتهم .

هؤلاء كلهم وسمهم نبي العرب بميسم العار والفضيحة واوعدهم باشد العذابات في الآخرة (٨٣ : ١، ٧٦ : ٧٨ : ٢١ الخ) بعكس اولئك الذين « يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً واسيراً » يطعمونهم « لوجه الله » لا يطلبون « منهم جزاء ولا شكوراً » (٧٦ : ٧—٩) والذين اعدت لهم جنات فيها « حدائق واعناب وكواعب اتراب وكأس دهاق لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً (٧٨ : ٣٢—٣٥) « متكئين فيها على الارائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً و يطاف عليهم بآنية من فضة واكواب كانت قوارير ... و يسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا ... و يطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ... عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا اساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » (٧٦ : ١٣—٢١)

هذه كانت لغة النبي في ذلك الوقت وهذا كان كل ما في وسعه ان يعد به المؤمنين و يوعد به الكافرين، وما الكافرون في نظره الا الذين لم يلبوا دعوته

---

(١) انظر سورة ٧:٥٥ — ٨و١٥٢:٦ و٢٠:٢١ و٨٢:٧ و٨٦:١١ الخ

و ينزلوا عند حكمه في حل المسائل الاجتماعية والدينية : هذه اللغة لم يستخشنها بعد عصرين الاسماعيليون واخوانهم القرامطة شيوعيو الاسلام بل ضحكوا منها وانتقدوها امر الانتقاد، ثم نحن نجالها اليوم بسيطة ساذجة لا تؤثر على احد منا، الا ان هذا لا يمنع انه كان لها في ايام النبي وفي فمه اعظم تأثير على سامعيه الذين لم يكونوا قد اعتادوها من قبل لانه لم يستعملها احد قبله في مكة ، فلا عجب اذن ان احدثت تلك العبارات حركة قوية بين سكان ام القرى على الاطلاق وطبقة الصعاليك منهم على الاخص، اولئك الصعاليك الذين اعجبتهم كلمة الحق والانصاف فاخذوا يدخلون في دين النبي الجديد و يؤيدونه ثم يلتقطون كلامه ويحرضون عليه (١٥ : ٢٩ : ٢٦ = ١١١) اما ان اكثر الذين اتبعوا في بادىء الامر النبي الامي او كلهم [١] كانوا من طبقة الصعاليك والارقاء واصحاب الحرف الصغيرة فهذا امر معلوم، وهذا ما لم يخف على اصحاب الطبقة العليا في مكة كما يظهر من عباراتهم « وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا » (١١ : ٢٧) ولهذا كانوا يحتقرونه وجماعته و يعرضون عنه الى ان قويت دعوته واخذت تستميل اليها العناصر الغير الراضية عن حياتها الاجتماعية فلما احس بذلك اصحاب المال او السلطة اخذوا يشعرون بالخطر الذي ابتدأ يتهددهم و يفكرون في طرق ملافاته، ولا شك ان اول شيء شعروا به لم يكن الخطر على دينهم الذي تعرض له النبي كثيراً في سورة المكية، بل الخطر المالي وربما الاداري، لان الدين لم يكن عند تلك الطبقة التي عرف اصحابها بميلهم الى الظن (Skepsis) بالشيء المهم في جميع المسائل الدينية (٣٦ : ٧٨ : ٢٢ ٥ : ٦٤ : ٧ الخ) وانما كان خوفهم على اموالهم وسلطتهم لانهم فهموا ان اقبال

---

(١) ما عدا عثمان بن عفان احد اغنياء وادباء بني امية وربما ابو بكر الصديق

صعاليك مكة على الدعوة الجديدة سوف يقضي على نفوذهم في البلاد وعلى ثروتهم المبنية على حج الكعبة والتردد في اسواق الحجاز ، لان من نتائج انتشار الدعوة الجديدة ودخول الناس فيها القضاء على الكعبة وشعائر الحج الوثنية التي لم تكن لتلتئم مع الدين الجديد، وفي القضاء على مكة والدين القديم قضاء على سكانها كلهم وبالاخص على اصحاب الثروة والسلطة فيها ، وهو ما اراده عظماء مكة بقولهم للنبي انه يريد بدعوته الجديدة ان يخرجهم من ديارهم (٢ : ٧٨ و ٢٤٧ : ٤ : ٦٩ و ٧٨ الخ) وهذا نفسه ما حملهم على مقاومة المصلح الجديد قبل ان يستفحل امره، واضطرهم الى اتخاذ شتى الوسائل ، كالانذار والتهديد والوعد والوعيد والوساطة والمقاطعة والطعن والهجاء الخ ، لمنعه من نشر آرائه الهادمة ووضع حد لدعوته الثورية في البلاد اوعلى الاقل لاضعاف تأثيرها على عقول صعاليك مكة وارقائها، وقد كادت مساعيهم تنجح ومكيدتهم تفلح لو لم يتساهل النبي [1] مع خصومه قليلاً وقد كفّر عن ذلك بان كرّ عليهم كرة اخرى اشد من الاولى وابلغ ورد كيدهم في نحورهم

فلما رأى الملأ المكي ان لا قبل له بصدّ النبي عن افكاره وحمله على الاتفاق معهم على شروط معلومة عرضوها عليه هموا بقتله او باخراجه من مدينتهم (الانفال ٣٠) فعلم النبي بذلك فأشار على اصحابه ان يتركوا مكة ويسيروا الى المدينة التي سبق وتفاهم مع بعض سكانها ممن كان يمت اليهم بالخؤولة او بصلة اخرى لا نعرفها، فتركوها وهاجروا الى المدينة الليلة السادسة عشرة من شهر تموز سنة ٦٢٢ وكان النبي وصديقه الاعز ابو بكر آخر من هجر بلدته .

كانت ولا ريب هجرة المؤمنين ونبيهم الى المدينة فاتحة دور جديد في

(١) كان ذلك من عمل الشيطان (انظر التفاسير على الايات ١٩ — ٢١ من سورة النجم

حياته وحياة الاسلام على الاطلاق، وان من اكبر مميزات هذا الدور في نظري هو ان النبي اصبح بعد جهاد عنيد وحروب متواصلة مع خصومه القدماء ومع جيرانه الحديثين سيد قومه وزعيم عشيرته بل رئيس مملكة واسعة الاطراف بعد ان كان قبل ذلك واعظاً بسيطاً مضطهداً ومنذراً ومبشراً سلمياً، واصبحت البلاد العربية بعد ثماني سنوات مضت على هجرته تأتمر بأمره وتنزل في كل شيء عند حكمه، فصار من السهل عليه ان يقوم بوعوده ويحقق ما كان يدعو اليه في مكة من الاصلاح الاجتماعي ويحلم به منذ سنوات من المبادىء السامية كالعدل والاخاء وتحرير المرأة والارقاء ومحاربة اسباب الشقاء والفقر بين ابناء بلدته بل في سائر البلدان العربية ٠

لو القينا الآن نظرة الى الوراء وبحثنا عما تمّ على يد النبي الامي من الاصلاح لما استطعنا ان ننكر انه قام باكثر وعوده وحقق قسماً كبيراً من امانيه ولو قدر له ان يعيش اكثر مما عاش لكان الاصلاح الذي ادخله على حياة الامة العربية أتم وأوسع ، ومع ذلك فأن ما عمله في هذه السنين القليلة التي قضاها في المدينة بين الحروب والمنافسات الشخصية والدسائس والحسد والمكر والنفاق والمنافقين لهو شيء عظيم لا ينكره الا كل مكابر عنيداو متعصب اعمى، فمن الاصلاحات التي ادخلها على حياة الامة العربية وجعلها مبدأً من مبادئها هو هدمه للعصبية الجاهلية ومحاولته توثيق عرى المحبة والمساواة والاخاء ولو بين المسلمين فقط على اسس جديدة هي المبادىء الادبية المبنية على العقائد الدينية ، ثم تحسين حال الفقراء بالصدقة اولاً ثم بالزكاة وهي تلك الضريبة التي وضعها المصلح العربي على اولي الثروة واليسار لمنفعة الفقراء والصعاليك ٠ نعم ان هذه الضريبة الاشتراكية التي كان يرتجى منها خير عظيم للفقراء صارت بعد

وفاة النبي وخلفائه الاولين و بالرغم عن ارادتهم وسننهم تنفق او ينفق اكثرها على حاجات الدولة لا على الفقراء والاسرى والايتام والارامل وسبل الاصلاح، ثم لا بد من التنبيه الى ان هذه البدعة الاقتصادية الجديدة التي ابتدعها النبي وهو في المدينة ليست من درجة تلك الوسائل التي يتخذها اليوم الاشتراكيون والشيوعيون لحل المعضلات الاقتصادية والمشاكل الاجتماعية، فالزكاة ضريبة محدودة لا يقصد منها نزع الثروة من اصحابها وتوزيعها على المحتاجين بالمساواة ولا بلوغ المساواة في اسباب المعيشة كما قد يتوهم البعض. وعندي ان غيرها من الاصلاحات التي جاء بها النبي كتحسين حالة الامرأة ومنع الربا وسن بعض قوانين تتعلق بالرق[1] مهما كانت اسبابه (٩١:٥ : ٥٨:٤:٤ : ٩٤:٩:٣:١٣ الخ) ومنع او بالاحرى حصر حق الإثآر (الاسرى ٣٣) وهو اعظم آفات نظام الامة العربية في الجاهلية ثم منع الوأد عند بعض القبائل المتوحشة (٨١:٨:٦ ١٥٣ : ١٧:٣٣) ووضع شرائع اجتماعية اخرى راقية ليس بأقل خطورة من الزكاة، اذا حكمنا على ذلك بنظر ذلك العصر وقابلنا هذه السنن الجديدة بما يحاكيها من شرائع رومية والقسطنطينية والمدائن ناهيك عن شرائع الامم الشرقية المجاورة لجزيرة العرب او البعيدة عنها، ومع ذلك لا بد من الاعتراف بأن السنن المذكورة مع ما فيها من عناصر الرقي لم تكن لتقتل كل جراثيم الامراض الاجتماعية التي اعلن عليها الحرب المصلح العربي الكبير ولذلك اسباب عديدة نقتصر هنا على ذكر بعضها.

لا شك ان النبي العربي لم يقصد باقواله وافعاله في مكة والمدينة ان

(١) انظر عن الرق في الاسلام كتاب B. Roberts تحت عنوان: Das Familien — Sklaven und Erbrecht im Qoran. Leipzig 1908

يستأصل اسباب الشر الاجتماعي و يقتل جميع جراثيمه كما يحاول ان يفعل اليوم جماعة الاشتراكيين على اختلاف اسمائهم ونزعاتهم ، بل كانت غايته الكبرى ان يخفف من وطأة تلك الامراض على بعض طبقات الناس ممن خلقوا بعد قسمة الارزاق او وقعوا في الفقر والرق لاسباب لم يقووا على مقاومتها، والا فلو اراد ان يقتل جراثيم الامراض الاجتماعية كلها لكان لجأ بعد ان اصبح صاحب الامر والنهي في جزيرة العرب الى وسائل غير التي ذكرناها، وما مثل النبي من هذا الوجه الا كمثل سائر الانبياء الذين سبقوه ولا سيما انبياء بني اسرائيل اي انه فضل استعمال الوسائل الادبية — الا في ما ندر من الظروف — على غيرها من الطرق التي لجأ اليها اليوم بعض مصلحي وسياسيي اوربا كلينين زعيم الشيوعية الروسية وموسوليني وغيرهم ، وليس في هذا ما يقدح في ما ادخله المصلح العربي الامي من الاصلاح على امة متأخرة جاهلة ، اذ ليس من العدل ان نطلب من النبي ان يستعمل في الربع الاول من العصر السابع وسائل للاصلاح لم تهتد اليها الانسانية الا في اواسط الجيل التاسع عشر، ولم يتبين حتى اليوم نفعها المطلق فلكل فصل زهوره ولكل عصر رجاله كما يقول المثل الروسي، وعليه يمكننا ان نقول ان محمداً اجاد في وصف الامراض الاجتماعية العربية وتعدادها اكثر منه في علاجها واستئصال جراثيمها، فأن تصويره لتلك الامراض كان يبلغ احياناً حد الاعجاز ويحدث في عقول سامعيه ومخيلاتهم تأثيراً لا يمحي، اما علاجه للداء فكان احط درجة من تصويره له الا ما ندر، مثال ذلك ان النبي اول من تنبه الى استياء الطبقة السفلى في مكة والطائف من حالتها الاقتصادية والاجتماعية، واول من ادرك اسباب هذا الاستياء، الا ان ذلك لم يكن ليحمله على قتل اسباب الاستياء قتلاً

قاضياً كأن يمنع مثلاً التجارة الشخصية[1] ويجعلها كلها تحت مراقبة الحكومة التي انسسها في المدينة ، او يمنع الرق منعاً باتاً ، وينتزع الاراضي من اصحابها ويجعلها ملكاً لمن يعتملها او يحتكر بقية مصادر الثروة الفردية التي كانت ولا تزال اصل الشرور الاجتماعية ، او يستعمل وسائط اخرى مما يشير اليها بعض الاشتراكيين في هذا العصر ، كل ذلك لان النبي لم يكن عدوّ التجارة الشخصية والبنوك ، ولا كان ضد جمع اراض كثيرة في ايادٍ محدودة قليلة ، بل لم يكن مبدئياً عدواً للرق ولا من القائلين بوجوب مساواة المرأة بالرجل والابنة بالصبي مساواة تامة (النساء ١٠ و١٧٥ و٣٤:٢:٢٨٢) في الحقوق والواجبات بل كان فقط ضد سوء استعمال هذه الانظمة الاجتماعية والتطرف فيها (النساء ٣٨ : الزخرف ١٧) كما يستنتج ذلك من خلو القرآن والسنة من آيات او نصوص تدل بصراحة على نسخ الانظمة المذكورة وسن انظمة غيرها . اما ما يرتئيه البعض من ان النبي كان ينوي الغاء ملكية الاراضي وجعلها مشاعة اي ملكاً للجماعة او الامة فهذا سوء فهم لا يؤبهُ له لان هذه الافكار الشيوعية المتطرفة لم تكن لتخطر على بال النبي حتى في الدور الاول من حياته الاجتماعية لا سيما وان مشكلة الاراضي لم تكن في ذلك الوقت وفي ذلك الوسط من المشاكل المهمة لان نظام العشائر او القبائل التي كانت العرب تجري عليه في ذلك العصر كان يحول دون جمع اراض واسعة في يد واحدة يستغلها صاحبها باتعاب غيره ، وباجرة بخسة كما كانت الحال مثلاً في اوروبا وآسيا ومصر في عصر الاقطاع او كما هي اليوم في اكثر الاقاليم المذكورة . فاذا صح هذا الرأي ، واني اراه اقرب الى الصحة من غيره ، نتج عنه انه لم تكن

---

(١) انظر H. Lammens, La Mecque etc. p233—251

في ايام النبي في الحجاز طبقة خاصة من صعاليك الاراضي ، وعليه لم يكن الاستياء الذي ذكرناه آنفاً صادراً عن اصحاب هذه الطبقة، والا رأينا اثاره في الكتاب الكريم كما رأينا آثار غيره من اسباب الصعلكة في مكة ، يؤيد ذلك ان الاراضي التي افتتحها النبي والمسلمون من بعده بالسيف اصبحت بعد قليل من الزمن ملك افراد من المسلمين يتصرفون فيها كيف شاؤوا لا ملك الامة او الخلفاء الذين كانوا يمثلونها . نعم نحن لا ننكر ان اراضي جزيرة العرب التي انتقلت الى ايدي المسلمين بالصلح، و بعض الاراضي الواقعة خارج الجزيرة التي دخلت في حوزتهم بالسيف والتي لم تقسم بين المسلمين حسب القاعدة التي سنها النبي (انفال ٤١ : الحشر ٧) اصبحت ملكاً للامة الا انه لا يجب ان نستنتج من ذلك ان حكم هذه الاراضي (الفيء والوقف) كان كحكم الاراضي الشائعة، اي ان الامة الاسلامية كانت تستثمرها على أُسس شيوعية كما هي الحال مثلاً اليوم في روسيا فيما يتعلق بالاراضي التي احتفظتها الحكومة لنفسها ولم توزعها على الفلاحين لاسباب عديدة لا حاجة هنا الى ذكرها، اذ من المعلوم ان اكثر الاراضي التي اخذت عنوة بقيت في ايدي اصحابها يعملونها بايديهم و يؤدون عنها الخراج، والقليل منها استولت عليه الحكومة وجعلت منه رأس مال ارضياً (fond territorial) تقطع منه لمن تريد وتهب منه ما تشاء على سبيل الملك لا على سبيل الاجارة .[1]

---

(١) انظر عن هذه المسألة مطولاً كتاب البارون (Tornau) تحت عنوان Das Eigentumsrecht nach moslem. Rechte (ZDMG 36. S 285) وكتاب M. Berchem. la propriètè territoriale etc.; H. Lammens, Etudes sur le règne du Calife Moawia 1er. p. 225.

اذا كان الامر كذلك فليس هناك مجال للجدال في ان النبي كان او لم يكن يفكر في دعوة قومه الى نظام للاراضي جديد يمكن ان يطلق عليه ولو على وجه التقريب اسم النظام الاشتراكي او الشيوعي ، وذلك لان النبي لم يكن اشتراكياً ولا شيوعياً بمعنى هاتين الكلمتين الحاضر ولا بمعنى آخر ، وذلك لاسباب يطول شرحها ويرجع اكثرها اما الى عدم توافر الشروط اللازمة في ذلك الوسط وفي ذلك الوقت ، واما الى شخصية المصلح العربي ، واذا قلنا الوسط فانما نعني به الوسط الجديد الذي انتقل اليه النبي سنة ٦٢٢ وهو كما ذكرنا كان يختلف كثيراً عن وسط مكة ، فالمدينة — واكثر سكانها فلاحون فقراء — غير مكة صاحبة الثروة والتجارة الواسعة ، وعليه فاللسان الذي كان يصلح في مكة لم يعد يصلح في المدينة ، بل لم يعد مفهوماً هناك ، والغاية التي اخذ يرمي اليها النبي في المدينة ويعمل على تحقيقها هي غير غايته في مكة ، وفوق ذلك فان سياسته مع المكيين قد تغيرت كثيراً في المدينة تحت تأثير عوامل جديدة ولاسباب عديدة اوجدتها الظروف وأدى اليها الاختبار وحب النبي لوطنه الاصلي واهله وذويه الى غير ذلك من الانفعالات النفسية والعوامل السياسية التي ظهرت بعد موقعتي بدر وأحد وحصار المدينة وكان من نتائجها ان النبي اخذ يلطف من سياسته نحو اخوانه المكيين كما ان اصحاب السلطة في مكة رأوا — بعد ما اصابهم في موقعة بدر وما لحق بتجارتهم من الخسائر — ان يتساهلوا في امور كثيرة مع النبي على شروط تضمن لهم بقاء الكعبة والحج وعكاظ على ما كانت عليه قبل الاسلام وان يشملهم بالعفو ، الا بعض اشخاص ، ويشركهم في عمله الجديد الذي اخذوا يتوقعون منه خيراً لانفسهم وربما كان من شروط التفاهم ان يبقى النبي في المدينة وان لا يتعرض في كلامه لأمورهم المالية فكانت الحديبية وكان « الفتح ونصر الله القريب » وسياسة « تأليف القلوب » (٩ : ٦٠) او بعبارة اخرى

سياسة التسامح والتساهل المتبادل (compromis) فصار الناس « يدخلون في دين الله افواجاً » لا عن اعتقاد بصحة الدين الجديد الذي لم يكونوا يعرفون عنه ومنه الا الشيء القليل ، بل عن رغبة في التقرب من اصحاب السلطة الجدد وحفظاً لمراكزهم القديمة وثروتهم المجموعة في اجيال . . . يخال لي ان من جملة الشروط التي اتفق عليها الطرفان في الحديبية او في مكان وزمان اخرين ان يكف النبي عن الطعن في الملأ المكي وان لا يحرض صعاليك العاصمة الحجازية وارقاءها عليه ، وهذا على ما يظهر لي احد واهم اسباب خلو السور المدنية ولا سيما تلك التي نزلت في الدور الاخير من العبارات القارصة والطعن في سكان مكة ، وهناك سبب اخر لا يقل خطورة عن الذي ذكرناه الآن وهو ان حالة النبي الاجتماعية في المدينة تغيرت كما هو معلوم تغيراً ظاهراً ادى الى تغيير في نفسيته وهذا شيء طبيعي قلّ من ينجو منه فكان من نتائج هذا التغيير ومن الاسباب التي ذكرنا بعضها وغيرها مما لم نذكر ان بعض اصلاحات النبي الاجتماعية والدينية جاءت مبتورة وفيها شيء مما يدعوه الاوربيون بالتساهل (compromis) ربما كان لشخصية النبي ومميزاته القومية اثر في ذلك يصعب تعريفه وتحديد مقداره ، فقد عرف عنا نحن العرب انا ميالون الى التطرف في كل شيء : الى تضحية النفس والى الانانية الزائده ، الى الحب العذري والى التهتك ، الى الصداقة النادرة والى الحقد اللانهاية له ، الى التأله (idèalisme) والى الشغف بالماديات ، الى الديموقراطية الحقة والى عبادة الشخصيات البارزة ، الى الاعتداد بالنفس وشدة الاعتماد عليها والى سرعة اليأس والسقوط في القنوط عند اول صعوبة نجدها في طريقنا ، و بعبارة اخرى ان في الامة العربية قوى عظيمة تارة تدفعها الى اشرف الاعمال وطوراً الى اسفلها

واخسها، وسبب ذلك على ما يظهر لي ان هذه الامة العظيمة الذكية العاقلة على الاطلاق تعيش وتتمسك بعواطفها القوية اكثر منها بعقولها وتسير في حياتها واعمالها اليومية بقوة المصالح الشخصية التي لا تترك سبيلاً للحصول عليها الا طرقته . هذا تاريخنا يشهد علينا اننا قوم ذوو ذكاء ومقدرة على الاعمال وذوو نظر بعيد ولكننا سريعو التأثر وضعيفو قوة التوازن، فسرعان ما نقع في اليأس ان اصابتنا مصيبة، وان اصابتنا حسنة اخذتنا سورة الفرح وكدنا نفقد رشدنا وهذا الحكم ينطبق على الافراد والمجموع ويجري على كبيرنا وصغيرنا وعالمنا وجاهلنا الا ما ندر ...

من الاقوال المأثورة عند الاشتراكيين ان الادراك او الشعور الذاتي يتوقف على الكينونة اي على المحيط وحالة المرء الاجتماعية فاذا تغير المحيط اوحالة المرء الاجتماعية تغير شعوره الذاتي وتغيرت افكاره وسلوكه الا ما ندر وهذا ما حمل النبي العربي — وقد تغيرت احواله الشخصية في المدينة — ان يتبع في النصف الاخير من حياته الاجتماعية سياسة غير تلك التي اتبعها في مكة وهي سياسة اقتضتها الظروف الجديدة وما طرأ على نفسية النبي من التغيير .

كان الدور المكي دور تمهيد واستعداد، دور بث دعوة جديدة بين طبقات الامة، دور حرب ونزاع كلامي بين رجل ثابت في مبادئه مخلص في عمله وبين طبقة من الناس شعرت بالخطر على ثروتها وزعامتها في البلاد فهبت تقاوم ذلك الرجل وتناوئه، دور جهود واحلام لو تحققت كلها لقلبت البلاد رأساً على عقب . ما اجمل هذا الدور وما اعظمه وما احلى تلك الاحلام والمساعي التي بذلت في تحقيقها ! اما الدور الثاني فكان دور عمل وتنظيم، دور

حروب وافتتاحات دور سياسة ومكاشفات ادت الى تساهل من الطرفين ومعنى التساهل في مثل هذه الثورات الاجتماعية هو التنازل عن بعض مطالب او مبادئ او التلطف في الطلب والرجوع عن بعض الافكار او وضعها في قالب يرضاه الفريقان وهذا ما كان من امر النبي العربي و رئيس جمهورية مكة الخبير المحنك الذي كان يتكلم بلسان الملأ المكي — هذا يعترف بسيادة النبي الروحية والعالمية ويهجر الاوثان و يؤدي الزكاة و يقيم الصلاة ، وذاك يتعهد ان تبقى مكة مركز البلاد العربية الديني وان يجعل لاعيان مكة وقادة افكارها حظاً في ادارة المملكة او الجمهورية الروحية الجديدة وان يتركهم وشأنهم يتاجرون و يعيشون كما يشاؤون ، اما الفريق الثالث وهو الطرف الذي استعرت الحرب لاجله وظهرت الدعوة لتحسين احواله فقد ارضوه في بادئ الامر بشيء من الصدقات والزكاة ثم نسوه او تناسوه بعد وفاة النبي وخلفائه الاولين فرجع الى حالته الاولى بل الى ما هو اسوأ منها كما سترى بعيد ذلك واصبح الملأ المكي منذ تولى الخلافة عثمان بن عفان صاحب الامر والنهي في البلاد واصبح ابناء ابي سفيان — رئيس هذا الملأ واكبر اعداء النبي — كتبته المقربين وقواد جيشه الفاتحين وعملائه المبرزين في البلاد المفتوحة بسيوف المسلمين ثم اصبحوا ملوك تلك البلاد لا ينازعهم في الملك منازع الا قضوا عليه ، فكأن دعوة النبي وثورته الاشتراكية واتعابه واتعاب خلفائه الاقربين لم تكن الا لتؤيد خصومه في مراكزهم بل لتزيد في نفوذهم وثروتهم ، وكأن النبي لم يعمل العشرين سنة الا لمصلحتهم ولم يسع الا لسعادتهم . واغرب من ذلك وانكى ان تجار مكة في الامس قد استفادوا من الحركة الاسلامية و بعض افكار ومبادئ عدوهم فأسسوا دولة من اعظم دول العالم تكاد لا تكون بينها

وبين « الامة » التي اوجدها النبي علاقة تذكر وفي ذلك من الادلة على ذكاء بني امية وبعد نظرهم وحنكتهم في السياسة ما لا ينكره الا كل مكابر جاهل او متعصب ذميم ·

الفصل الثاني

الامبراطورية العربية والامم المغلوبة

المعنا في الفصل السابق الى ان المعضلة الكبرى ومسألة المسائل التي حامت حولها عقول اعظم ابطال الاعصر السابقة ولا تزال تعالجها علماء وساسة هذا العصر وهي مسألة التوفيق بين مصالح الطبقات المتضادة اي بين مصالح الغني والفقير، السري والصعلوك، وبين اصحاب المعامل والاراضي الواسعة والعمال والفلاحين، تلك المسألة التي طرقها المصلح العربي ايضاً وحاول ان يحلها على قدر ما سمحت له به ظروف ذلك العصر انتقلت بعد وفاته الى خلفائه مع غيرها من المعضلات السياسية والاجتماعية الا انها اخذت تزداد صعوبة وتعقداً بعد الفتوحات الكبيرة التي فتحها العرب في ايام الخلفاء الراشدين وبني امية واندماج الامة العربية في غيرها من الامم المختلفة صاحبات العمران القديم والاديان المتباينة، فنتجت من ذلك حالة اجتماعية جديدة توترت فيها العلائق بين طبقات المجتمع الاسلامي وبلغ هذا التوتر درجة اصبحنا نخشى معها حدوث انفجار عظيم واصطدام عنيف كادت تكون عاقبته سقوط الدولة العربية وموتها ومما ساعد على زيادة توتر تلك العلاقات هو سياسة الامبراطورية العربية على الاطلاق والاقتصادية على التخصيص ·

لا ريب في ان اشتغال العرب بالفتوحات الواسعة وتمصير البلدان مع ما تبع ذلك من تدفق الاموال المغتصبة والمجموعة بشتى الطرق الى جزيرة العرب وتفرق القبائل العربية في عرض البلاد المفتوحة وطولها ألهتهم زمناً طويلاً عن التفكر في المسائل الاجتماعية التي كانت اهم بواعث الحركة الاسلامية ومصدر

ثروتهم بل ربما انستهم اياها، ثم لا ريب ايضاً في ان الفتوحات المذكورة واتخاذ عواصم جديدة خارج جزيرة العرب كل ذلك قد ساعد على انتقال مركز الحركة الفكرية من مكة والمدينة الى غيرها من المدن الكبيرة العريقة في التمدن، ومن العرب الى غيرهم من الامم المقهورة، لا لأن هذه الامم كانت اقدر من العرب على التفكير واعرق في الثقافة والحضارة ، ولا لان البلاد المفتوحة عرفت الحركات الاجتماعية او الاشتراكية قبل الفتح الاسلامي فكانت اقرب الى تناولها واقدر على فهم اسباب ظهورها من الامة العربية التي لم تسمع بها او لم تفكر فيها الا في اوائل العصر السابع وفي قسم صغير من بلادها ، بل لأن الشروط الضرورية لظهور هذه الحركات كانت متوافرة بين الشعوب الغير العربية والغير المسلمة اكثر منها بين الامة العربية في ذلك الوقت ، والمراد بالشروط هنا حالة تلك البلاد الاقتصادية والادبية .

لو حاولت ان اصف هنا حالة الشعوب المغلوبة في الدور العربي او الخلافة الاسلامية وصفاً كاملاً وشاملاً لجميع مظاهر حياتهم الاجتماعية والدينية والادبية ، او حاولت ان ألم بجميع العوامل التي كانت تدفع الشعوب المذكورة في بعض الاحيان الى الخروج على الامة الغالبة ومقاومة تلك الامراض التي شرع في محاربتها المصلح العربي الكبير لكنه لم يتمها للاسباب التي ذكرنا بعضها آنفاً لاحتجت الى وقت طويل وصفحات تزيد على صفحات هذا الكتاب، ولهذا اراني مضطراً ان اقتصر على ذكر القليل فقط من تلك العوامل مستعيضاً عن ذلك بذكر بعض المصادر العلمية .

ان نظام الضرائب الذي وضع اساسه المصلح العربي مع ما ادخله عليه خلفاؤه من التغيير والزيادات ولا سيما عمر بن الخطاب مؤسس الامبراطورية

العربية الحقيقي و واضع دستورها ونظامها ثم خلفاء بني امية ، كان عبئاً ثقيلاً على عاتق الامم المغلوبة اكثر منه على عاتق الامة الفاتحة ،وذلك لان هذه الامم كالاقباط والسريان والفرس والترك الخ كانت مضطرة بحكم هذا النظام ان تؤدي ،ماعدا ضريبة الاراضي — الخراج —والجزية، ضرائب ورسوماً اخري على الصنائع والحرف ربما كانت اشد وطأة على الاقوام المذكورة من الخراج والجزية، لانها لم تكن محددة معروفة ومبنية على قاعدة مقبولة وكان مقدارها وزمن تأديتها منوطين بعمال الخليفة وجباة المال ، بعكس الخراج والجزية فانهما كانا محددين ومعروفين من قبل ، فلم يكن للعمال والموظفين مجال واسع للتلاعب بهما ، وان لم تكن وطأتهما على الزراع واهل الذمة باخف منها عن غيرها . اضف الي ذلك ما كان يتحمله اصحاب الجزية من الذل والاهانات يوم كانوا « يؤدونها عن يدٍ وهم صاغرون » (التوبة ٣٠) واذا احببت ان تدرك معني هذه العبارة الحقيقي وتطلع على شيء مما كان يحدث يوم كان اهل الذمة يؤدون الجزية فما عليك الا ان تطالع كتب التاريخ والفقه وتقرأ ما كتبه عن الخراج والجزية ابو يوسف وابن آدم وغيرهما.[1] هذا ولما لم يكن سبيل آخر الي التخلص من هذا الذل والارهاق الا الدخول في الاسلام كنت تري سكان العراقين وفارس وبلاد الترك يدخلون في دين الله افواجاً حتي كادت مصر مثلاً في خلافة عمر بن الخطاب تخلو من اهل الذمة واصحاب الخراج ، وكاد المال ينفد من بيت المال في ايام عثمان وعلي وقد كان كثيراً قبلهما، وهذا ما حمل خلفاء بني امية — الا عمر بن عبد العزيز — وعملاءهم في الشرق والغرب على نسخ سنة عمر الاول واخذ الجزية حتي ممن كان يدخل

(١) انظر H. Lammens « ابحاث عن خلافة معاوية الاول » ص ٢٣٣

في الاسلام، وفي ذلك من بواعث الاستياء واسباب السخط على دولة بني امية ما هو معلوم عند الجميع .

لا ريب ان دخول اهل البلاد المغلوبة في الاسلام في النصف الاول من العصر الاول للهجرة كان يؤدي الى تحسين بين في احوال الفلاح والعامل المادية والادبية، وان لم يكن يساويهم بالعرب اخوانهم في الدين، وذلك لان العرب كانت تنظر الى هؤلاء الدخلاء في الدين والقومية العربية بعين الاحتقار خلافاً للمبدأ الجميل الذي جاء به النبي وامر اصحابه باتباعه الا وهو مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات والاخاء بين جميع المسلمين على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم الاجتماعية واحوالهم الشخصية، ومع ذلك فلا احد ينكر ان حالة هؤلاء الدخلاء الاجتماعية كانت، كما قلنا قبل ذلك، احسن من حالة اخوانهم في الامس الذين ظلوا محافظين على اديان اجدادهم وآبائهم، وعندنا أدلة صريحة وشواهد تاريخية عديدة على ان احوال هؤلاء الآخرين اخذت تسوء رويداً رويداً وان الحكومة وعمالها صاروا ينظرون اليهم نظرهم الى بقرة حلوب ومورد جديد للاثراء وسوء الاستعمال كما كانت الحال مع اليهود في اوروبا في الاجيال الوسطى او في بعض انحاء روسيا قبل الحرب الاخيرة .

يظهر لنا ان سوء الاستعمال في جباية الاموال ووضع بعض ضرائب على غير المسلمين ابتدأ في آخر ايام خلافة عمر بن الخطاب كما يفهم من الشكاوي العديدة التي كانت ترفع اليه، ومنها شكوى الفاعل الفارسي فيروز الذي حضر الى المدينة ليشكو عامل الكوفة مغيرة بن شعبه فلم ينصفه الامير من عامله فقتله في المسجد فكان اول شهيد في الاسلام مات ضحية نظامه الاداري وسياسته الاقتصادية .

يقولون ان عمر ابن الخطاب المعروف بعدله وشدته كان يقاوم جور عماله ويحثهم دائماً على انتهاج طرق العدل ويدعوهم الى الشفقة على رعاياهم ويتوعدهم بالعقوبات الشديدة ان هم اخلوا بواجباتهم ثم كان يعزلهم ويستصفي اموالهم[1] الا ان هذه الوسائل كلها لم تكن لتمنع تسرب اموال الرعية ولا سيما اهل الذمة منها الى جيوب المتوظفين وتحول دون تجمع ثروات كبيرة في ايدي بعض الناس وظهور طبقة جديدة مثرية في المدينة عاصمة المملكة الجديدة التي اخذت تتحول بسرعة غريبة من بلدة صغيرة الى مدينة كبيرة ذات ملاء واسواق واسعة ملأى بالبضائع الاجنبية وطبقات اجتماعية جديدة لم تكن موجودة فيها قبل الاسلام ٠

توفي الخليفة المصلح والفاتح العظيم عن ستين عاماً قضى العقد الاخير منها في تأسيس امبراطوريته العربية العظمى وسن القوانين الضرورية لحفظها وضمانها من عثرات الزمان وعبث الرجال، فخلفه بعد جدال طويل وازمة خلافية ذات شأن صهر النبي واحد اصدقائه الاولين عثمان بن عفان احد اشراف بني امية واغنيائهم واحد ادباء عصره القليلين ٠ بويع عثمان بالخلافة وهو في سن لم يقدر معها ومع ما كان عليه من ضعف الارادة وتعلقه باهله واقاربه ان يسوس المملكة الجديدة الواسعة الاطراف بنفسه فاضطر ان يسلم ادارتها الى بني امية ابناء عمه واقدر الناس في ذلك الوقت على ادارة البلاد ، فلم يرض ذلك اكثر الصحابة وحزب المسلمين القديم وجماعة من آل ابي بكر وعمر فأخذوا جميعهم يقاومون الخليفة واهله و يدسون لهم الدسائس و يحرضون الناس عليهم فساءت حالة المملكة ولا سيما حالة الطبقات السفلى من الاهالي وظهرت او بالاحرى

(١) انظر « تاريخ الاسلام» للاستاذ المرحوم A. Müller ج اول ص ٣١١

قويت الاحزاب السياسية فكان من ذلك ما هو معروف عند الجميع مما لا حاجة الى ذكره هنا . فقتل الخليفة الثالث وانتقلت الخلافة الى صهر النبي الثاني وابن عمه علي بن ابي طالب فكانت أيام خلافته حروباً ومنازعات انتهت بعد ست سنوات بقتله وانتقال الخلافة (سنة ٦٦١) الى بني امية خصوم النبي والاسلام حتى سنة ٦٢٨م .

كان يؤمل ان حالة الزارع والفاعل من اهل الذمة وغيرهم تأخذ في التحسن في خلافة بني امية لما عرف عن اكثرهم من بعد النظر في سياسة الامة وسداد الرأي والحزم عند الضرورة وميلهم الى مراعاة عواطف الشعب البسيط والتقرب منه، الا ان حبهم للاموال الذي ورثوه عن اجدادهم تجار مكة وحاجتهم الماسة اليها لقضاء مهماتهم السياسية الكبرى والقيام بالفتوحات الواسعة الصعبة ومحاربة اعدائهم داخل البلاد الى غير ذلك من الاسباب التي اوجدها التغيير الاجتماعي الذي ظهر في دار الاسلام في السنوات الاخيرة التي مرت عليه كانت تضطرهم الى طلب المال بكل الوسائل وفي جميع اطراف امبراطوريتهم الواسعة او بعبارة اخرى الى زيادة الضرائب على الاهالي وجمعها باشد الطرق واثقلها على الطبقات التي كانت تؤديها . .

معاذ الله ان انكر فضل بني امية على الامة العربية وبعض حسناتها على الامم المغلوبة كالفرس مثلاً الذين الغوا بينهم النظام القديم المبني على تفاوت الطبقات وساووا بينهم في الحقوق والواجبات، او كالاقباط والسريان والعرب المسيحيين الذين عاملوهم في بادئ الامر بالحسنى ورفعوا عنهم نير الحكومة البيزنطية الديني وخففوا الضرائب التي كادت تنقض ظهورهم، الا ان ذلك لا يمنعني ان اقول ان حالة الطبقات السفلى من الاهالي اخذت تسوء في اواخر

ايام بني امية وان الخلفاء المذكورين كانوا مضطرين للاسباب التي ذكرتها ان يضعوا من الضرائب وان يستعملوا من الطرق لجمعها ما لم تكن لترضي عنه بعض طبقات الناس ، نذكر من ذلك نسخهم لسنة النبي وخلفائه الراشدين المتعلقة بحقوق او امتيازات من كان يعتنق الاسلام من اهل الذمة والشرك فقد كانت سنة النبي وخلفائه الراشدين ان تعفى هذه الطبقة من الناس من الجزية والخراج ، الا اذا كانت الارض خراجية من يوم الفتح الاسلامي ، اما بنو امية — الا عمر بن عبد العزيز — فأنهم حملوا اهل الطبقة المذكورة على تأدية الجزية والخراج كانهم لم يدخلوا في الاسلام ولم تجر عليهم احكامه . فكانت نتيجة هذه السياسة الاقتصادية ان قلّ عدد الداخلين في الاسلام وزاد استياء الذين دخلوا منهم من الاسرة المالكة والدين الجديد حتى حملهم على الخروج عليها والعمل مع سائر اعدائها على اسقاطها ، فهذه الامة القبطية مثلاً التي استقبلت الجيش العربي الفاتح استقبال الصديق الاعز الزاحف لتخليصها من ايدي عدوها وساعدته بالقوة والنصيحة على فتح البلاد ، لم تلبث ان انقلبت عليه واخذت تسيء الظن به وتتذمر من سياسته الداخلية والمالية ، لانها رأت من افعاله ما نفرها منه واوغر صدرها عليه وجعلها تحنّ الى ايام عبوديتها السابقة قال الكاتب القبطي سويرس يشكو حال امته في اواخر خلافة بني امية « ان كثيرين من اغنياء وفقراء ملتنا انكروا دين المسيح هرباً من الخراج وسائر الضرائب الباهظة »[1] وهناك ادلة وشهادات كتابية اخرى لا تدع محلاً للشك في ان استياء الامم المغلوبة من سياسة بني امية المالية لم يقف عند التذمر

(١) انظر A. Müller, C. Becker, Islamstudien, S. 256
« تاريخ الاسلام » جزء اول ص ٣٠٤ (من الترجمة الروسية)

والاحتجاج او البكاء والاستعطاف بل كان يتعداه احياناً الى الخروج على الدولة وعمالها واعمال السيف، فيهم نذكر من ذلك خروج الترك في آسيا الوسطى سنة ٧٣ هـ على العرب واصحاب السلطة هناك، لانهم أبوا ان يتساهلوا معهم في مسائل مالية ونكثوا بوعودهم نحو فئة كبيرة من قبائل الترك دخلت في دين الاسلام لا عن اعتقاد بل على امل ان يحط عنها جباة المال الجزية اسوة بمن كان يدخل في الاسلام في عصر الخلفاء الراشدين و وفاء بالوعود التي وعدهم بها عمال وشيوخ الدولة العربية يوم دعوهم الى الاسلام، ولولا ما ابداه عمال الخليفة ورؤساء جنده من الحزم وما بذلوه من المال لقضت تلك الثورة على سلطة بني امية في طول البلاد التركية وعرضها، اذ لم يبق في تلك السنة (٧٢٨) في ايدي العرب من مدن آسيا الوسطى الا سمرقند والدبوسية التي كادت تخرج منهم سنة ٧٣٠ بعد حروب طويلة مع خاقان الترك الاعظم ومن التف حوله من امرائهم وملوكهم الصغار، وقد ساعد على استفحال الامر وصعوبة الحال ان بعض العرب من ائمة المرجئة [١] الذين كانوا هدوا الاتراك الى دين الله ووعدوهم باسم حكومة دمشق تلك الوعود كانوا في جانب الترك يحبذون عملهم وينحون باللائمة على اصحاب السلطة وممثليها في تلك البلاد الذين غلب عليهم حب المال حتى انساهم سنة النبي وخلفائه الراشدين .

هذه كانت نتائج سياسة خلفاء بني امية المالية ليس فقط في البلاد التي ذكرناها بل في العجم والقوقاس وما وراء القوقاس وسائر البلاد المفتوحة كما

---

(١) المرجئة نزعة دينية سياسية ظهرت في اوائل حكم بني امية كرد فعل ضد اراء الخوارج المتطرفة وبعض اراء القدريين (انظر عنها كتابي الملل والنحل للشهرستاني وابن حزم ومقالة في مجلة Assyriologie مج ١٦٩

سترى ذلك في الفصل الآتي وكلها نتائج وخيمة ذات تأثير رديء على سلطة بني امية وسني حياتها

ومثل ذلك في الوخامة وسوء العاقبة نظام الاراضي الجديد الذي جروا عليه من يوم اصبح الحكم في ايديهم ، وخلاصة هذا النظام انهم اطلقوا الحرية لمن اراد من العرب المسلمين ان يقتني ما شاء من الاراضي خارج جزيرة العرب بعد ان كان ذلك ممنوعاً كما يقال في ايام ابي بكر وعمر، فكان من ذلك ان تهافت اصحاب الثروة والسلطة من العرب على امتلاك الاراضي في العراق ومصر وسائر البلاد المعروفة بحسن تربتها وغزارة مياهها واخذوا يعتملونها ويستثمرونها بكل ما كان لديهم وقتئذ من الوسائل فادّى ذلك الى انتقال اكثر الاراضي الطيبة الى اشخاص او عائلات قليلة اصبحت ذات ثروة كبيرة فلم يمض على ملك بني أمية خمسون سنة حتى اصبح اخصب اراضي مصر والعراق في ايديهم وايدي حلفائهم ومواليهم ومثل ذلك يقال عن اراضي خراسان وما وراء القوقاس حيث انتقلت اخصب الاراضي واوسعها كموقان ومفازة شروان الى ايدي طبقة صغيرة من العرب المقربين الى اصحاب السلطة او من اعضاء الاسرة المالكة نفسها يستغلونها بواسطة علوج البلاد او زنوج افريقيا الذين كانوا يأتون بهم بالالوف من بلادهم ويجبرونهم على الشغل في مستنقعات مصر والعراق وما وراء القوقاس حيث كانت الملاريا والحر والجوع تفتك بهم فتكاً ذريعاً كما كانت تفتك باخوانهم في الولايات الجنوبية من اميركا الشمالية حتى اوائل النصف الاول من العصر الماضي

اذا اردت ان تعرف كيف كانت تنتقل الاراضي المذكورة من ايدي اصحابها الاصليين الى ايدي الطبقة المذكورة من العرب فما عليك الا ان

تطالع مؤرخي العرب كالبلاذري واليعقوبي والطبري وغيرهم وهناك تجد اخباراً ضافية عن املاك بني امية ومواليهم وتقرأ صفحات كاملة عن طرق استغلال هذه الاملاك وحالة العاملين فيها .

ثم هناك سبب آخر كان يدعو احياناً الى حركات عدائية ضد السلطة الحاكمة ليس فقط بين من اسلم من اهل الذمة والكفار بل بين العرب المسلمين انفسهم، وما هذا السبب الا ذلك القانون الذي وضعه، كما يقال، عمر بن الخطاب وهو ان اراضي الخراج اي التي كانت تؤدي عند الفتح العربي الخراج لا العشر ظلت تؤدي هذه الضريبة حتى بعد الفتح وبعد ان انتقل قسم كبير منها الى ايدي المسلمين . نعم ان هذا القانون لم يسنه بنو امية انفسهم الا انهم حافظوا عليه لا مراعاة لخاطر عمر ولا حباً به و بسننه ، بل حباً ببيت المال او الاصح بالمال نفسه وخوفاً من ان ينتقل ما بقي من الاراضي الخراجية الى ايدي المسلمين والطبقة الممتازة او طبقة الارسطوقراط المعادية لهم ، فمحافظتهم على هذا القانون امر حسن في حد ذاته ومفيد لمصالح الدولة فلا لوم اذن عليهم ولا تثريب لو ساووا في اخذ الخراج بين الملاكين القدماء من اهل البلاد وبين الملاكين الحديثين من المسلمين، الا انهم لم يكونوا ليساووا بين هذين الطرفين للاسباب التي ذكرناها سابقاً والتي ترجع الى كره العرب للاجانب وانفتهم الجاهلية ورفضهم لمبدإ المساواة بغير العرب ، فلا عجب والحالة هذا اذا وجدنا قسماً كبيراً من سكان البلاد المغلوبة ناقماً على العرب ودولتهم، يعمل سراً وعلانية على تقويض ملكهم ومقاومتهم بالسيف والقلم ، ولعله كان بالقلم اكثر منه بالسيف كما تشهد على ذلك الحركة الشعوبية التي اشترك فيها الفارسي والنبطي والقبطي والتركي

وغيرهم من الشعوب الواجدة على سياسة بني امية العربية[١]

بقي هناك عامل آخر من عوامل الاستياء لا بد من الاشارة اليه ولو بعبارات قليـلة وهو يرجع الى ما ادخـله عبد الملك بن مروان من الاصـلاح على ادارة البلاد بعد ان جمع شملها و وحد كلمتها كمسح الاراضي مسحًا جديداً وتسجيلها في سجلات جديدة بلغة الدولة وضبطها ضبطاً محكماً لا تستطيع معه اصحاب الاراضي التلاعب بمقدار الاراضي ونوعها او بمقدار الخراج او العشر المطلوب عنها كما كان الحال قبل هذا الاصلاح يوم كانت الاراضي مسجلة بسجلات قديمة يرتقي عهدها الى أيام الرومانيين او بني ساسان وبلغات لا يفهمها اصحاب السلطة الجديدة اضف الى هـذا الاصلاح المهم اصلاحاً آخر وهو سحب النقود القديمة التي كانت دارجة في البلاد حتى خلافة عبد الملك وصك نقود جديدة كتبت عليها آيات من القرآن عوض الصليب وموقدة النار التي كانت على النقود القديمة ، وأهم من هذا الاصلاح في توحيد الامبراطورية العربية ادخال اللغة العربية في الدواوين والمكاتبات الرسمية بدل اللغات اليونانية والقبطية والفارسية التي كانت لا تزال مستعملة في سوريا ومصر و بلاد العجم، ثم تعيين موظفين من ابناء العرب او من الذين كانوا يحسنون اللغة العربية — وهم في ذلك العصر قليلون — الى غير ذلك من التغييرات المهمة التي حاول عبد الملك ان يربط بها البلاد رباطاً معنوياً بعد ان جمع اطرافها بالسيف وحسن السياسة ٠

كل ذلك كان ضرورياً لحياة الدولة المترامية الاطراف وكان لا بد منه

---

(١) اقرأ عن الشعوبية فصلاً من كتاب المستشرق الشهير J. Goldziher تحت عنوان : Muhamm, Studien, I. 147-177

في خلافة عبد الملك بن مروان أعظم خلفاء بني امية وابعدهم واحدهم نظراً بعد الذي رآه بعينيه من الخلل في البلاد وما آلت اليه الخلافة العربية بعد وفاة والده مروان بن الحكم من التفكك الذي كاد يقضي عليها لو لم يبعث الله لها خليفة مثل عبد الملك . الا انه كان لهذه الاصلاحات كما لكل اصلاح مهم تقوم به احدى الدول مساس بيّن بمصالح بعض الامم او بعض الطبقات المادية وعواطفها القومية فلم تحبذ هذا الاصلاح لانها ظنته موجهاً الى مصالحها الخاصة وتقاليدها القديمة فكان هذا من جملة الاسباب التي جعلتها تنقم على الدولة المصلحة وتعمل في السر والجهر على الايقاع بها وتتمنى سقوطها .

ان سقوط الامبراطورية العربية الاولى وقيام دولة بني العباس مكانها لم يحدث على وجه الاطلاق في حالة الامم المغلوبة تغييراً ظاهراً يذكر وسبب ذلك ان سياسة بني العباس الداخلية وبالاخص ما كان له علاقة بالمال والاراضي والاقتصاد لم تكن لتختلف كثيراً عن سياسة بني امية ولا سيما في خلافة ابناء المنصور واحفاده وذلك بعكس سياستهم الادارية والحربية او الاستعمارية كما يقولون اليوم فأن لهذه السياسة مميزاتها الخصوصية وطابعاً عباسياً تمتاز به عن سياسة من سبقهم من الخلفاء الراشدين و بني امية .

قلت ان سياسة بني العباس المالية كانت اقرب الى سياسة بني امية في ايام اولاد المنصور واحفاده منها في ايامه ، وهذا امر محقق لان المنصور كان اقدر خلفاء بني العباس وابعدهم نظراً فكان يرفق بالفلاح والعامل لأنه اول من أدرك من خلفاء وسلاطين الشرق تلك الحقيقة البسيطة التي يعلمها اليوم طلاب المدارس وهي ان سعادة الدولة وثروتها وعزها تتوقف على سعادة فرادها ورضاهم، ولما ادركها بصائب فكره وذكائه الفطري او بايحاء من وزيره

البرمكي آل على نفسه الا يرهق رعيته بالضرائب وان يتقرب اليها برفع بعض المكوس عنها او باصلاحها على طريقة تضمن للزارعين والعملة نتيجة اتعابهم مما دعا الزارع الى الاقبال على زراعة اراضيه والاهتمام بها والفاعل الى ان يجد في عمله الذي اوجده له الخليفة المصلح في عاصمة البلاد الجديدة وغيرها من المدن والقرى ، فكان من ذلك ان اثرت البلاد واخذ الناس يشعرون بالرخاء والراحة ولا سيما في النصف الثاني من حكم الخليفة المذكور ثم ان الحيوة الاجتماعية في أيام المنصور لم تكن مثلها في ايام خلفائه فلم يكن دخلها بعد الترف والبذخ اللذان نعرفهما في ايام الرشيد وابنائه ، ولم يكن استفحل بعد امر الحريم والغلمان والخصيان ، ولم تظهر الدسائس العائلية والسياسية الى غير ذلك من مظاهر الفخفخة والاستخفاف بمال الناس — الذي اخذوا يشعرون بشدة الحاجة اليه و يطلبونه بجميع الوسائل — او جمع الاراضي الطيبة في ايادٍ قليلة وبيع جباية الخراج وسائر الضرائب من اشخاص عرفت بشرهها وشراستها او من عمال الدولة ومساعديهم الذين كانوا اشد ظلماً على الرعية واسرع الى الارتشاء من غيرهم من الجباة الذين كانوا على كل حال تحت مراقبتهم . زد على ذلك نفقات البلاط الخليفي وحرمه ونفقات امراء الجيش من اتراك ومغاربة وعجم ثم قتل البرامكة واضطهاد من سلم من اصحابهم وموالي الاسرة السابقة الى غير ذلك من مظاهر الظلم وابواب النفقات الباطلة التي لم تكن معروفة في أيام المنصور و بني امية ، فتتبين لك اسباب استياء بعض طبقات الامة العربية واكثر الامم المغلوبة من سياسة بني العباس ومحاولة هذه الامم اسقاط الدولة المذكورة ولا نستثني من بينها هذه الامة واحدة حتى الامة الفارسية التي كان ينتظر ان تكون راضية عن حالتها في ايام بني العباس وسعيدة بما طرأ على الامبراطورية العربية من التغيير الذي ادّى

الى انتقال عاصمة المملكة الى جوارهم واشراك الطبقة العالية منهم في ادارة البلاد واقتباس بعض انظمتهم وعاداتهم القديمة الى غير ذلك من طرق المجاملة والتزلف اليهم . ومع ذلك لم تكن الفرس راضية عن حالتها في خلافة بني العباس عامة وخلافة الرشيد خاصة وقد اخذ استياؤهم يظهر بصورة جلية بعد نكبة البرامكة حين اخذت الفرس تدرك ان سياسة بني العباس نحوهم لم تكن لتختلف كثيراً عن سياسة اسلافهم، وانهم لم يكونوا يجاملونهم و يقربونهم من انفسهم في اول عهدهم بالخلافة الا لانهم كانوا في حاجة ماسة اليهم، ولان مصلحة اسرتهم كانت تقتضي ذلك لا مصلحة الشعب الفارسي، ولو لا ذلك لما قضوا على حياة ابي مسلم الخراساني الذي اجلسهم على كرسي الخلافة وحياة كثيرين من عظماء الفرس وقوادهم . ولهذا ولاسباب اخرى لم تمض على حكم بني العباس زمن طويل حتى أخذ الفرس يشعرون بان لا داعي لسرورهم من التغيير السياسي الذي تم بمساعدتهم في الخلافة الاسلامية ، وانه لا امل لهم في تحسين شروط حياتهم الاقتصادية والحقوقية لانهم رأوا ان الامرة الجديدة تتبع في سياستها الداخلية سياسة الاسرة السابقة اي سياسة « السوط والسيف » ولا سيما نحو الطبقات السفلى اي طبقات المزارعين والفعلة والمحترفين الصغار وهم الاكثرية في البلاد كما هو معلوم، بل ان سياستها نحو الطبقات المذكورة اشد وطأة وأوخم عاقبة من سياسة خلفاء بني امية معها ، وهي الحقيقة التي يؤيدها التاريخ ويشهد على صحتها كتبة بني العباس انفسهم واليك بيان ذلك بالاختصار .

من المعلوم ان مؤسس دولة بني العباس الحقيقي واعظم خلفائها عبد الله المنصور حاول ان يشيد دولته اولاً على التوفيق بين مصالح الامتين الكبيرتين التي كانت تتألف منهما الدولة الاسلامية في عصره وهما العرب والفرس

ليخالف بذلك سياسة بني امية الداخلية التي كانت عربية محضة ترتكز على مراعاة الموازنة بين مصالح الاحلاف العربية الكبيرة وهم قيس واليمن ، وحاول ايضاً ان يقضي على سوء التفاهم الذي وقع بين تينك الامتين في ايام الاسرة السالفة وثانياً على الطبقات الراقية الغنية من الامتين ، فكان من ذلك انه اخذ يتقرب الى اصحاب الاملاك (الدهاقنة) والتجار واهل الادب والعلم وبالاخص الى الطبقة الارسطوقراتية القديمة كآل برمك وغيرهم ممن كانت قضت على نفوذهم في البلاد وقسم من ثروتهم سياسة بني امية الديموقراطية ، فعادت هذه الطبقات الى مراكزها السابقة واخذت تلعب اهم الادوار في حياة الدولة العباسية عامةً وحياة شعبها الفارسي خاصةً ، فنتج عن ذلك ان الفلاح الفارسي الذي اخذ يشعر بشيء من الحرية الشخصية ويتمتع بمحصولات اراضيه في عصر بني امية اصبح الآن بين نارين لا يدري ايهما اشد حرارة على قلبه وتحت نيرين ثقيلين : نير الدولة الغريبة عنه ونير الطبقة الارسطوقراتية المبعوثة حديثاً من قبرها فصار مضطراً ان يعمل لسيدين : سيد ببغداد البعيد عنه والذي لم يكن يعرف عنه الا الشيء القليل ، وسيده القريب منه صاحب الاملاك الواسعة والسلطة الحقيقية عليه لأن هذا السيد كان مكلفاً جباية الضرائب ووضع المكوس الى غير ذلك من الاعمال التي لها مساس بحياة الفلاح الفارسي رأساً .

الا ان الاستياء من الدولة الجديدة لم يكن محصوراً في طبقة الفلاحين والعمال للاسباب التي ذكرنا بعضها بل كان يتعداها الى الطبقات الاخرى حتى الطبقة العالية اي طبقة الدهاقين الكبار ورؤساء الدين القديم لما اصابهم جميعاً من الفشل في سعيهم وراء استقلالهم القومي واعادة دينهم القديم واحياء آدابهم ولغتهم الى غير ذلك من الامال الحلوة التي كانوا يعلقونها على ظهور

دولة بني العباس التي كانوا في بادىء الامر اشد الناس ولاء لها وضحوا في سبيل مصلحتها ارواحهم واموالهم كما هو معروف . أضف الى ذلك زيادة الضرائب والرسوم واضطهاد اصحاب الدين القديم وغير ذلك من الاعمال المغايرة لروح الامة الفارسية، فتدرك حينئذ اهم اسباب استياء الشعب الفارسي والشعوب المجاورة له التي عاشت اجيالاً تحت تأثير النظام والادب واللغة الفارسية من سياسة خلفاء بني العباس ومحاولتها مرات عديدة التخلص منهم، وقد دامت هذه المحاولات سنين عديدة ولم تنته الا بسقوط الدولة العباسية ودخولها مع من كان تحت سلطتها من الأمم تحت حكم علوج آسيا الوسطى ومنغوليا .

لو اردنا ان نذكر جميع الثورات التي « اقامها الشعب الفارسي على الدولة المباركة » من يوم ظهرت اول ثورة سنة ٧٥٥ (ثورة سنباذ) الى آخر ثورة عقبها سقوط الدولة المذكورة لضاق بنا المقام ولاضطررنا ان ندخل في باب التاريخ المحض، على انه لا بدّ من الاشارة الى امر لم ينتبه اليه مؤرخو الشرق وهو انه كان لهذه الثورات او لاكثرها كثورة استاذ في سنة ٧٦٧ او عطا سنة ٧٧٨ صبغة دينية قد تستدرج القارىء او الباحث الغير المدقق الى الخطأ في الحكم عن اسبابها الحقيقية، الا انا نعلم الآن ان هذه الصبغة لم تكن الا حجاباً شفافاً يحجب ما وراءه من العوامل السياسية والاقتصادية التي هي السبب الحقيقي لهذه الثورات كما بينا ذلك في مقدمة هذا الكتاب . ثم لا بد من الاشارة ايضاً الى ان عدد الحركات الثورية ضد السلطة الحاكمة او عمالها في البلاد اخذ يزداد في خلافة المتوكل على الله (٨٤٧—٨٦١) وابنائه اي من يوم ظهر الضعف الادبي والعجز المالي في دولة بني العباس، فكان لا بد لقمع هذه الثورات ورد غارات العدو على الحدود الشمالية والغربية من جيش كبير منظم .

ومال كثير يقوم بنفقات هذا الجيش الذى اصبح اكثره — من ايام المأمون — من الترك والديلم والمغاربة وغيرهم من الاقوام الغريبة المضمرة العداء للامة العربية وخلفائها . زد الى ذلك نفقات القصور والمدن الجديدة التي اخذ ينشئها خلفاء بني العباس ووزراؤهم في بغداد وسامرّا ، والمال في ذلك الوقت عزيز صعب المنال حتى على اصحاب السلطة المركزية لاسباب اهمها ان عملاء هذه السلطة في الاقاليم البعيدة صاروا يحتفظون بقسم كبير من الضرائب لانهم اخذوا يشعرون بضعف السلطة المركزية وعجزها عن معاقبتهم لو ارادت ذلك ، ولما لم يكن لهم زاجر من انفسهم ولا من الحكومة التي كانت تقيمهم في البلاد بالرشوة والتزلف كان الشعب مضطراً ان يردّ شرهم بالقوة كما حدث سنة ٨٠٧ في سمرقند حين خرج على عامل الخليفة المستبد الظالم وقتله شر قتلة ، او كما فعل الشعب مرات عديدة في مصر والعراق وارمينيا واذربيجان التي كانت تئن تحت نير اولئك العتاة الظالمين . يكفيك ان تقرأ بضع صفحات من تواريخ البلاذري واليعقوبي والطبري وابن الاثير لترى بنفسك كم كانت تعاني في ذلك الوقت اي في اواخر العصر الثامن واوائل التاسع سكان الامصار المذكورة من ظلم الحكام وجباة الاموال ، وكم من مرة كانت مضطرة ان تلجأ الى السلاح لتخفف عن نفسها وتضع حداً لاستبداد عمال الحكومة فكان لا يمضي عام حتى « تتحرك » البلاد كما يعبر عن ذلك اليعقوبي والبلاذري في كلامهما عن سكان ارمينيا واذربيجان وبالاخص عن « الصنارية »[1] والخزر النازلين على شواطيء بحر الخزر او بحر الكاسبي الغربية وغيرهم من خوارج القوقاس

---

[1] الصنارية امة قوية من امم ما وراء القوقاس كانت تقيم على حدود جمهورية اذربيجان الحاضرة (في ولايتي باكو وغنجه سابقاً) وقسم من اذربيجان العجمي والارجح انها من الطوائف الارمنية

والعجم وتشق عصا الطاعة على السلطة الحاكمة فتضطر هذه الى حشد الجيوش وصرف الاموال الكثيرة لتعيد الامن الى نصابه ولو لا اختلاف هؤلاء الاقوام في الغاية والوسائل وتفرق كلمتهم لما استطاع عمال الدولة العباسية ان يقيموا في تلك البلاد شهراً واحداً ولانسلخت البلاد من ذي قبل

اخذت حالة السلطة المركزية تزداد حرجاً واخذ امرها يسير الى الزوال يوم صار عمالها من العرب ينحازون الى الخارجين عليها او يحرضونهم على الخروج وشق عصا الطاعة عليها لحزازات او اغراض شخصية او لانهم شعروا ، كما قلنا، بضعفها وقرب اجلها فاصبحوا يرون اقرب الى مصالحهم الشخصية او العائلية ان يصطنعوا سكان البلاد المذكورة والمتنفذين فيها ويمالئوهم ليستفيدوا منهم متى سقطت دولة بغداد او متى قرروا هم انفسهم ان ينسلخوا عنها و يؤلفوا امارات اوسلطات مستقلة كامارات بني شيبان و بني مزيد والامارة الكسروانية التي قامت بعيد ذلك على انقاض الخلافة العباسية في القوقاس وما وراءه مما ادّى الى ظهور طبقة خاصة في ارمينيا واذربيجان تعرف بطبقة « المتغلبين » وما المتغلبون الا بعض عمال بني العباس في تلك البلاد او رؤساء بعض القبائل الذين انشقوا عن خلفائهم الشرعيين وحاولوا ان يستقلوا كل الاستقلال او بعضه [1] ليبدؤوا في تاريخ الاسلام دوراً جديداً يذكرنا بدور الاقطاع (féodalisme) في اوربا في الاجيال الوسطى فكان عمل هؤلاء الامراء المستقلين داعياً لغيرهم من اصحاب النفوذ في البلاد والامم المغلوبة على امرها ان يحذوا حذوهم ويجربوا ان ينشقوا عن الخلافة العباسية فكان اول من فعل ذلك وحاول ان ينشر لواء الحرية على جبال قراطاغ بابك الخرمي او پاپاك الفارسي كما هو اسمه الحقيقي في لغة قومه .

(١) اقرأ عن هؤلاء المتغلبين تاريخ اليعقوبي وهو اعرف المؤرخين بهم وبتلك البلاد

الفصل الثالث

حركة بابك وتعاليمه الاشتراكية

تختلف حركة بابك الخرمي واشياعه عن غيرها من الحركات الثورية السابقة بامرين خطيرين : تنظيم الحركة والغاية التي كانت ترمي اليها . اما تنظيم الحركة فيظهر اولاً في نجاحها وسرعة انتشارها وثبات اصحابها امام عدوهم المسلح نحو اثنين وعشرين سنة ثم في اقبال الناس عليها اقبالاً غريباً لم نعهده في تاريخ غيرها واشتراك عدد كبير فيها من الامم المجاورة لبلاد الفرس كالكرد والارمن والروم وغيرهم من قبائل ما وراء القوقاس الصغيرة اشتراكاً فعلياً يدل على اتفاق سابق وشعور قوي بالمصلحة العامة .

قلت ان بابك واتباعه ثبتوا امام جيوش خلفاء بغداد اكثر من عشرين سنة كانوا يدافعون فيها عن مبادئهم وارواحهم مدافعة الابطال المستميتين في حب بلادهم وحريتهم وانهم وان غلبوا في آخر الامر فقد تمكنوا قبل ذلك من ضرب عدوهم الالد ضربة كادت تقضي عليه وتأتي على قواه المادية والمعنوية اذ من المحقق عند اصحاب التاريخ ان ضعف الدولة العباسية وبوادر سقوطها اخذت تظهر في اواخر خلافة المعتصم (٨٣٣—٨٤٢) احد خلفاء بني العباس العظام بلا جدال وكعبة شعراء عصره الذين بالغوا في تعظيمه ووصف الظفر الذي ناله في حروبه العديدة بمساعدة قائده التركي العظيم حيدر بن قاووس الافشين الذي لولاه ولولا عساكره التركية لسقطت دولة بني العباس في حربها مع بابك لا محالة .

لا ريب في ان حركة بابك كانت نتيجة تلك العوامل الاجتماعية والسياسية

التي ظهرت في اواخر الجيل الثامن واوائل التاسع في مملكة بني العباس عامةً وفي اذربيجان خاصةً والتي كان من تأثيرها ان زالت هيبة السلطة الحاكمة او كادت تزول في نفوس الامم الغريبة كالفرس والترك او الغير مسلمة كالقبط والسريان والارمن وفي عيون العرب. انفسهم وسقطت منزلتها الادبية الى درجة اصبح معها رعاياها لا يقيمون لها وزناً ولا يحسبون لقوتها حساباً كما يظهر ذلك من اقوال بعض مؤرخي العرب[1] ومن تعدد الثورات والغرض الذي اخذت ترمي اليه وهو الانفصال التام عن جسم الخلافة العباسية وتأليف ممالك او امارات مستقلة من نوع مملكة بني امية في اسبانيا وامارة الاغالبة في شمال افريقيا او الجمهورية التي حاول بابك ان يخلقها في جبال قراطاغ من الشعوب الايرانية التي عجز خلفاء بني العباس عن ادماجها في الامة العربية ودينها او عن ايجاد طرق للتفاهم بينها وبين الامة الغالبة .

لدينا من الادلة ما يكفي لان نفرض ان بابك واتباعه بدؤا يفكرون بالخروج على خلفاء بغداد ويهيئون للثورة اسبابها منذ امد بعيد وانهم كانوا ينتظرون الفرص المناسبة للشروع في العمل واعلان الحرب على خصمهم الاكبر نستدل على ذلك من المخابرات السرية بين بابك وامبراطور بزنطية

---

(١) قال المسعودي في «التنبيه والاشراف» (ص ٣٧٨): «وكانت في ايامه (ايام المقتدر) امور لم يكن مثلها في الاسلام منها غلبة النساء على الملك والتدبير حتى ان جارية لامه تعرف بثمل القهرمانة كانت تجلس للنظر في مظالم الخاصة والعامة ويحضرها الوزير والكاتب والقضاة واهل العلم» وقال ابن الاثير (ج ٨ ص ١٥٩) ما حرفه « وكان سبب ذلك انهم لما اعادوا المقتدر الى الخلافة زاد ادلالهم واستطالتهم وصاروا يقولون اشياء لا يحتملها الخلفاء منها انهم يقولون من اعان ظالماً سلطه الله عليه ومن يصعد الحمار الى السطح يقدر يحطه » طالع ايضاً كتاب الفخري في الآداب السلطانية

ثيوفيل (٨٢٩— ٨٤٢) وسلفه [١] التي نرجح انها ابتدأت قبل الثورة فقد ذكر بعض المؤرخين ان بابك ذهب بنفسه الى عاصمة الروم او الى الحدود البزنطية الجنوبية ليدعو امبراطورها الى الاشتراك معه في حرب عامة يعلنونها على عدوهم المشترك لكنه يظهر لنا ان لا صحة لهذا الخبر لانه يصعب علينا ان نصدق ان بابك زار [٢] بزنطية ايام الحرب التي نرجح انها نشبت في صيف سنة ٨١٧ اما انه زارها قبل اعلان الحرب فلا دليل على ذلك الا انه يمكننا ان نقدر استناداً على الحوادث التي سنأتي على ذكرها بعد ذلك، ان بابك، بعد ان عزم على الخروج على خليفة بغداد، اطلع بواسطة احد رسله صديقه وحليفه الطبيعي امبراطور الروم على عزمه والغرض من خروجه وطلب اليه ان يمده بجيوشه او ان ينضم اليه بنفسه في هذه الحرب العامة التي كان يرجي منها خير لهما جميعاً ان هي انتهت بسقوط عدوهما الالدّ ٠ على كل حال لا ريب في ان بابك كان يستطيع ان يعوّل في حروبه مع خلفاء بغداد على مساعدة البزنطيين و بالعكس فنحن نعلم انه لما ساءت امور بابك بعد عشرين سنة صرفها في مقاومة اعظم جيش واضخم دولة في ذلك العصر برز لمساعدته امبراطور الروم وحاول بمناوراته على الحدود العربية (العواصم) ان يصرف قسماً كبيراً من جيش الخليفة المرابط في اذربيجان عن بابك ونعلم ايضاً ان فئة كبيرة من اصحاب بابك حاربت سنة ٨٣١ تحت قيادة رجل ايراني يعرف بتيوفوب [٣] Théophobe

(١) انظر ملحق المؤرخ (Théophane) ج٣ و ٢١ص ١١٢ وميخائيل السرياني ج ٣ص٢ ٥٢ وتأليف الاستاذ الروسي فاسيليف «بزنطية والعرب» ص٣٧

(٢) انظر ملحق Théophane ص١١٢و Gesenios ص٥٤ وابا الفرج ابن العبري وغيرهم

(٣) انظر «Cesenios» ج م ص ١١٩

في جانب البزنطنيين وان قسماً كبيراً من جيش بابك اجتاز الحدود البزنطية بعدما اصاب بابك من الفشل ، ونزل في ارض الروم على الرحب والسعة وهناك تنصر

يُستدل من هذا ان صداقة قديمة قوية كانت بين بابك وامبراطور الروم ان لم تكن معاهدة حربية سرية . الا ان بابك لم يكتف بهذه الصداقة وحاول ان يستميل الى دعوته جيرانه الاقربين اي الكرد والارمن او على الاقل ان يضمن حيادهم في الحرب المقبلة على شروط يتفق معهم عليها قبل الحرب لكنه لم يوفق الى ذلك تماماً وذلك لان الارمن ابوا ان يدخلوا في المحالفة التي دعاهم اليها الا فئة صغيرة منهم كانت تقيم في مقاطعة سيونيا (صنهيون ؟) فانها انضمت اليه عن طيبة خاطر وارتبطت معه برباط متين وثق عراه زواج بابك بابنة اميرهم وقائد جيشهم اما سائر الامة الارمنية فأنها رأت اقرب الى مصالحها القومية ان تنتهز هذه الفرصة المناسبة لتصلح امورها التي تضعضعت كثيراً سنة ٧٧٢ بما اصابها من الفشل والخسارة في حروبها الاهلية ومع عمال خلفاء بغداد فقررت لذلك ان تلزم الحياد خوفاً من ان تكون نتيجة الحرب بين شيوعيي قراطاغ وخليفة بغداد وبالاً عليها ان هي انحازت الى جانب الاولين ولو لا هذا الحذر ولو لا هذا الحياد من طرف اكثر بطارقة الارمن لكانت نتائج الحرب غير التي نعرفها .

اما اشتراك الكرد في هذه الحرب فقد كاد يكون عاماً كما يظهر من اقوال المؤرخين الذين ذكروا ان عصمة اميرمرند ورؤساء القبائل الكردية في همذان وكرمنشاه وغيرهما من المقاطعات الشرقية قد انضموا الى دعوة بابك غير مكرهين ولا مساومين . قال اليعقوبي ، وهو اعرف المؤرخين باحوال تلك البلاد ،

« وكان محمد بن البعيث قد شايعه وعصمة الكردي امير مرندا في طاعته (١) » وذكر غيره (٢) « ان الاكراد كانوا يدخلون في دين بابك افواجاً » وهذا يدل على انهم كانوا مرتاحين الى عمله وميالين الى مبادئه الجديدة وكذلك القول في الباطنية او الاسماعيلية واكثرهم من العجم والكرد فانهم كانوا ايضاً في جانب الخرمية يمدونهم بالمال والنصيحة والرجال كما يشهد على ذلك ابو منصور البغدادي صاحب كتاب « الفرق بين الفرق والفرقة الناجية منها » (٣)

فأنت ترى مما ذكر ان اكثر الامم الايرانية المقهورة في ارمينيا واذربيجان من خراسان في الشمال الى العراق العربي في الجنوب اخذت تتألب على دولة بني العباس وتعمل جهاراً على اسقاطها وقد زاد الطين بلة وجعل الخطر على حياة الدولة المذكورة قاب قوسين أو ادنى هو ممالئة قائد الجيش الخليفي حيدر بن قاوس الافشين لبابك وحلفائه من شيوعية العجم والاتفاق معهم سراً على تحرير الامم الايرانية والتركية المقهورة وجعلها امارات وسلطنات مستقلة تحت ادارة رجال منهم . هذا اذا صح ما عزي من الخيانة الى القائد المذكور الذي طالما أقال الدولة العباسية من عثرتها وشتت شمل اعدائها في الخارج والداخل ونظم جيوشها الا انه يظهر من المحاكمة العلنية التي اقيمت على الافشين بعد ان وضعت حروب بابك اوزارها ان تهمة الخيانة التي اتهم بها لم تكن عارية عن الصحة فقد تبين من المحاكمة المذكورة التي امر باجرائها المعتصم بالله (٨٣٣ ٨٤٢) انه كان للافشين ضلع مع بابك او مع حليفه مازيار صاحب طبرستان

(١) انظر تاريخه ج ٢ ص ٥٧٧
(٢) ابو منصور البغدادي في « الفرق بين الفرق » ص ٢٦٦
(٣) ص ٣٣١ و ٣٣٤

وانه حقيقة كان ينوي سلخ البلاد التركية او قسم كبير منها عن الخلافة العباسية ليجعل منها امارة او سلطنة مستقلة تحت ادارته . قال مازيار في جلسة من جلسات المحكمة العرفية المذكورة ان حيدر الافشين كتب اليه يقول: [1] «لو اتبعتني لاستطعنا ان نقضي على الاسلام و نرجع الى ديننا الفارسي القديم »

يؤيد ذلك ما ذكره اليعقوبي في تاريخه عن خروج منكجور على الخليفة قال : « وكان اول سبب حبس الافشين ان منكجور الفرغاني خال ولد افشين وخليفته باذربيجان خلع هناك وجمع اليه اصحاب بابك وسار الى ورثان فقتل محمد بن عبيد الله الورثاني وجماعة من اولياء السلطان » [2]

اذن لا ريب في خيانة اعظم قواد جيش الخليفة لولي نعمته الذي غمره باحسانه ورفع مرتبته ولو لا ذلك ولولا ان الخليفة رأى بعينيه ادلة الخيانة لما امر بمحاكمته ولما استغنى عنه بتلك السهولة التي يذكرها المؤرخون وهو في ذلك الوقت اشد الناس احتياجاً اليه والى اعوانه من الترك وعليه صح ما ذكرناه قبيل ذلك عن تشعب المؤامرة ضد السلطة العربية واشتراك اكثر الامم المغلوبة فيها وهذا يدل على خطارة العمل الذي اقدم عليه بابك وحرج مركز الدولة العباسية في ذلك الدور من حياتها وقد زاد في حرج هذا المركز انه كان بين المتآمرين بعض زعماء العرب ممن اعمت المصالح الشخصية او العائلية قلوبهم وانستهم او جعلتهم يتناسون ان الغاية الكبرى من هذه المؤامرة هي محق السلطة العربية في تلك البلاد والقضاء على الاسلام واهله واعظم من ذلك

---

(١) انظر « Fragmenta hist. arab » ج ١ ص ٤٠٦

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٥٨٣

في الغرابة وادل على ضعف العاطفة القومية في قلوب عرب ذلك العصر وتغلب مصالح الفرد او العشيرة على مصالح الامة هو ما ذكره اليعقوبي في تاريخه من ان عمال الخليفة الكبار في اذربيجان هم الذين اوعزوا الى بابك بالخروج على سلطانهم وولي نعمهم وحرضوه على العصيان واعدين اياه بالمساعدة وان بين المحرضين كان حاتم بن هرثمة زعيم تلك العائلة العربية التي عرفت في التاريخ بخدماتها العديدة للخلافة العباسية والامة العربية وابن هرثمة هذا كان واليا للخليفة على ارمينيا واذربيجان [1] حيث ترك آثاراً محمودة . قال المؤرخ المذكور «: واشتدت شوكة بابك وكان محمد بن البعيث قد شايعه وعصمة الكردي صاحب مرند في طاعته» (٢:٥٧٧) وقال في موضع آخر : « ان محمد بن البعيث انحاز الى بابك» (٢:٥٧٧) وما مثل حاتم بن هرثمة ومحمد بن البعيث الا كمثل غيرهما من عمال الخليفة في ارمينيا واذربيجان ورؤساء بعض القبائل العربية هناك من حيث عدم الاخلاص لخلفاء بغداد وحكومتهم وتقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة فكأنهم كلهم اصبحوا لا يفهمون ان عزهم وسعادتهم بل وجودهم في البلاد المذكورة كانت تتوقف على طاعتهم لخلفائهم وهيبة الحكومة المركزية وقوتها المادية والمعنوية وليست هذه بالمرة الاولى التي تغلبت فيها روح العشيرة ومصالحها الجزئية على روح الامة ومصالحها الحيوية العامة فقد ذكر التاريخ ان نصر بن سيار عامل خلفاء بني امية على خراسان وآسيا الوسطى اهاب قبل مئة سنة مضت على ظهور الاسلام برؤساء قيس واليمن ان القوا سلاحكم يا قوم ووحدوا كلمتكم في ديار الغربة وامام عدو قوي

---

(١) كانت ارمينيا واذربيجان مقاطعة او امارة واحدة قبل خروج بابك واستفحال امره . انظر تاريخ اليعقوبي ٢:٥٦٥ (من طبعة ليدن)

عنيد يريد بكم الشر و بدولتكم الاذى فلم يكن من يسمعه او يفقه لحوادث ذلك العصر معنى فكان من امر العرب في تلك البلاد ومن امر اسرتهم العربية ما هو معلوم عند الجميع[١]

هؤلاء هم حلفاء بابك وهؤلاء هم المخلصون او المماثلون له ولدعوته الذين كان يستطيع ان يعتمد عليهم في مقاومته لسلطة بني العباس اما الظروف المناسبة التي رافقت هذه الحرب الطويلة او سبقتها وربما ساعدت على الاسراع في اعلانها فكثيرة ايضاً نقتصر على ذكر بعضها فمنها اشتغال جيش الخليفة المأمون في ذلك الوقت بتدويخ الثورات التي استعرت نارها في العراق ومصر و بلاد العرب[٢] ورد هجمات جيش الروم الذي اجتاز الحدود ، بعد ان فتح وهدم قلعة زبطرا سنة ٨٢١، واخذ يتغلغل في دار الاسلام و بالاخص في ارمينيا المماثلة له التي كاد يحتلها كلها وصار يتصرف بها و بامرائها كما كان يتصرف ببلاده وسكانها[٣] وأهم من ذلك ان الجيش الرومي اصبح ، بعد ان احتل ارمينيا ، مجاوراً لبلاد بابك فصار في وسعه ان يمده برجاله ونصائحه ولعل هذا الامر هو الذي حمل امبراطور الروم على الزحف على ارمينيا واحتلالها . وهناك فرصة اخرى لا بدّ ان بابك استفاد منها وهي خروج حاتم بن هرثمة على عامل الخليفة في ارمينيا واذربيجان انتقاماً لابيه هرثمة الذي قتله المأمون غيلة سنة ٨٢٠ ومن منا لا يعرف منزلة هرثمة بين العرب وما كان له من النفوذ بينهم وعلى سياسة الدولة ؟ اما ان بابك قد استفاد من هذه الثورة فهذا امر طبيعي وقد اشار

---

(١) الدينوري — كتاب الاخبار الطوال — ص ٣٦٠ (من طبعة بطرسبرج)

(٢) انظر تأليف Weil «تاريخ الخلفاء» ج ٣ ص ٢٣٧

(٣) Laurent, l'Armenie entre Bysance et l'islam, p. 318

اليه المستشرق اليهودي (Weil) في تاريخه حيث قال « ان بابك قد استفاد من هذه الحادثة بان صوّر المأمون خائناً لمصالح الفرس» [١] ثم اضف الى ذلك ان خروج حاتم بن هرثمة على الخليفة سهل خروج غيره من العرب المرابطين في تلك البلاد او من اهل البلاد الناقمين على حكومة بغداد والشعب العربي وبينهم بابك واشياعه كما اشار الى ذلك اليعقوبي في كلامه الذي ذكرناه سابقاً والذي يفهم منه ان ثورة حاتم بن هرثمة كانت من دواعي الاسراع في حركة بابك لا من اسبابها لان استعداد بابك للخروج على بغداد واعلان الحرب على عامل الخليفة في اذربيجان وارّان وارمينيا كانت سبقت، كما نرجح، ثورة حاتم [٢]

نرى مما ذكر ان حلفاء واصدقاء بابك كانوا كثيرين وان الظروف كانت في بادئ الامر موافقة لحركته واكثر الشعوب المغلوبة، وعلى الاخص الطبقات السفلى منها، تميل الى دعوته وتدخل فيها راضية مملوءة امالاً بحسن عاقبتها وكانت تجارب تحت الويته الحمر [٣] مستقتلة . قال ابو منصور البغدادي (توفي ١٠٣٨) « ان عدد الخرمية الذين انضموا الى جيش بابك في اذربيجان والديلم فقط بلغ ثلثمائة الف نفس» [٤] وذكر الطبري « ان جماعة كثيرة من اهل الجبال (Médie) من همذان واصبهان وماسبذان ومهرجان قذق دخل في دين الخرمية وانهم تجمعوا فعسكروا في عمل همذان » [٥] ويستفاد من مصادر

---

(١) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ٢٣٧
(٢) اليعقوبي ٢ ص ٥٦٨
(٣) كانت الوية الخرمية حقيقة حمراً (انظر ZDMG ج ٢٣ ص ٥٣٤
(٤) الفرق ٢٦٨
(٥) ج ١٠ ص ٣٠٥ (من طبع القاهرة)

اخرى ان عدد البابكيين لم يكن قليلاً في ولايات ايران الجنوبية وفي العراق[١] وان الحركة البابكية اخذت تنتشر انتشاراً سريعاً بين علوج تلك البلاد اي بين العاملين في اراضي غيرهم بالاجرة

وهنا يجدر بنا ان نتساءل عن الاسباب التي حببت الى هذه الطبقات الدخول في الدعوة البابكية والاقبال على مساعدتها بالنفس والنفيس ؟ فنجيب على هذا السؤال، وذلك استناداً على اقوال كتبة المسلمين عن حركة بابك وتعاليمه ، ان اهم العوامل التي ساعدت على نشر دعوته بين الطبقات والامم المذكورة لم تكن دينية ولا سياسية بل اجتماعية واقتصادية تؤيد ذلك افعال بابك واشياعه يوم كانت القوة في ايديهم ثم برنامجهم او بروغرامهم الذي لا نجد فيه اثراً يذكر للعوامل الدينية او السياسية .

ذكر بعض مؤرخي العرب ان البابكيين كانوا يعاملون أسراهم ولا سيما العساكر منهم بالحسنى فكانوا غالباً يطلقون سراحهم على شرط ان لا يشتركوا مرة اخرى في قتالهم وذكروا انهم كانوا يحسنون معاملة نساء اعدائهم واولادهم ممن كان يقع في ايديهم ايام الحرب حتى لو كانوا من طبقة الدهاقين والقواد الخ . ذكر الطبري[٢] انه لما أسر بابك وجيء به مع اخيه الى بغداد للمحاكمة او بالاحرى للتعذيب « كانت النساء اللواتي اطلقهن قبلاً من الاسر يضربن على وجوههن و يبكين » حزناً وشفقة عليه فلما سألهن حيدر الافشين عن سبب بكائهن اجبنه بان بابك « كان يحسن الينا » . اما عن معاملة بابك واشياعه لاصحاب الدين الاسلامي ونظرهم الى الدين نفسه فعندنا ادلة كافية

(١) تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٢٧٩
(٢) تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٣٣٨

تشهد بتساهلهم الديني ومجاملتهم لاصحاب الدين فقد ذكر ابو منصور البغدادي وهو عدو البابكيين الالد ، ان بابك واتباعه — وا كثرهم على دين زرادشت — لم يكونوا يمنعون المسلمين المقيمين بينهم من التمسك بدينهم واقامة شعائرهم علناً بل كانوا يساعدونهم على بناء مساجدهم « حيث كانوا يؤذنون » [١]

كل ذلك يحملنا على الاعتقاد في ان الغرض من الحركة البابكية لم يكن مقاومة الاسلام وذويه ولا مقاومة العرب كأمة فاتحة مغتصبة كما كانت الحال في اكثر الثورات السابقة لحركة بابك في بلاد العجم بل محاربة ذلك النظام الاجتماعي الذي كانت تئن تحته الطبقات السفلى من جميع الامم التي كانت تتألف منها وقتئذ دولة بني العباس حتى الامة العربية نفسها وان لم تشترك ابناء هذه الامة فعلاً في الثورة البابكية . نعم ان بابك واتباعه كانوا يرمون الى هدم ذلك النظام المستند على اصحاب الاملاك (الدهاقين) ورؤساء الدين والجيوش المسخرة المأجورة وابداله بنظام جديد ليس فيه طبقات ولا نزاع مستمر بينها ولا ظالم ومظلوم ولا غني وفقير ولا سيد وعبد ولا كبير وصغير ، بنظام مبني على العدل والاخاء والمساواة .

انا لنأسف جداً ان مؤرخي الفرس والعرب لم يحفظوا لنا برنامج بابك الاجتماعي بحرفه الواحد وان الشيء القليل الذي حفظوه لا يشفي غليلاً ولا يحل الالغاز والصعوبات التي يجدها الباحث في تاريخ الحركة البابكية وغايتها هذا اذا فرضنا ان اصحاب التاريخ ، وكلهم من اعداء البابكيين ومذهبهم ، لم يحرفوا بروغرامهم [٢] لاغراضهم الجدلية وكرههم الديني لهم . على انه يمكننا

(١) الفرق ص ٢٥٢ ومقالتنا « بابك والبابكية » باكو ١٩٢١

(٢) نجد خرفات وترهات عديدة عن الخرميين في كتاب « البدء والتاريخ » لمطهر بن طاهر المقدسي

استناداً على هذه الاخبار ومصادر اخرى غير جدلية ، ان نبرهن على صحة ما قلناه قبلاً وهو ان بروغرام بابك ومازيار وسائر اشتراكيي اذربيجان وطبرستان كان يحتوي على مسائل اجتماعية واقتصادية فقط يمكن حصرها في مسألتين اساسيتين وهما : (١) نزع الاراضي الواسعة من اربابها الذين اغتصبوها سابقاً من الفلاحين او الدولة وتوزيعها مجاناً على المزارعين المحتاجين اليها و (٢) تحرير الامرأة الشرقية او الايرانية على الاقل من عبوديتها الابدية واعطائها اهم ما للرجل من الحقوق .

اذا صح ذلك ، ولا نراه الا صحيحاً ، كان بروغرام البابكيين الخرميين الاجتماعي عين بروغرام شيوعيي ايران في العصر السادس للمسيح المعروفين بالمزدكيين نسبة الى صاحب دعوتهم ومؤسس مذهبهم مزدك وعليه يكون بابك واصحابه تلامذة او اتباع مزدك ولو اختلفوا ، كما سنرى ، في بعض نقط طفيفة اقتضاها الزمن والوسط الاجتماعي الجديد . وقد انتبه الى هذه الصلة المعنوية بين شيوعيي العصر السادس والعصر التاسع معاصرو بابك واكثر من كتب عن حركته ومبادئه من مسلمي الاعصر المتأخرة كابي منصور البغدادي والمطهر المقدسي والغزالي وغيرهم ممن كتب في البدع الاسلامية والنحل الفلسفية قال ابو منصور المذكور : « ان الخرميين كانوا على مذهب المزدكيين »[1] والذي يظهر لي ان ليس فقط بابك واشياعه اخذوا مذهبهم عن اخوانهم في الجنس والغاية اصحاب مزدك بل سائر شيوعيي فارس واذربيجان كالمازيارية والجاويدانية وغيرهم ممن عرفوا باسماء زعمائهم مع اتفاقهم في المسائل الجوهرية . مما يدل على ان اراء مزدك لم تمت بموته وموت الالوف من اشياعه الذين كانت

(١) الفرق ص ٢٦٨

دولة بني ساسان تتعقبهم في كل البلاد الخاضعة لها بل بقيت حية في صدور كثيرين من تلاميذه الذين سلموا من القتل ولجأوا الى جبال اذربيجان واران مصدر الحركة المزدكية وعش الشيوعية وكل الحركات الاشتراكية [١] التي ظهرت في ايران من يوم عرفها التاريخ بل ملجأ المضطهدين لدينهم او مبادئهم الاجتماعية قبل مزدك وبابك يثبت ذلك ما ذكره صاحب معجم البلدان [٢] من ان فئة من اصحاب مزدك اختبأت بعد محنته المعروفة في جبال اذربيجان المنيعة حيث ظلت تحافظ على مبادئها الى ايام بني سلجوق وخلفائهم الاقربين لانها وجدت هناك وسطاً ميالاً اليها لم تلبث ان انتشرت فيه ونمت بعيدة عن عين العدو وحريصة على مذهبها الاشتراكي حرصها على نار اجدادها المقدسة وتقاليدهم وآدابهم القديمة ٠

بقيت اراء مزدك تنتشر خفية بين سكان اذربيجان والبلاد المجاورة لها وتستميل اليها العناصر الغير الراضية عن حالتها الاجتماعية كبعض طبقات الفرس والمتطرفين من الشيعيين والباطنية الذين كانوا اشد الناس بغضاً وكراهة للاسلام والدولة العباسية واسهلهم انقياداً لكل حركة كانوا يأملون منها شراً للدولة المذكورة ولقد ساعد على حفظ هذه المبادئ ونشرها بين الشعوب المستاءة ان الحركة كانت ، كما يستفاد من اقوال بعض الكتبة المتأخرين ، منظمة وفي ايدي اناس خبيرين بطرق الدعوة يتناقلها بعضهم عن بعض الى ان وصلت الزعامة الى رجل يدعي جاويدان بن سهل (المتوفي ٨١٦) استاذ بابك وصديقه الاعز فتسلم قبل وفاته زعامة الحزب الشيوعي في اذربيجان لما تفرس فيه من الاستعداد

(١) انظر Grundriss d. iranische Philologie, B. II, S, 558
(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٥٦٩

الطبيعي للرئاسة وقوة الارادة والاخلاص للدعوة الى غير ذلك من الصفات التي يحتاج اليها كل زعيم كبير . وقد برهن بابك بما ادخله على حزبه من الترتيب وابداه من حسن الادارة والثبات عند المحن مدة اثنتين وعشرين سنة امام عدوّ اقوى منه عدداً وعدداً انه ذلك الرجل او ذاك المهدي الذي كانت تنتظره الامم والطبقات المظلومة المغلوبة على امرها ليحررها من العبودية الطويلة ويحقق احلام مزدك الحلوة .

وهنا سؤال آخر لا بدّ من الاجابة عليه بما امكن من الايجاز وهو ما هي الاسباب التي ساعدت على نشوء الحركة الشيوعية في بقعة من الارض معلومة وحفظها فيها عدة اجيال ؟ لا شك ان هناك اسباباً معقولة كما لكل حركة اجتماعية ظهرت في تاريخ الاسلام او غيره وما هذه الاسباب الا تلك الشروط الاجتماعية او بالاحرى الاقتصادية التي كانت متوافرة في تلك البقعة من الارض منذ اجيال بعيدة والتي كانت تمدّ المبادئ الاشتراكية بالغذاء الكافي وتضطرها احياناً الى الانفجار اما اهم هذه الشروط فهي ، كما يظهر لي ، حالة الفلاحين في تلك البلاد وعلاقتهم باصحاب الاراضي .

ان ما نعلمه من امر نظام الاراضي في اذربيجان واران يحملنا على الاعتقاد ان كل الاراضي في تلك البلاد او اكثرها كانت تخص اشخاصاً معدودة من طبقة الدهاقين او الارباب والخانات كما يسمونهم اليوم وان هذه الطبقة من الناس كانت تستغل اراضيها بواسطة الفلاح الفارسي او غيره من علوج البلاد واسرى الحرب وتراقب اعمالهم بنفسها من وراء جدران قصورها التي كانت تعد بالالوف وتغطي اكثر بلاد العجم ولا سيما المقاطعات الغربية والشمالية منها فكان الفلاح يعمل اراضي سيده كالرقيق لا يأخذ على تعبه مكافئة تذكر

بل كان في ايام بني ساسان[1] رقيقاً بمعنى هذه الكلمة الحقيقي لا يملك شيئاً حتى حق الزواج والتمتع بامرأته الا اذا سمح له بذلك سيده كما كانت الحال في روسيا الى سنة ١٨٦١ وفي اوروبا في عصر الاقطاع وسلطة الملاكين وقد رأينا ان دخول تلك البلاد تحت الحكم العربي لم يغير الا الشيء القليل من حال الفلاح الفارسي الاقتصادية وانها — الا في اوقات معلومة — بقيت على ما كانت عليه في ايام بني ساسان وسبب ذلك ان السلطة العربية على الاطلاق لم يكن يهمها من امر هؤلاء الاعاجم وغيرهم من الامم المغلوبة الا تأدية ما عليهم من الضرائب[2] في الوقت المعين وهذا ما دعاهم على ما يظهر الى ابقاء اكثر الاسر القديمة المالكة والعائلات الكبيرة في وظائفها القديمة لانها كانت في نظر الدول العربية اقدر من غيرها من المتوظفين على جمع المال وتأديته الى الحكومة في حينه . ثم نحن نعلم ان اذربيجان والبلاد المجاورة لها كانت من تلك المقاطعات التي حافظت اكثر من غيرها من الاقاليم الفارسية على نظامها السابق اي على النظام الساساني المبني على تقسيم الناس الى طبقات[3] معلومة لكل منها حقوقه وواجباته وان البلاد المذكورة ظلت متمسكة بهذا النظام الى سقوط الدولة العربية بل الى ما بعد ذلك كما يستفاد مثلاً من كلام اليعقوبي الذي زار بنفسه هذه البلاد وعرف احوالها اكثر من غيره من مؤرخي العرب فقد ورد في تاريخه ان طبقة العلوج ، وهم الفلاحون الذين لا يملكون اراضي ، كانت كثيرة العدد في ذلك الاقليم وان حالتهم كانت تسوء

(١) انظر عن حالة الفلاح في ايام بني ساسان كتاب الاستاذ Ar.Christensen l'empire des Sasanides

(٢) انظر تاريخ الاسلام ل A. Müller ج اول ص ٣٠٦

(٣) طالع عن نظام بني ساسان تأليف A. Christensen المذكور

يوماً عن يوم مما كان يضطرهم مراراً الى الخروج على ساداتهم وتأليف عصابات—وما كان اكثرها في ذلك العصر—للنهب والقتل وزاد على ذلك ان حالة الفلاحين الاحرار لم تكن باحسن من حالة من ذكرنا من اخوانهم ولا سيما بعد ان اصبح جمع الخراج والمكوس وسائر الضرائب في ايدي ملتزمين من اصحاب الوظائف والنفوذ في البلاد يتقاضونها بجميع الطرق ولا يراعون في جمعها الا مصالحهم وشهواتهم الشخصية . ذكر صاحب معجم البلدان (١) ان الحجاج بن يوسف عامل الخليفة، عبدالملك على الشرق، كان يجمع من مقاطعتي فارس والاهواز ثمانية عشر مليوناً من الدنانير فقط فصاروا يجمعون منها بعد اربعين او خمسين سنة اثنين وثلاثين مليوناً ثم اخذت هذه الضريبة تزداد الى ان بلغت ، حوالي النصف الاول من العصر التاسع اي قبل ظهور بابك واشياعه بعشرين او ثلاثين سنة ، خمسة وثلاثين مليوناً التزم جمعها وتأديتها الى بيت المال فضل بن مروان وزير الخليفة المتوكل ومعنى ذلك ان الضرائب التي كانت تؤخذ من تينك المقاطعتين قد تضاعفت في مئة سنة مع بقاء الارض على حالها فتأمل ! اما كيف وممن كانت تؤخذ الضرائب فانا نترك الجواب على ذلك الى القارئ اللبيب

اذا تدبرنا كل ذلك ادركنا اسباب تمركز الحركة الشيوعية في اراضي اذربيجان واران الخصبة ولماذا كان المصلحون الايرانيون من مزدك الى بابك يلحون في طلب نزع الاراضي من ايدي الاقلية وتوزيعها على الفلاحين بالقسط وما ذلك الا لانهم ادركوا ان في تحرير الاراضي تحرير الفلاح نفسه ووضع حد لاستغلال اتعابه .

---

(١) اطلب في معجم البلدان كلمتي «اهواز» و«فرس».

هذه هي النقطة الاولى المهمة في برنامج البابكية اما النقطة الثانية وهي السعي وراء تحرير المرأة الايرانية فليست الا نتيجة للنقطة الاولى و وجودها في بروغرام الخرمية دليل قاطع على انه لم يطرأ على حال الامرأة الايرانية تغيير يذكر من يوم ظهر مزدك وربما من يوم زرادشت الذي بدأ يدافع عن حقوقها المهضومة ويطالب بحريتها . نعم ان الكتبة المتأخرين واكثرهم من الناقمين من مزدك وبابك واشياعهما ، حاولوا ان يؤولوا هذا الطلب الصريح العادل تأويلاً لا يتفق مع غرض المصلحين المذكورين مما يدل اما على سوء نية واما على عدم فهمهم معنى الحرية التي كان يطلبها مزدك و بابك للامرأة فقد خيل لبعض الناس ان المصلحين المذكورين يقولان باباحة النساء وهذا غير صحيح اذا اطلقنا الكلام ولم نقيده بشروط ذكرها بعض كتبة العرب كما سنرى

قال بلعامي المؤرخ الفارسي ومختصر تاريخ الطبري « ان مزدك نسخ الزواج (الشرعي) وملكية الاراضي وكان يقول «ان خالق المسكونة قسم الاشياء بين الناس بالقسط فلم يعط احداً اكثر من غيره ولهذا لا بد من نظام يتساوى فيه عدد النساء ومقدار الاراضي التي يملكها كل شخص ويكون من مقتضاه ان من يملك اراضي واسعة لا يستطيع ان يقول اني لا اعطي منها شيئاً لغيري ومثله من يملك عدة نساء لان النساء مشاعة (بين الناس) اي ان امرأة الواحد تخص الآخر وامرأة هذا الآخر تخص من يجب ان يأخذها » [1] ونقل ابو منصور البغدادي عن غيره بلا تدقيق ولا تحقيق ان للبابكية في جبلهم ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم فاذا أطفئت سرجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال النساء على تقدير من عزّ بزّ » [2] وهذا

---

(١) A. Christensen, Le règne du roi Kawadh. P. 73

(٢) الفرق ص ٢٥٢

يشبه ما نقله الشهرستاني[١] وغيره من الكتبة المتأخرين الذين لم يروا ولم يسمعوا لا المزدكيين ولا البابكيين بل كانوا يرددون اقوال من سبقهم من الكتبة المتغرضين نذكر منهم ابا الفرج العبري (+١٢٨٦) الذي اورد في كلامه عن سنباط بن سهل احد بطارقة ارمينيا الذي قبض على بابك وسلمه لافشين بعد ان خدعه واهانه وهتك حرمة امرأته وامه واخته « ان بابك الملعون كذا كان يفعل بالناس اذا اسرهم مع حرمهم »[٢] وهناك فئة اخرى من الكتبة، وجلهم من المتأخرين البعيدين عن زمن الحركة البابكيه، كانوا يحشرون اشياع بابك « بين اللصوص واصحاب الفتن وقطاع الطريق والخراب والدعار » و يختلقون عنهم مثل هذه الاعمال و يطلقون عليهم هذه الالقاب اما عمداً ليثيروا عليهم الرأي العام والجهلة واهل التعصب الديني والقومي واما لجهلهم الحقيقة وتأو يلهم بعض عادات القوم تأو يلاً يتفق مع ما الفوه من النظر الى الامرأة في اعصر الجهل والانحطاط الادبي · ومن الاسباب التي استدرجت بعض الكتبة المتأخرين الى الخطأ في الحكم على آداب البابكيين واخلاقهم انهم نسوا او تناسوا ان بابك واتباعه كانوا يدينون بدين زرادشت مع تغيير ضعيف طرأ عليه تحت تأثير النصرانية والاسلام وان هذا الدين لم يكن ليمنع الزواج بين الاخ واخته كما كانت الحال عند البطالسة في مصر مثلاً و بين الاقربين ممن حرم الاسلام الزواج بينهم ولما كان هذا النكاح « رجساً من عمل الشيطان » في نظر المسلمين كانوا ينسبونه دائماً الى التهتك والخلاعة والمرح حتى ان بعض كتبة العرب ومن اخذ عنهم من علماء اوروبا[٣]

(١) كتاب الملل والنحل ج ١ ص ٢٩١

(٢) تاريخ مختصر الدول ص ٢٤١ وكتاب البدء والتاريخ م ٦ ص ١١٧

(٣) مقالة Flügel عن الخرمية في مجلة ZDMG م ٢٣ ص ٥٣٢ — ٥٣٣

اشتق كلمة خرميين —وهو اسم اصحاب بابك المتغلب عليهم— من كلمة خرم وهو المرح في الفارسية وهذا غير صحيح لان الكلمة اخذت من خرم وهو اسم محل معروف في اذر بيجان

ثم يظهر لي ان هناك سبباً آخر لاساءة الظن في البابكيين ومبادئهم الادبية وشدة الطعن فيهم ولا سيما من قبل بعض الكتبة البعيدين عن زمن الحركة على اختلاف اديانهم وقومياتهم[1] وهو ان جماعة من اهل الدعارة والتلصص[2] انضمت الى شيوعيي اذر بيجان ابان الحرب وايام نجاحهم لا لأنها كانت تمت اليهم بنسب مبدئي او لأنها كانت تدرك غاياتهم السامية بل لأغراض سافلة معلومة والارجح ان هذه الجماعات كانت تفرقت — بعد ان فشل بابك وقضي على حركته الشيوعية سنة ٨٣٨ —في المقاطعات الشرقية واخذت تنهب وتقتل السابلة باسم البابكية والبابكيون منهم براء ٠

نحن نرجح انه كان للبابكية ليلة عيد يجتمعون فيها في جبالهم على الخمر والزمر كما اننا لا ننكر انهم كانوا ينكحون الاخوات و بعض ما حرم الاسلام نكاحه اما انهم كانوا يفتضون في تلك الليلة النساء على تقدير من عزّ بزّ و يأتون المنكرات والمحرمات على الاطلاق فهذا ما لا نصدقه لانه يخالف ما نعلمه من مبادئهم الادبية و يناقض تعاليمهم الدينية التي اخذوها عن زرادشت ومزدك و بنوا عليها آراءهم الاجتماعية فقد عرف عن اصحاب مزدك انهم كانوا في عيشتهم اليومية وعلاقاتهم مع بعضهم ومع غيرهم من الناس اقرب الى الزهاد والنساك منهم الى اصحاب الاحزاب الاشتراكية او الاجتماعية ٠ قال

---

(١) ومنهم ميخائيل السرياني ج ٣ ص ٥٠ وصاحب البدء والتاريخ ج ٦ ص ١١٧

(٢) من اسمائهم الواردة عند مؤرخي العرب : اصحاب الفتن ٠ القطاع ٠ الخراب الدعار الخ

(A. Christensen) في كتابه المذكور سابقاً ان « اهم شيء عند المزدكيين وعند المانيين (اصحاب ماني) ان يبتعد الانسان عن كل ما يربط روحه بالمادة ولهذا كانوا يحرمون على انفسهم اكل لحوم الحيوانات واشياء اخرى لا تأكلها الزهاد»[1] والمزدكيون لم يكونوا يأكلون لحوم الحيوانات لاعتبارات اخرى منها ان ذلك كان يضطرهم الى ذبح هذه الحيوانات وقتل الحيوانات على الاطلاق كان ممنوعاً كما هو معروف عندهم لانهم كانوا يعتقدون ان في قتلها مانعاً لتحرير ارواحهم من السجن المادي الذي هو الجسم فان مزدك حرّم عليهم العداوة والبغض والنزاع ودعاهم الى المساواة وكان دائماً يقول ان اصل البغض والاختلاف بين الناس هو التفاوت في الدرجات الاجتماعية »[2] وقد عرف عن ماني انه كتب الحصر على الطبقة العالية من اشياعه وهي « طبقة المؤمنين » او « المختارين » وامرهم ان لا يدخروا من المؤونة الا ما يكفيهم يوماً واحداً ومن اللباس ما يكفيهم سنة وكذلك عرف عن مزدك و بابك واصحابهما انهم كانوا يميلون الى الزهد والتنسك .
بناء على ذلك نستطيع ان نقول ان هذه المبادىء وهذا النظام كانت متبعة ايضاً عندهم او على الاقل عند الطبقة الراقية المسؤولة الا انه لم يكن ليخفى على زعماء المذهبين المذكورين ان عامة الناس لا تقدر ان تكبح شهواتها وتتغلب على اميالها السافلة التي كانت ولا تزال تدفع الناس الى تملك الاراضي—وهي وقتئذ اعظم مصادر الثروة—والنساء او على الاقل امرأة واحدة محبوبة الا اذا ارضوا هذه الاميال واطلقوا لها الحرية التامة .

---

(١) Le régne etc. ص ١٠٣
(٢) Le régne etc. ص ١٠٣—١٠٤

على مثل هذه الاعتبارات ترتكز نظرية المزدكية وخلفائهم في الدعوة الشيوعية وعن هذه الافكار صدرت تعاليمهم الاساسية القائلة « بان الموجود الاعلى وهب الناس جميع وسائل الحياة بسخاء لكي يقتسموها بالقسط حتى لا يكون لاحد اكثر من غيره لان عدم المساواة هو نتيجة الاغتصاب وما الاغتصاب الا محاولة بعض الناس ارضاء شهواتهم على حساب غيرهم مع ان الطبيعة والعدل يقتضيان ان لا يكون لاحد اراضي او عقار او نساء اكثر مما لغيره وعلى ذلك يجب ، عند اختلال هذه القاعدة ، ان يؤخذ من الغني المغتصب ما يزيد عن حاجته و يعطى للمحتاجين ليعود الناس الى المساواة الاصلية وان يكون الملك والنساء شائعة كالماء والنار والمراعي .... هذا هو العمل الطيب الذي يرضي الله و يجازى المرء عليه اضعافاً ولكن هب انه لم تنزل في ذلك اوامر من الله افليس سنة التعاون بين الناس ومصالحهم العامة تكفي لان يسيروا في الطريق المذكور الذي يعود عليهم بالنفع وارضاء الله »

لا شك في ان من اراء مزدك وخليفته بابك في المرأة الايرانية وحالتها الاجتماعية على التعميم ما كان من شأنه ان يبعث في بعض الناس وعلى الاخص في الطبقات السفلى وطبقة المتعصبين بعض الشك في آداب شيوعيي قراطاغ ويحملهم على اتهامهم بالتهتك و « تحليل المحرمات » الا انا قد بينا ما لهذه الافتراءات من الصحة وانها تناقض مبادئهم الادبية الاساسية وشهادة النساء المسلمات فيهم و يسرنا الآن ان نقول ان بعض كتبة المسلمين والمسيحيين ، ممن لم يعم الغرض ابصارهم او ممن وفقوا الى الوقوف على الحقيقة بانفسهم اما لقرب عهدهم بالحركة البابكية او لانهم كانوا طلاب حقائق لا ترهات ونكات ترضي ذوق الطبقات المنحطة من معاصريهم ، ذكروا عن البابكية اشياء تؤيد رأينا

فيهم وتنفي اموراً كثيرة تنسب اليهم ظلماً وبهتاناً فمن هؤلاء الكتبة المطهر المقدسي صاحب كتاب « البدء والتاريخ » الذي يشهد انه رأى بعينه « بين الخرميين في ديارهم ماسبذان ومهرجان قذق ... من يقول باباحة النساء على الرضا منهن واباحة كل ما يلذ النفس و ينزع اليه الطبع ما لم يعد على احد بضرر »[1] وذكر فويق ذلك انه وجدهم « في غاية التحري للنظافة والطهارة والتقرب الى الناس بالملاطفة و بتقديم الصنيعة » وقال قبل ذلك — وفيه من الادلة على تساهلهم في المسائل الاعتقادية واتساع صدورهم في امور الدين ما لا نكاد نجده عند احد غيرهم من اصحاب الملل والنحل — ما حرفه « و يزعمون ان الرسل كلهم على اختلاف اديانهم وشرائعهم يحصلون على روح واحد وان الوحي لا ينقطع ابداً وكل ذي دين مصيب عندهم اذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب ولا يرون تهجينه والتخطي اليه بالمكروه ما لم يرد كيد ملتهم وخسف مذهبهم و يتجنبون الدماء جداً الا عند عقد راية الخلاف »[2]

اذن لم يكن بابك يدعو الى التهتك وتحليل المحرمات ولم يقصد بقوله « ان الناس شركاء في الاموال والنساء » اباحة الجماع بل اراد ان يقول ان للمرأة ما للرجل من الحقوق والواجبات العائلية فلها ان تختار من الرجال من احبت لا من احب ساداتها او اقاربها ولها ان تتصرف في ما تملك كما يوحيه اليها قلبها وعقلها ومصلحتها الشخصية وكل هذا اقرب الى الحقيقة مما يعزوه اليهم خصومهم في المبدأ . اما ما ذكره بعض المتأخرين من مؤرخي العرب والسريان من انهم

---

(١) المجلد الرابع ص ٢٤

(٢) المجلد الرابع ص ٢٤ وقال في اختلاف الناس في مذاهب الخرمية ما حرفه : « فكل يصف من مذاهبهم ما لا يحكيه الآخر مع انكار هذه الطائفة حكاية من ذكرنا وتركهم الاعتراف بها » ص ٣٩١

كانوا يتلصصون و يقتلون الناس من غير مذهبهم وانهم كانوا « يخرجون على الناس فلا يدعون رجلاً ولا امرأة ولا صبياً ولا طفلاً من قريب و بعيد الا قطعوه وقتلوه ... و يقتلون من اصابوا من الناس من اي صنف كان صغيراً كان او كبيراً مسلماً او ذمياً حتى مرن الناس على القتل وانضوى اليه (الى بابك) القطاع والخراب والدعار واصحاب الفتن وارباب النحل الزائغة » [1] فهذا اما مختلق عنهم واما راجع الى ايام الحرب واما انه كان من عمل اولئك « القطاع والخراب والدعار واصحاب الفتن » الذين انضموا لمآرب شتى الى البابكيين ولم يكونوا على مبادئهم الادبية والاجتماعية ابداً ولو لا ذلك لعجزنا عن التوفيق بين هذه الاقوال وما ذكره عنهم المطهر المقدسي وما نعلمه عن مبادئ البابكية والمزدكية مما اتينا على بعضه فوق هذه السطور .

هذه بضع شهادات في حق اصحاب بابك واتباعه يستنتج منها ان برنامجها لم يكن يحتوي الا على مبادىء اجتماعية بسيطة مفهومة ومطالب عادلة ترمي الى ازالة الشروط المبني عليها انقسام الناس الى طبقات متعادية متطاحنة وتدعو الى المساواة في الحقوق والواجبات ولا سيما حقوق التملك بين جميع الناس على اختلاف اديانهم وتعمل على قتل عوامل العداوة والبغض وتقوية عرى المحبة والاخاء الحقيقي بينهم واما ما زاد على هذا فلم يكن الا من قبيل الوسائل التي كانوا يستعينون بها على الوصول الى غايتهم الكبرى وهي قلب الهيئة الاجتماعية في ذلك الوقت و بناؤها على اسس جديدة .

اشرنا في ما سبق الى القوى المادية والمعنوية التي اعدها بابك في جبال قراطاع قبل ان يعلن الحرب على خليفة بغداد او بالاحرى على النظام الاجتماعي

---

(١) البدء والتاريخ ج ٦ ص ١١٦ — ١١٧

العباسي ثم ذكرنا شيئاً من العوامل التي ساعدت البابكيين على الوقوف امام عدوهم القوي اكثر من عشرين سنة، ولقد كنا نود — لو سمحت لنا مصادرنا الكتابية — ان نبين للقارئ كم قضى زعيم (andarzgar) الشيوعية في اذربيجان من الزمن في اعداد لوازم الحرب والاستعداد لعمله الكبير، وما هي لوازم الحرب التي اعدها ، والاساليب التي اتبعها في الهجوم والدفاع ، الى غير ذلك من الاسباب الخارجية التي رافقت هذه الحرب الطويلة ، الا ان كل ما نعلمه من شؤون هذه الحرب يكاد ينحصر في امر واحد وهو ان اصحاب بابك كانوا يقاتلون قتال الابطال ، قتال من كان يدافع عن مبدإ واعتقاد راسخ في النفوس وآمال حلوة ، لا قتال المأجورين المرغمين ، وانه لم يسمع عن احدهم خيانة او ضعف كل هذه المدة الطويلة بخلاف ما نعلمه عن جيش وقواد عدوهم .

ابتدأت حركة البابكيين في صيف سنة ٨١٦ او ٨١٧ على حدود جمهورية اذربيجان الحاضرة التابعة لمجموع الجمهوريات الروسية او بالاحرى الداخلة فيه ، او على حدود اذربيجان واران وبيلقان القديمة حيث كانت مدينة بذ او بذين مركز اركانهم الحربي[1] الواقعة في القرب من نهر اراكس او الرس كما كانت تسميه العرب، ثم اخذت هذه الحركة تقوي وتمتد بسرعة نادرة حتى عمت ، كما يستفاد من كلام المسعودي ، «نواحي اصبهان والبرج وكرج ابي دلف والززين زز معقل وزز دلف ورستاق الدرسنجان وقسم وكوذشت من اعمال الصيرة من مهرجان قذق وبلاد السيروان واربوجان من بلاد ماسبذان وهمذان وماه الكوفة وماه البصرة واذربيجان وارمينية وقم وقاشان

---

(١) قال ياقوت الحموي «وفيه (اي في بذين) تعقد اعلام المحمرة المعروفين بالخرمية» ج ٢ ص ٥٢٨

والري وخراسان وسائر ارض الاعاجم »[1] فكان عدد من انضم تحت الويتهم الحمر نحو ثلثمائة الف مقاتل من اذربيجان والديلم فقط [2] فلما شعروا بقوتهم هبطوا من الجبال واخذوا يزحفون الى البلاد المجاورة و يضمون اليهم جميع المستائين وحكومة بغداد لاهية عنهم او غير قادرة على ايقافهم عند حدود معلومة، لانها كانت مشغولة وقتئذ باخماد الثورات التي ظهرت في مصر والعراق وبلاد العرب ورد هجمات الروم من الشمال كما ذكرنا سابقاً ، ولهذا لم تلتفت اليهم الا في سنة ٢٠٤ (= ٨١٩) اي بعد ثلث سنوات من ابتداء الحركة فأخذت تبعث عليهم الجند تلو الجند وهم يمزقونها و يأسرون بعضها و يقتلون قوادها الى ان دخلت سنة ٣١٢ (= ٨٢٠)

ذكر الطبري في كلامه عن حوادث ٨٢٠ ما حرفه : « نكب بابك بعيسى بن محمد »[3] وذكر بين حوادث ٢٠٩ « ولى المأمون صدقة بن علي المعزوف بزرديق ارمينية واذربيجان ومحاربة بابك فاسره بابك فولى ابراهيم بن الليث بن الفضل التجيبي اذربيجان » وقال عن حوادث سنتي ٢١٢و٢١٤ « وجه المأمون محمد بن حميد الطوسي الى بابك لمحاربته عن طريق الموصل وتقويته اياه ... وقتل محمد بن حميد الطوسي قتله بابك بهشتاد سر يوم السبت... وفض عسكره وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه »فكان لهذا الانكسار وقع شديد على المأمون وحكومته وبعض قواد الجيش الخليفي الذين ابتداوا يترددون من ذلك اليوم في اخلاصهم لخليفتهم و يفكرون في الانضمام الى بابك ، نذكر منهم على سبيل المثل علي بن هشم الذي اطّلع على خيانته عميرة بن عتبة فقبض عليه

(١) كتاب التنبيه والاشراف ص ٤٥٣
(٢) كتاب الفرق بين الفرق ص ٢٦٨
(٣) انظر تاريخه ج ١٠ ص ٢٥٥ و٢٦٩

وسله الى الخليفة ولو لا ذلك للحق ببابك وهو يومئذ صاحب الامر والنهي في اكثر الاقاليم الفارسية حتى صار الناس يخشون بأسه و يطلبون ودّه حتى في العراق بل في بغداد نفسهافصار يخشى منه على الدولة والدين . قال المسعودي يصف حالة البلاد في تلك الايام العصيبة : « ثم حمل الرأس (رأس بابك) الي مدينة السلام وحمل الى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها لما كان في نفوس الناس من استفحال امره وعظم شأنه وكثرة جنوده واشرافه على ازالة ملك وقلب ملة وتبديلها » (ج ٢ ص ٣٥٢ طبع ١٣٤٦)

فكان من نتائج هذه الانتصارات الباهرة التي نالها بابك في السنين الماضية ان دخل اليأس قلوب العساكر الخليفية وقوادها فلم تعد تثق بنفسها ولم يعد الخليفة يثق بها، فلم يبق لديه الا احد امرين: اما ان يترك البلاد لعدوه، واما ان يسرح جنوده القديمة التي لم تعد تصلح للقتال ويحشد جيشاً جديداً تحت قيادة اشهر قواده واعظمهم خبرة في شؤون الحروب الجبلية ليبث فيه روحاً جديدة و يدر به على قتال اعداء الدولة ونظامها الاجتماعي في جبالهم الوعرة، وهذا ما استقر عليه رأيه واخذ يعمل على تحقيقه ولو لم يتوفه الله بغتةً لاتمه بنفسه .

توفي المأمون وفي قلبه حسرة مما اصابه من الفشل في حروبه مع بابك ومن خوفه علي زوال دولة كان من اعظم خلفائها ، فلما شعر بدنو اجله دعا اليه اخاه المعتصم وألح عليه ان يداوم علي حرب البابكية « بحزامة وصرامة وجلد . ثم اشار عليه ان يمد عامل اذربيجان « بالاموال والسلاح والجنود من[1]

(١) الطبري ج ١٠ ص ٢٩٤

الفرسان والرجالة » وان يتجرد له بمن معه من الانصار والاولياء ان طالت المدة[1].

فلما تولى المعتصم زمام الملك رأى من الحكمة ان يعقد هدنة مع امبراطور الروم ثم استدعى من افريقيا حيدر الافشين بطل برقة وسلمه قيادة الجيش وتدريبه على الطرق الجديدة التي اقتضتها الحروب الجبلية ، وامره ان يستعد للزحف على العدو ، فأخذ حيدر يهيئ ما امره به سيده وبينما هو في ذلك اذ جاءته الاخبار ان اسحاق بن ابراهيم بن مصعب احد قواد الخليفة المخلصين والمعروفين بالعزم واصابة الرأي كسر جيش بابك[2] واضطر فلوله الى الهرب الى بلاد الروم حيث تنصروا ودخلوا في خدمة امبراطور القسطنطينية ، الا ان هذه الضربة لم تكن بالضربة القاضية على بابك وجيشه لان القسم الاكبر من عساكره كان مقيماً في اذربيجان او على الاصح في اران حيث كان مركز الجيش العام واركان الحرب ، وعليه كان في وسع بابك ان يلم شعثه ويجمع قواه قبل ان يفاجئه الافشين بجيوشه الجديدة ، الا ان القائد التركي لم يمهله ذلك بل زحف عليه في ٢٨ جمادي الاولى (= غرة تموز سنة ٨٣٥) على رأس جيش كبير مؤلف من اتراك وبرابرة ومتطوعة البصرة والعراق واخذ يتقرب من عاصمة بابك التي اعتصم بها هو واكثر جيشه ويسيّر عليه كل يوم من مدينة برزند — وهي المدينة التي بناها في الجبال بالقرب من عاصمة بابك — الجند تلو الجند من خيالة ورجالة وكوهبانية وكلفرية ونفاطة

مضى على وصول حيدر الافشين الى بلاد بابك اكثر من سنتين وهو

(١) الطبري ج ١٠ ص ٢٩٤ — ٢٩٥

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٠٥

يراقب فيها خصمه و يتتبع اثاره و يتفهم طرقه الحربية حتى ادرك سر نجاحه ووقف على مواضع القوة والضعف منه فأخذ يواقعه على امل ان يظفر به و يقضي عليه وقد كاد يتم له ذلك في موقعة ارشاق[1] من عمل اران سنة ٨٣٦ الا ان بابك افلت منه وانسحب الى صحراء موغان ومنها الى هشتادسر حيث انقض في العام الآتي على مقدمة جيش الافشين التي كان يرأسها بُغا الكبير ، احد القواد المشهورين ومزقها شر ممزق ، فلما بلغ الخبر افشين زحف بنفسه على بابك واخذ يتعقبه حتى التقى به فكانت بينهما موقعة انكسر فيها بابك ثم لحق حيدر باحد قواده المدعو طراخان فقتله وكسر جيشه وكذلك فعل سنة ٨٣٧ باذينه قائد بابك الثاني فكانت هذه الضربة الاخيرة اعظم الضربات على بابك واصحابه لانه فقد في الموقعتين الاخيرتين ميمنة جيشه وميسرته فلم يبق عنده من العساكر الا ما كان تحت قيادته فاضطر ان ينسحب من ساحة الحرب ويلجأ الى قلعته في بذين حيث اقام عدة اشهر يدافع عن نفسه واصحابه دفاع الابطال الى ان نفذت مؤونته وخارت قواه فاضطر ان يترك عاصمته ليلاً ويحاول ان يدخل مختفياً بلاد الروم ليطلب مساعدة صديقه الامبراطور ثيوفيل ، فخانته الاقدار بل خانه احد بطارقة الارمن سنباط بن منهل صاحب شكي الذي استأمنه بابك فقبض عليه وعلى اخيه عبد الله ومن كان معهما من الاهل والاصدقاء وسلمهم جميعاً ، بعد ان امنهم ، الى رسول الخليفة فكان من امرهم والتمثيل بهم ما هو معروف ٠

ذكر بعض المؤرخين[2] انه لما انتشر خبر سقوط عاصمة بابك في ايدي

(١) وفيها قال ابو تمام :

يا يوم ارشق كنت رشق منية للخرمية صائب الاجال

(٢) انظر كتاب البدء والتاريخ ٦ : ١١٨ ومروج الذهب للمسعودي وغيرها

المسلمين ووقوع بابك في الاسر [1] « ضج الناس بالتكبير وعمهم الفرح واظهروا السرور » وصارت سكان بغداد وسامرا تتصالح في الشوارع « فكان ذلك من اعظم الفتوح في الاسلام ويوم قبض عليه كان عيداً للمسلمين » فرفع المعتصم قدر الافشين وتوجه والبسه وشاحين منظومين بالدرّ والجوهر وسوّره سوارين ووصله بعشرين الف درهم وامر الشعراء بمدحه وجعل صلتهم عنده » ولا غرابة في ذلك فأن بابك اراد كما يقول المسعودي « ان يزيل ملكاً ويقلب امة ويبدلها »

ذكر المؤرخون انه لما وصل بابك الى بغداد امر المعتصم فانزلوه في قصر الافشين المعروف بالمطيرة وهناك زاره الخليفة متنكراً (انظر تاريخ الطبري ١٠ : ٣٣٢) وعرض عليه بعض اسئلة لا اظنها الا من مختلقات المسعودي الذي هو في تاريخه اقرب الى جامع نكات وحكايات منه الى مؤرخ صادق لا تهمه الا الحقائق الثابتة ، وكأني بالمعتصم اراد في زيارته لبابك ليلاً ان يرى بعينيه ذلك الرجل الذي كاد يقضي على دولته ويقيم على انقاضها دولة جديدة اساسها العدل والاخاء والمساواة

زار المعتصم عدوه الاكبر ثم عاد الى قصره ، حيث كان ينتظره وزراؤه وقائد جيشه العام ، ليفكر معهم في شر قتلة يقتلون بها اسيرهم الضعيف الذي كان يطلق اسراهم بالالوف ويعطف على نسائهم واولادهم فلما جاء الصباح اخذت الناس تهرول الى رأس الجسر ليروا « عدو الدولة والدين » مصلوباً هناك حتى اذا جن الليل انزلوه عن الصليب ثم قطعوه ارباً ارباً وارسلوا رأسه الى سائر البلدان ثم جاؤوا باخيه وبعض اصحابه المقربين فقتلوهم صبراً بعد ان

(١) كان يوم الجمعة لاربع عشرة خلت من رمضان سنة ٢٢٣ (٨٣٨)

قتلوا عشرات الالوف في بدّين بصورة تقشعر منها الابدان، ثم لم يمض على ذلك زمن طويل حتى قبضوا على حيدر الافشين واودعوه السجن حيث مات مسموماً لخيانة ظهرت منه كما ذكرنا سابقاً او لاسباب اخرى لم يذكرها المؤرخون.

مات بابك فماتت معه حركته الاشتراكية في اذربيجان وما يجاورها من البلاد الا ان الافكار التي حاول ان ينشرها بين قومه ويحققها لم تمت بل بقيت تنتشر في الخفاء، كما كانت تنتشر قبل ذلك، الى اواخر الجيل الحادي عشر فقد ذكر المقدسي — وهو من كتبة الجيل العاشر — انه زارهم في بلادهم ورأى بعينه « ان ليس في بلادهم مساجد وانهم لا يقيمون احكام الاسلام » وقال ابو منصور البغدادي في الجيل الحادي عشر ان البابكية « قد بنوا في جبلهم مساجد للمسلمين يؤذن فيها لهم وهم يعلمون اولادهم القرآن لكنهم[1] لا يصلون في السر ولا يصومون في شهر رمضان ولا يرون جهاد الكفرة »[2]

بقي علينا الآن ان نتساءل عن الاسباب التي ادت الى فشل هذه الحركة الاشتراكية وقد كان يظن انها سوف تتغلب على الصعوبات التي اعترضتها في طريقها.

ان اسباب الفشل كثيرة منها خارجية ومنها داخلية ترجع الى البابكيين انفسهم واهمها في نظري ان البابكيين حصروا دعوتهم في الامة الايرانية ولم يشركوا فيها الامة العربية ولا التركية وهما يومئذ اعظم الامم الاسلامية ثم هناك سبب آخر لا يقل خطارة عن الاول وهو ان كثيرين ممن التف حول

---

(١) انظر كتاب الاستاذ بارتولد عضو اكادمية بطرسبرج العلمية « لمحة تاريخية وجغرافية عن ايران » ص ١٤٩

(٢) الفرق ... ص ٢٥٢

راية بابك وحارب في السنوات الاولى معه لم يكن يهمهم من هذه الحركة الفكرية الا النكاية بالسلطة الحاكمة والانتفاع منها فلم يكونوا يفهمون الغاية الكبرى من هذه الحركة بل كان بينهم من لبى دعوة بابك طمعاً بالحصول على منافع مادية لم يكونوا لينالوها الا من وراء الثورات والحروب الاهلية واكثر هذا الفريق كان من الكرد ·

هذه وغيرها من الاسباب ساعدت على قتل الحركة البابكية وفشلها الا ان البذور التي القاها بابك واصحابه وقعت في ارض طيبة خصبة انبتت نباتاً حسناً في وقته كما سنرى في الفصول الآتية ·

الفصل الرابع

الاسماعيلية

قلنا ان البابكيين غلبوا على امرهم وماتوا كحزب اشتراكي ، الا انهم عاشوا الى ايام آل سلجوق ومن ورثهم من سلاطين خوارزم كنحلة دينية لا اهمية لها كبرى ، مما جعل حكومة بغداد لا تهتم لهم ولا تخاف منهم فتركتهم وشأنهم او وكلت بهم رؤساء الدين واصحاب المقالات الدينية يطعنون في مذهبهم ونظامهم و يفترون عليهم الاكاذيب و يحرضون عليهم احياناً اهل الجهل والتعصب ، فاضطروا ان يتستروا ويخفوا دعوتهم وان ينشروها بطرق خفية ، شأن كل دين او فكر اجتماعي ممنوع مضطهد ، فاصبحوا لذلك اشد خطراً على الحكومة والاسلام مما كانوا عليه قبلاً يوم كانوا يدعون الناس الى مبادئهم علناً، ولهذا لم تذهب اتعابهم وحركتهم سدى بل قد استفاد منها ومن اغلاطهم اناس كثيرون نخص منهم بالذكر الاسماعيلية او الباطنية وهم اقرب الناس الى البابكية في العقيدة والغاية واشدهم تعلقاً بالمبادئ الاشتراكية كما يتضح ذلك لكل مفكر عاقل مما سنذكره فيما بعد عن الحركة الاسماعيلية وتعاليمها ومما كتبه كتبة الشرق والغرب عن الباطنية والاسماعيلية وما بينهما و بين شيوعيي قراطاغ من القرابة المعنوية .

رأينا ان من اسباب الفشل الذي اصاب بابك واصحابه هو عدم استعداد اكثر سكان دولة بني العباس لقبول النظام الاشتراكي الذي اراد بابك ان يدخله في ذلك العصر وان البابكية اقتصروا في نشر دعوتهم الاشتراكية على

فئة قليلة من الناس كادت تكون محصورة في قطعة من جبال اران واذربيجان اي بين القبائل الايرانية فقط ، اما العرب — وهم اصحاب السلطة واكثرية البلاد — فلم يفطن بابك او لم يجرأ على استمالتهم الى مذهبه ولا اعتني ببث افكاره بينهم ومثل ذلك يقال عن الترك والبربر وهم وقتئذ «مادة الاسلام وجيشه المنظم» كما دعاهم الجاحظ[1] بل ان قسماً كبيراً من الامة الفارسية لم يدخل في دين بابك ولا هو اهتم لدعوته او هبّ لمساعدته بالقوة . اضف الى ذلك ان بابك وجماعته لم يفكروا ابداً في هدم الدين الاسلامي وآدابه التي كانت تستند عليها الدولة العباسية وكانت مصدر قوتها الحقيقي فكأن بابك كان يعتقد انه يكفي لنجاح عمله الموجه الى هدم النظام المبني على توحيد مصالح اصحاب الاراضي والثروة واقامة نظام جديد محله ان يبث افكاره بين طبقة من الناس او امة من الامم فقط وقد غاب عنه انه مهما كان لافكاره الجذابة من حسن التأثير على السامعين فلا يكفي هذا وحده للوصول الى الغاية المطلوبة ، وانه لا بد لذلك من تعميم الدعوة واتخاذ وسائل اقوى من التي اتخذها هو واضمن للنجاح وهذا ما انتبه اليه لاول مرة في تاريخ الاسلام جماعة عبد الله بن ميمون القداح او الاسماعيليون على الاطلاق فانهم قد رأوا بعد درس شؤون الدولة العباسية درساً وافياً — انه لا بد للقضاء عليها وعلى نظامها لاجتماعي من بث الدعوة الاشتراكية الجديدة بين جميع الامم والطبقات والاديان المؤلفة منها دولة المنصور وقتئذ كما لا بد من جمع كلمة جميع المستائين من حكم خلفاء بغداد واثارة عواطف البغض فيهم عليهم ثم دك تلك الاسس التي كانت قائمة عليها الدولة المذكورة واهمها الدين والادب والعاطفة القومية او ما كان يقوم وقتئذ مقامها

---

(١) انظر رسالته في محاسن الاتراك (طبع Von Floten في ليدن)

ولكن كيف السبيل الى ذلك ودونه من الصعوبات ما لا يخفى على احد ؟ وهل من سبيل الى توفيق ما لا يوفق من مصالح طبقات الناس المتباينة او هل من المستطاع ان تجتمع تحت راية واحدة احزاب واديان واقوام متباينة متطاحنة وتوفق في بروغرام واحد بين نزعات واغراض سياسية واجتماعية متضادة؟ تلك مسألة المسائل واعظم مشكلة عرفها التاريخ ومع ذلك فانالاسماعيليين قد عالجوها و بعد محاولات عديدة وفقوا الى حلها حلاً لم يسبقهم اليه غيرهم لا في الشرق ولا في الغرب، وهذا تاريخ الانسانية كله يشهد شهادة صادقة على انه لم يقم حتى اليوم وارجح انه لن يقوم في المستقبل حزب او دين او مذهب او جمعية او شركة تضم تحت لوائها « الغالبين والمغلوبين واصحاب الافكار الدينية الحرة الذين ينظرون الى الدين نظرهم الى لجام ضروري للطبقات السفلى من الناس فقط ، والمتعصبين للدين من جميع الطوائف، و تتخذ المؤمنينواسطة لنقل السلطةالى الكافرين، وتستعمل الغالبين آلة لهدم ما بنوه من الملكوتسليمه الى غيرهم ، ثم هي تؤلف حزباً كبيراً متلاحماً مطيعاً تستند عليه لوضع تاج الملك عند سنوح الفرصة ، ان لم يكن على رأس مؤسس ذلك المذهب فعلى رأس احد خلفائه ؟

هذه كانت غاية عبد الله بن ميمون الاساسية وهذه كانت افكاره وهي كما ترى ، افكار غريبة مدهشة جريئة قد ساعده على تحقيقها دهاؤه النادر ولباقته الغريبة ومعرفته العميقة لقلوب الناس»[1]

لو فتشت صفوف الاسماعيليين لوجدت حقيقة بينها ممثلي جميع

---

(١) انظر B. Dozy, Histoire des musulmans d' Espagne, III, 8

الامم الخاضعة يومئذ لخلفاء بغداد من عرب وعجم وكرد واتراك الخ وجميع الاحزاب السياسية والاجتماعية من اصحاب اليمين الى اصحاب اليسار ولرأيت بينهم الفوضويين والشيوعيين على اختلاف نحلهم ومبادئهم وممثلي جميع الاديان والمذاهب من اهل السنة والشيعيين المعتدلين الى الملحدين والدهريين « الذين لا يؤمنون بشيء » .

نستنتج مما ذكر ان كلمة « اسماعيليون » التي كانت في بادئ الامر تدل على احدى الفرق الشيعية المعتدلة صارت مع الزمن تدل على اصحاب مذاهب دينية مختلفة واحزاب سياسية واجتماعية متعددة واراء فلسفية وعلمية متنوعة، الا ان هذا الاختلاف العظيم في المبادىء والاراء وهذا التباين الظاهر في المصالح بين الاحزاب والنحل الداخلة في مذهب الاسماعيليين لم تكن لتمنع اصحاب هذا المذهب من السعي وراء تحقيق غاية واحدة والوصول الى نتائج لم يصل اليها احد قبلهم وهذا من غرائب الامور التي لا بد لفهمها من الوقوف على شيء من تاريخ الاسماعيلية ونظامهم الداخلي ومبادئهم الاساسية

الاسماعيلية جمعية سرية محضة لم يكن واقفاً على اغراضها وطرقها الا زعماؤها الاقلون وقادة افكارها المقربون الى زعيم هذه الجمعية وهم الذين وقفوا على اسرارها بعد ان قطعوا مراتب او مراحل التكريس المطلوبة منهم واقسموا القسم الغليظ[1] ان لا يبوحوا لاحد باسرار جمعيتهم، اما سائر اعضائها وهم الاكثرية فلم يكونوا يعرفون من امر هذه الجمعية الا الشيء القليل الذي كانت تطلعهم عليه دعاة الجمعية المتوقف عليهم اختيار الاعضاء وابتلاؤهم واعدادهم

(١) « والباطنية لا يظهرون دينهم الا لمن كان منهم بعد احلافهم اياه على ان لا يذكر اسرارهم لغيره » (أنظر كتاب الفرق بين الفرق ص ٢٧٨)

لتسنم الرتب السبع او التسع[1] التي كانت يومئذ عنـد الاسماعيلية . والمعلوم عن هؤلاء الاعضاء المبتدئين انه لم يكن يؤذن لهم بالانخراط في سلك الجمعية الا بعد ان يبلوهم الدعاة و يثبت لديهم انهم ذوو ثقة لا خوف منهم ولا خطر وانهم اصبحوا قادرين على بث الدعوة الاسماعيلية والدفاع عن الجمعية بكل ما لديهم من الوسائل ومهما كلفهم ذلك من الاتعاب والاخطار، ولهذا لم يكن الدعاة يقبلون في الجمعية المذكورة الا اصحاب الارادات القوية والعقول السليمة ومن كان يحسن القراءة والكتابة وكانوا اذا قبلوا احداً في جمعيتهم علموه ودربوه ثم اطلعوه على بعض اسرار مذهبهم حتى اذا بلغ المدعو درجة معلومة سمحوا له ان يقسم قسمهم المعروف وهذه صورته كما حفظت في كتاب ابي منصور البغدادي . قال الكاتب المذكور : « واما ايمانهم فان داعيهم يقول: جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسله وما اخذ الله تعالى من النبيين من عهد وميثاق ان تستر ما تسمعه مني وما تعلمه من امري ومن امر الامام الذي هو صاحب زمانك وامر اشياعه واتباعه في هذا البلد وفي سائر البلدان وامر المطيعين له من الذكور والاناث فلا تظهر من ذلك قليلاً ولا كثيراً ولا تظهر شيئاً يدل عليه من كتابة او اشارة الا من اذن لك فيه الامام صاحب الزمان او اذن لك في اظهاره المأذون له في دعوته فتعمل في ذلك

---

(١) كان عدد الرتب في اول الامر سبعة ثم اصبح تسعة وكان لكل درجة اسم يلائم العلم الذي كان يتلقاه المدعو في تلك الدرجة وهذه اسماء الدرجات ، التفرس . التأنيس . التشكيك . التعليق . الربط . التدليس . التأسيس (الفرق ٢٨٢) وهذه الاسماء مأخوذة على ما يظهر لي من كتاب للاسماعيلية وليست مختلقة وتأدية القسم امام الداعي حقيقة لا ريب فيها اذ ورد ذكرها في غير كتاب ابي منصور البغدادي انظر مثلاً تأليف M. de Goeje المستشرق الهولاندي الشهير تحت عنوان،
Mémoire sur les Carmates de Bahrein, P. 172

حينئذ بمقدار ما يؤذن لك فيه . وقد جعلت على نفسك الوفاء بذلك والزمت نفسك في حالتي الرضي والغضب والرغبة والرهبة » فيجيب العضو المحلف « نعم » ثم يقول له الداعي : « وجعلت على نفسك ان تمنعني وجميع من اسميه لك مما تمنع منه نفسك بعهد الله تعالى عليك وميثاقه وذمته وذمة رسله وتنصحهم نصحاً ظاهراً وباطناً والا تخون الامام واولياءه واهل دعوته في انفسهم ولا في اموالهم وانك لا تتأول في هذه الايمان تأويلاً ولا تعتقد ما يحلها وانك ان فعلت شيئاً من ذلك فانت بريء من الله ورسله وملائكته ومن جميع ما انزل الله تعالى من كتبه وانك ان خالفت في شيء مما ذكرناه لك فلله عليك ان تحج الى بيته مئة حجة ماشياً نذراً واجباً وكل ما تملكه في الوقت الذي انت فيه صدقة على الفقراء والمساكين وكل مملوك يكون في ملكك يوم تخالف فيه او بعده يكون حراً وكل امرأة لك الآن او يوم مخالفتك او تتزوجها بعد ذلك تكون طالقاً منك ثلاث طلقات والله تعالى الشاهد على نيتك وعقد ضميرك فيما حلفت به » فيقول الحالف « نعم » ولا يقول نعم الا اذا صح اعتقاده في دينه الجديد وعقد النية على ان يفي به مهما كلفه ذلك ولا عبرة لما يتهمهم به ابو منصور من « انه ليس لايمانهم مقدار ولا حرمة وانهم لا يرون فيها ولا في حلها اثماً ولا كفارة ولا عاراً ولا عقاباً في الآخرة (ص ٢٩٠) اذ المعروف عنهم عكس ما يعزوه اليهم خصومهم ... لزعمائهم وتعلقهم بتعاليم ومبادىء الحزب التي اخذوها عن الدعاة .

ذكر ابن الاثير انه « جاء انسان الى علي بن عيسى (وزير المقتدر) واخبره ان في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب ابا طاهر (زعيم القرامطة في ذلك الوقت) بالاخبار فاحضره وسأله

فاعترف وقال ما صحبت ابا ظاهر الا لما صح عندي انه على الحق وانت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم »[1]

لا شك في ان الايمان المذكورة وما كان يتخذه الدعاة من وسائل التأثير على ارادة الاعضاء البسطاء وسير حياتهم اليومية كان من شأنه ان يربط هؤلاء الاعضاء رباطاً متيناً برئيسهم الاعظم وبعضهم ببعض ويجعلهم في ايدي الدعاة الخبيرين آلة صماء بل اجساداً لا حراك لها perinde ac cadaver يتصرفون فيها كيف شاؤوا وشاءت اهواؤهم وغاياتهم ، ومن منا لم يسمع بجماعة الفدائيين او الحشاشين – وكلهم من الاسماعيلية – الذين ذاع صيتهم في ايام الصليبيين والسلجوقيين واشتهر عنهم انهم كانوا يقدمون على اعظم الامور خطراً ويضحون انفسهم حباً بالمصلحة العامة واطاعة رؤسائهم الروحيين وما ذلك الا لانهم كانوا على اعتقاد تام باخلاص زعمائهم وصدق ايمانهم وانهم هم وحدهم على الصراط المستقيم فكان هذا الايمان الراسخ في قلوبهم يأتي بالمعجزات وينشر الرعب في قلوب اعدائهم، ومعلوم انهم لم يكونوا ليبلغوا هذه الدرجة من الايمان وهذه الطاعة العمياء لزعمائهم الا بعد رياضة عقلية طويلة وبعد ان يتدرجوا من رتبة الى رتبة اعلى منها كما هي الحال اليوم في جمعيات اليسوعيين والماسونيين[2] وغيرهم من الجمعيات السرية التي نرجح انها ظهرت تحت تأثير نظام الاسماعيلية كما سنرى في الفصل الاخير من هذ الكتاب ·

ان المطلع على اساليب الاسماعيلية وطرقهم البسيخولوجية الدقيقة التي

---

(١) ج ٨ ص ١٢٧ (من طبعة ليدن سنة ١٨٦٢)

(٢) من جملة الادلة على ما بين الاسماعيلية والماسونية من القرابة انه كان الاسماعيلية اوجات او محاول (ج محول) تشبه محافل الماسونية (انظر خطط المقريزي Enycl. musulmane. livr, 32, P. 812 ,

كانوا يستعملونها اما لاستمالة الناس الى مذهبهم واما للتسلط على ارادتهم وابقائهم تحت طاعتهم التامة ليعجب جداً من مهارة هؤلاء الناس ومعرفتهم الكاملة للنفس الانسانية، ولو لا خوفي من الملل لذكرت شيئاً كثيراً من تلك الاساليب التي نحسبها صحيحة ولو لم يرد ذكرها الا في كتب اعداء الاسماعيلية كابي منصور البغدادي والغزالي وغيرهما، وانما يكفي لغرضنا ان نقول ان الغاية القصوى من هذه الاساليب والطرق الجهنمية ان يثير الداعي الشك في نفس المدعو وفي عقائده الاصلية ومبادئه السياسية والادبية والاجتماعية ويحمله على الدخول في سلك الجمعية السرية صاحبة العلم الصحيح وكنز المعارف الحقيقية على زعمهم. والذي نعرفه عن اعمال هؤلاء الدعاة ان طرقهم كانت تؤدي الى الغرض المطلوب الا في ما ندر من الاحايين وان «بذورهم» كانت—كما كانوا هم يعبرون—تقع تقريباً دائماً «في اراض طيبة»[1] وانه لم يكن ليضرهم ان وقعت في «ارض سبخة» لانهم كانوا دائماً على حذر مما يقولون و يفعلون وممن كانوا يخاطبون حتى اذا رأوا منهم اعراضاً عن كلامهم او تفرسوا فيهم الخيانة وعدم الاخلاص للدعوة كانوا يحجمون عن الكلام او يغيرون موضوعه و يدخلون في موضوع جديد لا علاقة له بالدعوى ولا خطر عليهم منه . وهذا لم يكن بالامر الصعب على الداعي الخبير لانه لم يكن بعد ادلى الى مخاطبه بامور مهمة ولا كشف له عن سر من اسرار جمعيته يكون من ورائه ضرر عليها وذلك لان الدعاة لم يكونوا يطرقون في احاديثهم الاولى مع المبتدئين الا المواضيع العامة التي كان يقصد بها التعرف بنفسية وعقلية المقبلين

---

(١) «وقالوا ايضاً لدعاتهم لا تطرحوا بذركم في ارض سبخة وارادوا بذلك منع دعاتهم عن اظهار بدعتهم عند من لا يؤثر فيهم بدعتهم كما لا يؤثر البذر في الارض السبخة ايضاً» (انظر الفرق ... ص٢٨٣)

على الدعوة وإثارة الرغبة فيهم الى الدخول في دين جديد حتى اذا دخلوه واقاموا فيه سنين اطلعوهم بالتدريج على تعاليم جمعيتهم وغاياتها الاجتماعية والادبية وهكذا الى ان يبلغ المدعو الرتبة السابعة — وقليل من كان يبلغها — و يقف بنفسه على غاية الجمعية القصوى وطرق الوصول اليها . اما الدعاة انفسهم فلم يكونوا يبلغون الا الدرجة الخامسة وهي الدرجة التي كان يقف الداعي فيها على بعض اسرار الجمعية بعد ان يكون حلف الايمان المذكورة في الرتبة الرابعة ومن لم يكن يبلغ هذه الدرجة كان يبقى عضواً بسيطاً مطيعاً مربوطاً بارادة غيره و بالاخص بارادة امام الزمان الذي هو اعرف الناس بغايات الجمعية واسرارها واقدرهم على استخدام هؤلاء البسطاء .

يستفاد من اقوال بعض الكتبة المتقدمين ان اعضاء الجمعية الاسماعيلية الذين بلغوا الدرجة الرابعة فقط ولم يقسموا بعد الايمان المطلوبة منهم لم يكونوا يعرفون من بروغرام الجمعية الا مبادئها الدينية والادبية ، اما تعاليمها السياسية والاجتماعية فلم يكن يكشف لهم عنها الا بعد الدرجة الرابعة وتأدية القسم المعلوم، ولا شك عندي في ان هذا وغيره من وسائل التستر جعل الهيئة الاجتماعية الاسلامية في ذلك الوقت تظن في الاسماعيلية الظنون و تنسب اليهم ما لا يتفق الا في النادر مع الحقيقة . واغرب من ذلك ان اكثر الترهات عن الاسماعيلية والتباين في الحكم عن تعاليمهم وردت ليس فقط في كتب المتأخرين بل في كتب معاصريهم من مسلمين ومسيحيين فمنهم من زج الاسماعيلية بين الماديين ، ومنهم من حسبهم زنادقة يقولون بازلية العالم ويكفرون بالشرائع والانبياء ، ومنهم من كان يحشرهم بين اصحاب زرادشت والمجوس الذين كانوا لا يزالون يحلمون باحياء دين الفرس القديم ومنهم اخيراً من كان ينسبهم الى السابئيين او اصحاب

الفلسفة اليونانية القديمة على اختلاف نحلها وطرقها فكانوا — استناداً على ذلك — يعزون اليهم من الاقوال والافعال ما هم في الحقيقة براء منه ، خذ مثالاً على ذلك رسالة تعزى كذباً [1] الى بعض الاسماعيلية تجد فيها من التهم القبيحة والاقوال الفظيعة الموجهة الى الاسماعيلية ما لو صح جزء منها لكانت الاسماعيلية من احط الناس ادباً واخس من عرفهم التاريخ فقد جاء عنهم في تلك الرسالة انهم « ملحدون دهريون اباحيون يستحلون المحرمات و يرتكبون اكبر الجرائم » و يسوغون استعمال جميع الوسائل ان هي ادت الى الغاية المنشودة وذكر ابو منصور البغدادي ان صاحب الرسالة المذكورة قال فيها ما يأتي « وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعي العقل ثم يكون له اخت او بنت حسناء وليست له زوجة في حسنها فيحرمها على نفسه و ينكحها من اجنبي ولو عقل الجاهل لعلم انه احق باخته و بنته من الاجنبي (الفرق ٢٨١) وما وجه ذلك الا لان صاحبهم (النبي) حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل وهو الاله الذي يزعمونه واخبرهم بما لا يرونه ابداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار حتى استعبدهم بذلك عاجلاً وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولا واستباح بذلك اموالهم بقوله « لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى » (الشورى ٢٣) فكان امره معهم نقداً وامرهم معه نسيئة وقد استعجل منهم بذل ارواحهم واموالهم على انتظار موعود لا يكون وهل الجنة الا هذه الدنيا ونعيمها وهل النار وعذابها الا ما فيه اصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلوة والصيام والجهاد والحج »؟ [2] وجاء

(١) انظر مقالة المستشرق Massignon في دائرة المعارف الاسلامية ع ٣٠ ص ٨١٦

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٩٠

فيها ايضاً ، وذلك لاول مرة في التاريخ ، ذكر المضللين الثلاثة (trois imposteurs) الذين ملأ حديثهم الاجيال الوسطى الى غير ذلك من الاقوال التي تنسب الى الاسماعيلية تحليل المحرمات ونسخ الآداب المتبعة في ذلك العصر فقد ذكروا عنهم « انهم قد اباحوا لاتباعهم نكاح البنات والاخوات وأباحوا شرب الخمر وجميع اللذات و يؤكد ذلك ان الغلام الذي ظهر منهم في البحرين والاحساء ... سن لاتباعه اللواط واوجب قتل الغلام الذي يمتنع على من يريد الفجور به »(ص ٢٧٠) فلو اضفنا الى ذلك ما كانوا يعزونه الى الاسماعيلية من الكذب والنفاق وطرق التضليل لاستوعبنا ما قاله خصومهم فيهم وفي مبادئهم الادبية والدينية ، اما معلومات اعداء الاسماعيلية عن مبادئهم السياسية والاجتماعية فاقل جداً من معلوماتهم عن مبادئهم التي ذكرناها قبل ذلك كما يتضح لكل من طالع كتاب ابي منصور وغيره من الكتبة وغاية ما يمكننا ان نستخلصه من اقوال هؤلاء الكتبة المبعثرة المتباينة هو ان زعماء الاسماعيلية وقادة سياستهم كانوا كلهم او اكثرهم من الفرس المتعصبين لقوميتهم والعاملين بكل الوسائل على احياء ملكهم الدارس او ممن يقولون باللاقومية (internationalistes) وممن كان غرضهم دك اركان الدولة العباسية المؤسسة على العصبية القومية والاسلام و بناء دولة اممية شيوعية على انقاضها تكون مؤسسة على مساواة جميع الامم في الحقوق وعلى دين العقل السليم ، او من الفوضويين الذين لم يكن يعنيهم الا تقويض الدولة المكروهة عندهم وهدم انظمتها الممقوتة . ومما ذكره كتبة المسلمين عن اغراض الاسماعيلية انهم كانوا يسعون الى نزع الملك من ايدي خلفاء بني العباس وتسليمه الى العلويين الذين كانوا يرجون منهم خيراً لانفسهم .

هذه خلاصة ما ذكره كتبة الاسلام عن تعاليم الاسماعيلية واغراضهم السياسية والاجتماعية ، فاذا نحن قابلناهذه الاخبار بما جاء في كتب الاسماعيلية النادرة وما حفظته الايام من كتب واخبار الجماعات الدينية والاجتماعية التي خرجت من احضان الاسماعيلية كالقرامطة والفاطميين والحشاشين والدروز والزيدية في اليمن واسماعيلية هذا اليوم الخ وجدنا ان كثيراً مما نسبه اليهم كتبة الاعصر السالفة لا يتفق مع الحقيقة خصوصاً ما قيل عن آدابهم واخلاقهم بل قد يكون اقرب الى الحقيقة عكس ما نسب اليهم في كتب اصحاب المقالات الدينية ، فقد عرف مثلاً عن بعض الخلفاء الفاطميين انهم كانوا يميلون الى التزوج بامرأة واحدة وانهم كانوا يدعون رعيتهم الى اتخاذ هذا النظام العائلي . ذكروا ان الخليفة المعتز (٩٥٣ — ٩٧٥) دعا رؤساء قبائل افريقيا الشمالية الى الزواج الفردي « لان بذلك تزيد سعادة الحياة ويحفظ نشاط الروح ولانا في حاجة الى كل قواكم وعقولكم » [١] ومثل ذلك يحكى عن القرامطة وهم — كما سنرى في الفصل الآتي — اقرب الناس الى الاسماعيلية بل هم فرع كبير منهم فقد جاء عنهم في «سفرنامه» للسائح والكاتب الفارسي ناصر خسرو الذي زار عاصمتهم سنة ٤٤٢هـ (١٠٥٠ م) « انهم لا يشربون خمراً » لا لأنه كان ممنوعاً عندهم بل لانهم كانوا يحافظون على حسن سمعتهم وآدابهم العمومية محافظة شديدة تنافي ما قاله فيهم احد خصومهم في قصيدة ذكر فيها عن لسانهم

وما الخمر الا كماء السماء   حلال فقدست من مذهب [٢]

---

(١) انظر كتاب de Goeje المذكور آنفاً ص ١٧٧

(٢) انظر كتاب M. de Goeje ص ٢٢٦ — ٢٢٧ . البيت المذكور ماخوذ من قصيدة ذكرها الخزرجي في تاريخ اليمن » الذي لا يزال خطاً وهذه هي القصيدة :

فانت ترى مما ذكر ومن وقوفك على حالة الجماعات المذكورة الادبية في الوقت الحاضر ان اخلاق الاسماعيلية على الاطلاق لم تكن من السقوط في الدرجة التي يصورهم فيها خصومهم وانهم لم يكونوا يدعون الى العدمية الادبية (nihilisme moral) كما يظن البعض ومثل هذا يقال في تعاليمهم الاجتماعية والسياسية فلا بد اذن من التحفظ والتروي عند الحكم عليهم واصلاح ما نسبه اليهم اعداؤهم من الاغلاط والمبالغات وان كان يصعب احيانًا تحديد درجة هذه المبالغات لما نعرفه الآن عن تكتم الاسماعيلية واخفائهم عن الناس اسرارهم واختلاف عناصرهم ونزعاتهم . ثم لا يجب ان يغيب عن بالنا ان كثيرًا من تعاليم الاسماعيلية الاساسية قد تطور مع الزمن وان دعاتهم كانوا يراعون في اقوالهم درجة سامعيهم العقلية والادبية وعلاقتهم بالدين عامة وبالاسلام خاصة و ينظرون الى قومياتهم واميالهم السياسية والاشتراكية فكانوا يخاطبون كلا منهم بلسانه و بما يوافق امياله وعواطفه ودرجة نموه العقلي[(١)] فربما كانوا

خذي الدف يا هذه واضربي	وغني هزاريك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم	وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعة	وهانا (هذي) شريعة هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
اذا الناس صلوا فلا تنهضي	وان صوّموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا	ولا زورة القبر في يثرب
ولا تمنعي نفسك من المعرسين	من الاقربين او الاجنبي
فلمْ ذا حلّلت لهذا القريب	وصرت محرمة للاب
اليس الغراس لمن ربه	واسقاه في الزمن المجدب

(١) قال ابو منصور البغدادي « ان من شرط الداعي الى مذهبهم ان يكون عارفًا بالوجوه التي تدعي بها الاصناف فليست دعوة الاصناف من وجه واحد بل لكل صنف من الناس وجه يدعي منه الى مذهب الباطن فمن رآه الداعي مائلا الى العبادات حمله

يخاطبون الفارسي بغير ما كانوا يخاطبون به العربي و يصطادون المسلم بخلاف ما كانوا يصطادون به غير المسلم و يكاشفون الفلاسفة واهل العلم والطبقة الراقية من الناس بغير ما كانوا يدعون به الطبقة السفلى وهلم جرًّا مما ينتج عنه انه كان للاسماعيلية برنامجان (اعلى وادنى) (maximum et minimum) فان صح ذلك—واظنه صحيحًا لان بعض الكتبة اشار اليه—سهل علينا والحالة هذه ان نفهم سبب ذلك التباين الظاهر في اقوال بعض كتبة المسلمين عن الاسماعيلية وتعاليمهم على انه لا يستنتج من هذا انه لم يكن للاسماعيلية برنامج

على الزهد والعبادة ثم ساله عن معاني العبادات وعلل الفرائض وشككه فيها ومن رآه ذا مجون وخلاعة قال له العبادة بله وحماقة وانما الفطنة في نيل اللذات وتمثل له بقول الشاعر :

من راقب الناس مات همًّا   وفاز باللذة الجسور

ومن رآه شاكًّا في دينه او في المعاد والثواب والعقاب صرح له بنفي ذلك وحمله على استباحة المحرمات واستروح معه الى قول الشاعر للماجن :

أأترك لذة الصهباء صرفا   لما وعدوه من لحم وخمر
حياة ثم موت ثم نشر   حديث خرافة يا ام عمرو

ومن رآه من غلاة الرافضة كالسبابية الخ.لم يحتج معهم الى تأويل الايات والاخبار لانهم يتأولونها معهم على وفق ضلالتهم . ومن رآه من الرافضة زيديا او اماميا مائلا الى الطعن في اخبار الصحابة دخل عليه من جهة شتم الصحابة وزين له بغض بني تميم لان ابا بكر منهم و بغض بني عدي لان عمر بن الخطاب منهم وحثه على بغض بني امية لانه كان منهم عثمان ومعاوية وربما استروح الباطني في عصرنا هذا الى قول اسماعيل بن عباد :

دخول النار في حب الوصي   وفي تفضيل ابناء النبي
احب الي من جنات عدن   اخلدها بتيم او عدي

..... ثم ذكر له على التدريج بعض التاويلات فان قبلها منه اظهر له الباقي وان لم يقبل منه التاويل الاول ربطه في الباقي وكتمه عنه وشك الغرّ في اركان الشريعة.... فهذا بيان درجة التفرس منهم » (الفرق ص ٢٨٣)

معلوم متفق عليه عند اكثريتهم يمكن ان نطلق عليه اسم البرنامج الاصغر. وهو ذلك البرنامج الذي ذكرت فيه مبادئهم الاصلية التي لم يطرأ عليها تغير ظاهر والتي كانت تميزهم عن غيرهم من اصحاب النحل والاحزاب العديدة في ذلك الوقت .

لا ريب في وجود هذا البرنامج الاصغر لانا نستطيع اليوم ان نجمع بنوده ونعرضها على القارئ مستندين في ذلك على شهادات اعداء الاسماعيلية وما حفظ من كتب الاسماعيلية انفسهم او من يمت اليهم بقرابة روحية من الجماعات المذكورة آنفاً فان نحن قابلنا بين هذه الاخبار كلها ونقدناها نقداً علمياً محضاً منزهاً عن الاميال والغايات امكننا ان نستخرج منها الصورة الآتية للاسماعيلية .

من المعلوم ان منشأ الحركة الاسماعيلية واكثر الحركات الاشتراكية والسياسية والادبية التي هزت العالم الاسلامي هزات عنيفة وزلزلت ارضه وسماءه هي الشيعة العلوية، والذي نعرفه من امر هذه الشيعة المعتدلة انها انشقت الى فرعين: فرع يعرف بالاثنا عشرية، وفرع آخر يعرف بالسبعية سمي اصحابه بهذا الاسم لانهم وقفوا عند الامام السابع وهو اسماعيل بن جعفر الصديق الاكبر الامام السادس من ائمة هذا الفرع ، ومعلوم ايضاً ان جعفر الصديق رفض ان يقيم ابنه اسماعيل خلفاً واماماً من بعده نظراً لسوء سيرته ولانه كان يدمن الخمر الا ان حزب اسماعيل—وهم الاكثرية في الفرع المذكور—اعترض على ذلك وايد اسماعيل واعترف بامامته فعرف باسمه الى هذا اليوم .

توفي اسماعيل سنة ١٤٥هـ ، اي قبل ابيه ، ودفن في المدينة حيث بقيت تقيم عائلته الى اواخر الجيل الثامن حين اضطر اعضاؤها الى مهاجرة بلدهم لاشتراكهم فعلاً في حوادث ذلك الوقت السياسية او لانه خيل لاصحاب

السلطة يومئذ انهم اشتركوا فيها فتفرق اولاد اسماعيل واحفاده في البلاد فهبطوا شمال فارس[١] والعراق وسوريا ثم نزحوا الى بلاد الهند وشمال افريقيا الخ . الا ان عيون بني العباس كانت تتبعهم اينما حلوا واين رحلوا لانهم كانوا يخافون نفوذهم و يحسبونهم اعظم الناس عليهم خطراً ، فاضطر ذلك بني اسماعيل الى التخفي وسكني البيوت البعيدة والمدن الصغيرة من حيث بدأ وا يرسلون دعاتهم الى اطراف الخلافة العباسية لبث دعوتهم السياسية ونشر تعاليمهم الدينية والاجتماعية التي اخذت تختلف رويداً رويداً عن الدين الاسلامي بل عن الدين كله لما اخذ يتسرب اليها من العناصر الغريبة والاراء الفلسفية حتى اصبحت بعد زمن قليل مذهباً بل ديناً قائماً بذاته نستطيع ان نلخصه في الاسطر الآتية .

قلنا ان الاسماعيلية جمعية سرية يترأسها زعيم يعرف بالامام او صاحب الزمان له سلطة مطلقة على جميع اعضاء الجمعية اي على حياتهم وما يملكون وكلمته مطاعة عندهم كحكم من احكام الشريعة بل اقوى لان الامام عندهم وفي نظرهم معصوم عن الخطأ ، كخليفة الله في ارضه ، وارادته لا ترد اذ ليست خدمة الله الا تتميم ارادته والاخلاص له «فمن عرف امام الزمان واقسم باسمه واعتمد عليه في كل شيء ثم عرف اوامره وتمسك بها واعطى لكل ذي حق حقه ولم يحد عن الحقيقة فقد عرف الله حق معرفته»[٢] فمن قبل هذه العقيدة اضطر ان يقبل ايضاً ان امام الزمان اعلى درجة او درجات من النبي لان ليس

(١) قال عماد الدين الاصفهاني صاحب كتاب « مختصر تاريخ آل سلجوق » « ان خراسان كانت عش الباطنية وملجأهم » ص ٨٨

(٢) كتاب M. de Goeje ص ١٧٠

للحدود التي وضعها الانبياء الا اهمية نسبية قد لا تتعدى زمانهم اما حدود امام الزمان او تأويله لحدودغيره فلها اهمية مطلقة لا يحصرها زمان ولا مكان . وقد عرف عن الاساعيليه انهم كانوا يؤولون الشرائع الدينية وشعائرها تأويلاً باطنياً — ومنه عرفوا بالباطنية — يخالف ظواهرها ولكن لا يخالف العقل السليم وانهم اخذوا تأويلهم هذا عن فلاسفة اليونان وخصوصاً الافلاطونيين الاحداث فكان من نتائج هذا التأويل انهم قضوا على الشرائع المنزلة وبذلك رفعوا شأن « امام الزمان » وحصروا السلطة في يديه .

نحن لا ننكر ان الاساعيلية لم تنبذ في الظاهر الشرائع المنزلة عامة والقرآن خاصة وذلك لانهم كانوا يرون فيها فائدة لطبقات الشعب الدنيا طبقات « العميان والحمير » كما كانت الاساعيلية تسميها ، اما الطبقات العالية التي « فتح الله بصائرها وابصارها » فادركت الحقيقة فهي — في نظر الاساعيلية وحسب اعتقادهم — في غنى عن هذه الشرائع وشعائرها الخارجية مما ينتج عنه ان زعماء الاساعيلية كانوا يكفرون بالاديان الموحاة وعقائدها الاصلية ، وهو ما ذكره كتبة المسلمين مراراً وما لا يمكن ان ينكره احد . قال ابو منصور البغدادي ان القيرواني كتب في رسالته التي وضعها لسليمان بن الحسن القرمطي ما حرفه : « اني اوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والانجيل وبدعوتهم الى ابطال الشرائع والى ابطال المعاد والنشور من القبور وابطال الملائكة في السماء وابطال الجن في الارض » (الفرق ٢٨٠) وقال في موضع آخر « والذي يصح عندي من دين الباطنية انهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم الى استباحة كل ما يميل اليه الطبع » (الفرق ٢٧٨)

وجاء في رسالة[1] لهم محفوظة الى اليوم خطاً ما معناه « ان القول بالبعث مهزأة لان المراد من قولنا « الحيوة الخالدة » و « خلود النفس » هو رجوع النفس الى مصدرها الاصلي » وعلى هذه الطريقة اوّلوا عقيدة الدينونة في اليوم الآخر وغيرها من العقائد الدينية الاساسية وقالوا ان المؤمن الحقيقي هو من يؤول الوحي الالهي على طريقتهم، واما من يتبع الشرائع المنزلة واحكامها على ظواهرها فليس هو الا كافراً وحماراً[2] »

فانت ترى من هذا ان الاسماعيلية كانوا يكرهون التفسير الظاهري وكانوا يحاولون ان يؤولوا آيات الشرائع واحكامها تأويلاً باطنياً مبنياً على العقل (ratio) فقط فهم اذن اول بدعة في الاسلام يجوز ان نطلق على اصحابها اسم (العقليين) او اهل العقل (rationalistes) بمعنى هذه الكلمة العصري فالفرق بينهم و بين المعتزلة ان الاسماعيلية كانوا يؤولون الديانات واحكامها وشعائرها تأويلاً يؤدي الى نفيها على حين ان المعتزلة كانوا يحاولون ان يوفقوا بين الدين والعقل بدون ان يضحوا احدهما للآخر ٠

ان هذا المذهب الجديد الذي اراد الاسماعيلية ان ينشروه بين المسلمين وغير المسلمين ليس هو الا احدى نتائج تعليمهم الاساسي عن الدين ومكانه في نظامهم الفلسفي، وما الدين الحقيقي في نظرهم[3] الا « ان يتوصل الانسان بالتمرين المستمر والترقي من درجة الى درجة الى معرفة منازل الكون التي قطعتها العوالم (المسكونة) بعد ان انفصلت عن الله » اي « عن الفكر الواحد المطلق » (الغير المجسم) او « العقل الاول » او « النور الاعلى » المشع من نفسه في المنزلة الثانية

---

(١) انظر تأليف M. de Goeje ص ١٧١

(٢) انظر تأليف M. de Goeje ص ١٧١

(٣) انظر Encyclop. musulmane ج ٣٠ ص ٨١٥

العقل العام والنفس العالمية وهما اللذان يحدثان — بعد ان يتغيرا — العقول الانسانية وعقول الانبياء والائمة وخيرة الناس » اما سائر الناس فليس لهم عقول بل « اشباه العدم » الا اذا انتقلوا الى المنزلة الثانية بواسطة التنوير والتعليم»[1] ولهذا التعليم درجات عديدة تقابل درجات التكريس التي تكلمنا عنها سابقاً اذا سار الانسان فيها بلغ الدرجة القصوى من الكمال العقلي والادبي اللذين هما الغرض الاكبر من حياة الانسان الدنيا . اما السبيل الى بلوغ هذه الغاية فهو—على رأيهم—انماء القوى العقلية ثم السيرة الحسنة والحياة الادبية الموافقة لمطالب العقل السليم وهذا يؤيد ما ذكرناه سابقاً عن علو آداب الاسماعيلية على الاطلاق و ينافي ما كان يتهمهم به بعض اعدائهم .

هذه خلاصة تعاليم الاسماعيلية عن الادب والدين اما مبادئهم السياسية والاجتماعية فيمكن ان يقال عنها انها كانت مرتبطة ارتباطاً متيناً بارائهم الفلسفية والادبية بل هي نتيجة منطقية لها تقوم عليها وتسقط معها . هذا من جهة ومن جهة اخرى لا بد من التنبيه الى ان مبادئهم السياسية والمسائل الاجتماعية التي كانت تحوم حولها افكارهم لم تظهر في يوم واحد ولم تبق على حالها مدة طويلة بل انها كانت تتطور تبعاً لمطالب الزمن وظروفه ولتطور زعماء الحركة الاسماعيلية العقلي والادبي فهي والحالة هذه قد قطعت كسائر انظمتهم ادواراً عديدة واجتازت مراحل كثيرة وهي تنمو وتتكيف الى ان اتخذت لنفسها صورة نهائية هي الصورة التي يعرفها بها اكثر الكتبة المتأخرين .

نحن لا ننكر انه يصعب على المؤرخ الاجتماعي ان يتتبع سير الحركات

---

(١) من هنا تسميتهم « بالتعليمية» على ما ذكره الشهرستاني والغزالي وغيرهما

الاسماعيلية وادوار تطورها و يبين ما طرأ على برنامجها الاصلي من التغير ولكن لا بدّ من ذلك لكل من يبحث عن تاريخ الحركات الفكرية في الشرق الاسلامي ولهذا ترانا مضطرين ان نبين ذلك على قدر ما تسمح لنا به معارفنا والنصوص التي توفقنا الى جمعها ودرسها ٠

يظهر ان مطالب الاسماعيلية السياسية في الدور الاول لم تكن لتختلف كثيراً عن مطالب غيرهم من الشيعة اي انها كانت ترمي الى نزع السلطة من ايدي بني العباس ونقلها الى خلفاء علي وابنائه الذين اختطفت منهم كما يزعم اشياعهم، والمعروف ان هذه المطالب كانت في بادئ الامر علانية يشترك في تأييدها بعض اعضاء العائلة المغتصبة حقوقها واتباعهم من العرب والفرس، فكانت هذه الحركات تؤدي احياناً الى ثورات شيعية كانت تضع الدولة العباسية في مراكز خطرة تضطرها الى استعمال القوة لمعاقبة القائمين بها معاقبة شديدة تشمل البريء والمجرم، الا ان هذه الوسائل لم تكن لتثني اصحاب تلك الحركات الفكرية عن عزمهم او تحملهم على الاستسلام لانهم كانوا يعتقدون ان الحق في جانبهم وانهم لا بدّ ان يبلغوا غايتهم المنشودة ٠ وقد تحول هذا الاعتقاد ، تحت تأثير عوامل وافكار غريبة عن الاسلام ، الى ايمان قوي في قرب ظهور رجل — مهدي — يتغلب على دولة بني العباس و ينتزع منهم الملك ليسلمه الى اصحابه فلما ظهر هذا المهدي او امام الزمان اخذوا يعلقون عليه — وذلك تحت تأثير العوامل المذكورة وما اصاب العلويين من الفشل والمحن وما دخل على دولة بني العباس من التغيرات الاجتماعية والسياسة — امالاً جديدة غير آمالهم السياسية المعلومة فصاروا ينتظرون من مهديهم او امامهم الاكبر ان يعم العدل بين الناس و يشفي الارض من امراضها الاجتماعية الى غير ذلك من

الاعمال التي تنطوي تحت كلمة عدل وان يحقق كثيراً من المبادئ والافكار التي اخذت تتسرب في هذا الوقت الى عقول زعماء الاسماعيلية من الخارج اي من كتب فلاسفة اليونان وتلاميذهم في الشرق او من الاحزاب الشيوعية والنحل الدينية والعناصر الاجنبية الماقتة لدولة بني العباس ·

على كل حال لا ريب في ان المطالب الاجتماعية دخلت في برنامج الاسماعيلية بعد مدة قليلة مضت على ظهورهم لاسباب عديدة اهمها استمالة الناس الى حزبهم لا لتقويته عدداً كما يتهمهم في ذلك خصومهم بل لان لهذه المطاليب صلة بتعاليمهم الاصلية ولانها تتمة طبيعية لها ·

اما المطالب الاجتماعية التي ادخلها الاسماعيليون على بروغرامهم فاهمها (١) المساواة بين الجنسين[1] و (٢) ابطال ملكية الاراضي وتوزيعها على المحتاجين اليها مجاناً وهو — كما رأينا — ما كانت تسعى الى تحقيقه الاحزاب الشيوعية قبل ظهور الاسماعيلية ، وانما الفرق بين هؤلاء والشوعيين هو ان الاسماعيلية بنوا طلبهم هذا على مبادئ فلسفية علمية لا على مبادئ ادبية محضة كما فعل من سبقهم من الشيوعيين ، مما لا يستنتج منه مع ذلك الا ان الاسماعيلية كانوا يرفضون مبدئياً تلك المبادئ الادبية ثم هناك فرق آخر بين المذهبين وهو ان الباطنية لم تقتصر على مد اساس جديد تحت المبادئ الشيوعية القديمة بل وسعت ايضاً القسم الاجتماعي في برنامجها وتوفقت في بعض الاقاليم الى تحقيق نظامها الشيوعي كما سترى في الفصل الآتي ، اضف الى ذلك ان الاسماعيلية هم اول من قاوم في الاسلام العصبية القومية ودافع عن فكرة الاخاء الحقيقي

---

(١) من الغريب ان الدروز الذين هم احد فروع الاسماعيلية لا يقولون بمساواة الامرأة للرجل (انظر .Encycl. musulm ج ٣٠ ص ٨١٧)

(internationalism) لا بين المسلمين فقط بل بين جميع الناس على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم واديانهم اي عن الاخاء المبني لا على وحدة الدين كما كانت الحال في الاسلام والكثلكة في الاجيال الوسطى بل على مطالب العقل السليم[١]، فهم اذن لم يحصروا دعوتهم وسعيهم في طائفة من الناس معلومة كالمازيارية او البابكية وغيرهم من شيوعيي ايران بل وجهوها الى جميع البلاد وجميع الامم ولهذا نرجح ان تعريف بعض الكتبة للاسماعيلية بانهم شيوعيو ايران ونبزهم اياهم بالتعصب لهذه الامة صادرٌ اما عن رغبة هؤلاء الكتبة في اثارة الرأي العربي على زعماء هذه الحركة، واما عن جهلهم لمبادئ الاسماعيلية الاساسي، واما عن ان زمام الحركة كان في بادئ الامر في ايدي جماعة من الفرس، واما اخيراً لانه كانت بين الاسماعيلية — وما الاسماعيلية كما بينا الا اخوية مؤلفة من جميع الامم والنحل — فئة صغيرة من الفرس تعمل في السر على احياء مملكة العجم واعادة مجد بني ساسان، الا ان هذا الامر — اذا صح — لا يقدح في مذهب الاسماعيلية على الاطلاق لانه كان امميًا مبنيًا على اوليات فلسفية معلومة، وما على المرتاب الا ان ينعم النظر في العناصر القومية المؤلفة منها اخوية الاسماعيلية فيرى هناك الفارسي والعربي والكردي والنبطي والهندي والتركي والبربري الخ قال ابو منصور البغدادي، وقوله في هذه المسائل ثقة، « والذي يروج عليهم مذهب الباطنية اصناف احدها العامة الذين قلت بصائرهم باصول العلم والنظر كالقبط والاكراد واولاد المجوس والصنف الثاني الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب ... والصنف الثالث اغنام (اغتام ؟) بني ربيعة من اجل غيظهم من مضر لخروج النبي منهم » (الفرق ٢٨٥—٢٨٦)

نرى من هذه العبارة ومن غيرها مما لا حاجة الى ذكره هنا ان الاسماعيلية

هم حقيقةً اول من تغلب في الاسلام على العصبية القومية التي لم يقو عليها بنو امية ولا بنو العباس وعلة ذلك ان الاسماعيلية اعلنوا من يوم ان ظهروا ان المسائل القومية لا تهمهم لان الغرض الذي يرمون اليه و يسعون الى تحقيقه ليس بغرض قومي ، ولان الاوهام القومية التي كانت تمزق في تلك الاعصر جسم الدولة العباسية لا تتفق مع مبادئهم الفلسفية ، فهم والشعوبية من هذا القبيل على طرفي نقيض بل ربما كان ظهورهم رد فعل ضد الشعوبية فاذا جاز ان نسمي الشعوبية حزب العصبية القومية (chauvinistes) المتطرف كانت الاسماعيلية حزب اللاقومية او الاصح البينقومية (international) على انه لا يجب ان يفهم من كلامنا هذا ان الاسماعيلية كانوا اعداء الشعوبية او ظهروا لمقاومتهم فقط كلا ! لان كلا من هذين الحزبين كان مستقلاً عن الثاني يرمي الى غايات متباينة كان يتخذ للوصول اليها اساليب و وسائط مختلفة بل يجوز ان يقال انهما تلاقيا في طريقهما التي قطعاها مستقلين وسارا زمناً معلوماً جنباً الى جنب بدون ان يتصادما او يقتتلا ولو اختلفت مبادئهما وما ذلك الا لانه كانت هناك نقطة تجمع بينهما وهي بغضهما للدولة الحاكمة والعصبية العربية وهذا ما لاحظه واشار اليه ابو منصور بقوله « ان الشعوبية كانت تدخل في دين الاسماعيلية وتؤيده » (الفرق ٢٨٥).

وهنا يجدر بنا ان نلفت نظر القارئ مرة اخرى الى ان دعاة الاسماعيلية كانوا ينشرون دعوتهم بين جميع الامم الخاضعة للدولة العباسية و بين جميع الاحزاب والنحل الدينية لا يفرقون بين دين ودين او حزب وحزب لان غرضهم الاكبر كان ان يدخلوا في جمعيتهم عقلاء الناس ولهذا كنت ترى بينهم ممثلي جميع الامم والطبقات والاديان والاراء المتباينة المتضادة حتى

اصبحت اخويتهم اشبه شيء بصندوق بندورا (Pandora) الخرافي الذي كانوا يخرجون منه ما شاؤوا .

لم تكن الاسماعيلية تقدم على هذا العمل الغريب وتبدي هذه الجرأة النادرة في تاريخ الانسانية الا لانها كانت تشعر بقوتها المعنوية الروحية وتأثير ما كانت تدعو اليه من المبادىء ولانها كانت ذات ثقة بنفسها تعتقد انها قادرة بعد مدةٍ من الزمن وقليل من التعب ان تجعل من اعضائها المختلفي النزعات والغايات كتلة واحدة تربط اجزاءها وحدة النظر الى هذا العالم و وحدة الغاية والوسائل المؤدية اليها، وهو ما كان حقيقة .

نحن لا ننكر ان التأليف بين قلوب وعقول تلك الجماعات المختلفة المؤلفة لجمعية الاسماعيلية ليس بالامر السهل وان محاولة ذلك كان يكلف زعماءها ودعاتها اتعاباً لا يعرفها الا من عاني مثل هذه المشقة، وانه خير ان يكون اعضاء الحزب الواحد على مبدإٍ واحد قبل ان ينضموا الى ذلك الحزب او ان يكونوا مستعدين الى لتلقي مبادئه واتباع سياسته قبل الانخراط في سلكه، الا ان هذا شيء نادر في تاريخ الهيئات الاجتماعية والاحزاب السياسية ، كما هو معلوم ، فكل حزب يريد ان يحقق احلامه السياسية او الاجتماعية في هذه الحياة الدنيا لا بدّ ان يتعب في جمع كلمة من يحتاج الى مساعدتهم من الناس وتثقيفهم وتمرينهم على العمل والا كان سعيه باطلاً .

هذا ما انتبه اليه زعماء الاسماعيلية بعد ان اصبح حزبهم السياسي مذهباً اشتراكياً او اخوية فلسفية شيوعية والى ذلك اشار عبيد بن الحسن القيرواني احد كتبة الاسماعيلية في رسالته الى احد دعاة المذهب المبرزين سليمان بن الحسن ابي سعيد الجنابي حيث يقول : « واذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به فعلي

الفلاسفة معولنا وانا واياهم مجمعون على ان نواميس الانبياء على القول بقدم العالم لو لا ما يخالفنا فيه بعضهم من ان للعالم مدبراً لا يعرفه »[1] وقال قبيل ذلك « ادعُ الناس بان تتقرب اليهم بما يميلون اليه واوهم كل واحد منهم بانك منهم فمن آنست منه رشداً فاكشف له الغطاء » (الفرق ٢٧٨—٢٧٩)

هذا شيءٌ قليل من تلك الطرق التي كان يستعملها الاسماعيليون لاصطياد الناس وتأليف كتلة قوية موحـدة الكلمة ، والحق اولى ان يقال انهم توفقوا بهذه الاساليب الى استمالة مئات الالوف بل الوف الالوف الى مذهبهم واشرابهم مبادئهم الجديدة وجعلهم آلة صماء في ايدي صاحب الزمان واعوانه يقذفون بهم اينما شاؤوا و يسخرونهم لقضاء اغراضهم ، والذي نعلمه عن هؤلاء الاعضاء انهم كانوا يلبون دعوة زعيمهم راضين فرحين مخلصين كانهم كانوا يقدمون على عمل فيه حياتهم ، وهذا تاريخهم يشهد لهم انهم كانوا يقتحمون غمرات الموت افراداً وجماعات و يبدون من البسالة وتضحية المصالح الشخصية بل حياتهم ما لا يعرفه تاريخ غيرهم من الاحزاب السياسية والهيئات الاجتماعية في ذلك الوقت ، فلا عجب اذا كانت هذه الجراءة تؤدي غالباً الى نتائج كبيرة كما لا عجب ايضاً اذا ملأت حركة هؤلاء الناس الاجتماعية ثلاثة اعصر وادت في آخر الامر الى بناء دولة ضخمة في مصر وشمال افريقيا وابقت من الآثار ما خلد اسمها ثم خلفت من الجماعات كالحشاشين والقرامطة والدروز وغيرهم من لا يزال اكثرهم حياً عاملاً الى هذا اليوم .

---

(١) لا حاجة الى ذكر الاغلاط التي وقعت في الطبعة المصرية لكتاب ابي منصور البغدادي وقد اصلحنا بعضها في ما استشهدنا به منه وانما يسوءنا ان يتولى طبع هذا الكتاب النفيس رجل ليس له اطلاع لا على تاريخ الاديان ولا على التاريخ عموماً ..

لو اردنا ان نتتبع بالتفصيل تاريخ الحركات التي احدثتها الاسماعيلية وكانت دائماً تحت تأثيرها لوجب ان نضع لذلك مؤلفات عديدة تفي بالغرض، وكذلك لو اردنا ان نبحث بالتدقيق عن تأثير الافكار الاسماعيلية على الآداب والفلسفة الاسلامية وحياة المجتمع الاسلامي في الاعصر المذكورة ولهذا نكتفي بالاشارة الى ان الافكار التي بثها دعاة الاسماعيلية بين طبقات المسلمين وغير المسلمين كان من شأنها ان قلبت حياتهم رأساً على عقب واحدثت بينهم من التغيير ما لا تزال اثاره باقية الى هذا اليوم، فالفلسفة مديونة لهم برسائل «اخوان الصفا» وهي اول دائرة للعلوم والمعارف ظهرت في العالم وقد حاولوا ان يبثوا فيها مبادئهم العلمية ونظرهم الخاص الى الطبيعة والانسان وينشروا فيها اراء فلاسفة اليونان الذين كانوا في نظرهم من درجة الانبياء او اعلى، فمهدوا بذلك السبيل لفلاسفة الاسلام كالفارابي وابن سينا وغيرهم، اذ لا شك في ان كثيراً من نظريات هؤلاء الفلاسفة وافكارهم السامية مأخوذ عن كتب الاسماعيلية، نذكر من ذلك نظرية الفلاسفة المذكورين الى ما يعرف بالاستعداد للنبوة او بعبارة اخرى «بالامام الكامل» او «الحكيم الكامل» فانها ولا شك من بنات افكار الاسماعيلية [1] ومثلها النظريات المبتكرة التي نجدها في رواية حي بن يقظان لابن طفيل ثم ان لهم اثاراً بينة عميقة في علم التفسير حيث ساعدوا على نشر مبدأ التأويل وفي فلسفة التصوف وحيث شعر بتأثيرهم في كتب ابن العربي والغزالي والحلاج وغيرهم ناهيك عن متصوفي الفرس الذين كانوا ولا يزالون اكثر ميلاً الى المبادئ الاسماعيلية من اخوانهم العرب . واهم من ذلك في نظري ان الحركة الاسماعيلية مهدت السبيل لنشر الافكار الحرة

---

(١) انظر مقالة Massignon عن القرامطة في دائرة المعارف الاسلامية

في العالم الاسلامي وجرأت الناس على المجاهرة بها بعد ان كانوا يخافون من البحث في ما هو اقل منها خطراً ولو لا ذلك لما تجاسر ابن العربي ان يقول:

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي   اذا لم يكن ديني الى دينه داني (الخ)

ولولاها لما رأينا عشرات من الكتبة والشعراء يحملون حملاتهم الشعواء على الاوهام والخرافات الدينية والعداوات القومية واصحابها و يحتجون بلا خوف ولا حذر على الضغط على الحرية الشخصية من قبل اصحاب السلطة المدنية والدينية فهذا ابو العلاء المعري امام الناقمين من الظالمين وزعيم المفكرين الاحرار هل كان يستطيع ان يقول:—

ان الشرائع القت بيننا احنا   واودعتنا افانين العداوات

او ان يقول :

والدين قد خس حتى صار اشرفه   بازاً لبازين او كلباً لكلاب

ما الركن في قول ناس لست اذكرهم   الا بقية اوثان وانصاب

قد ترامت الى الفساد البرايا   واستوت في الضلالة الاديان

ولست اقول ان الشهب يوماً   لبعث محمد جعلت رجوما

وليس اعتقادي خلود النجوم   ولا مذهبي قدم العالم

والعقل يعجب والشرائع كلها   خبر يقلد لم يقسه قائس

متمجسون ومسلمون ومعشر   متنصرون وهائدون رسائس

وبيوت نيران تزار تعبداً   ومساجد معمورة وكنائس

والصابئون يعظمون كواكباً   وطباع كل في الشرور حبائس

اذا سألوا عن مذهبي فهو بين   وهل انا الا مثل غيري ابله

خلقت من الدنيا وعشت كاهلها   اجد كما جدوا والهو كما لهوا

واشهد اني بالقضاء حللتها   وارحل عنها خائفاً اتأوه

او ان يقول اخيراً :

اما الجسوم فللتراب مآلها   وعييت بالارواح اني تسلك

وما دان الفتى بحجى ولكن   يعلمه التـدين اقربوه
اطاعوا ذا الخداع وصدقوه   وكم نصح النصيح فكذبوه
وجاءتنا شرائع كل قوم   على آثار شيء رتبوه
وغيّر بعضهم اقوال بعض   وابطلت النهى ما اوجبوه
فلا تفرح اذا رُجبت فيهم   فقد رفعوا الدنيّ ورجبوهُ

او هل كان في وسع ابي العلاء وغيره ان ينشروا افكارهم الهدامة علانية ويدعوا الناس الى الكفر بالدين والخروج على اهل السلطة الظالمين الفاسقين لولم تمهد الاسماعيلية امامهم الطريق وتعوّد الناس الاصغاء الى مثل هذه الاقوال والاقبال عليها ؟ وهذا ابن الهاني (٩٧٣) شاعر اسبانيا الطبيعي لم يخف ان يتشيع للاسماعيلية ويدخل في مذهبهم جهاراً ومثله ومثل ابي العلاء كثيرون بين كتبة العرب والفرس وشعرائهم، حبذا لو اعتنى احد بالبحث عنهم وجمع اشعارهم واقوالهم وتحليلها من الوجه الذي نتكلم عنه وحبذا ايضاً لو اهتم علماؤنا بالبحث عن تأثير اراء الاسماعيلية على كتبة الاجيال الوسطى المسيحيين وعلى ظهور اخوية الجزويت

ونظامها الغريب المخالف لسائر انظمة الجمعيات الرهبانية في الغاية التي يرمي اليها اوفي روحه الغريبة المتجلية في سلطة رئيس الجمعية المطلقة ووجود تلك الدرجات التي يقطعها السالك قبل ان يصل الى الدرجة العليا الى غير ذلك من المميزات التي لا نجدها الا في نظام الاخوية المذكورة مما اوحى الى بعض الكتبة في اوروبا ان يعزو ظهور الجزويت ونظامهم الى تأثير الاخوية الاسماعيلية او الى من تأثر بتعاليمها ونظامها الداخلي من اصحاب الطرق الصوفية، ثم حبذا لو اعتنى احد علمائنا بالبحث عن تأثير نظام الاسماعيلية وتعاليمهم على نظام وتعاليم الماسونية وسائر الهيئات والجمعيات السرية والاخويات الرهبانية والاصناف او نقابات المحترفين وطرق الدراويش الخ. نعم قد ظهرت في السنوات الاخيرة بعض ابحاث في هذه المواضيع حاولت ان تلقي اشعة من نور على بعض هذه المسائل الغامضة الا انها جاءت ضعيفة لا تفي بالغرض ولا اصحابها من اهل العلم ولا لهم معرفة باللغات والفلسفة الشرقية ولهذا لا تزال هذه الابحاث في مهد الطفولية، ونحن وان توافرت لدينا المواد المتعلقة بالمواضيع المذكورة وبما كان للاسماعيلية من التأثير على الهيئات الاجتماعية في ذلك الوقت وبعده ونتائج مبادئهم العملية فانا، لا نقدر لسوء الحظ ان نأتي عليها هنا والا اضطررنا ان نذكر تاريخ الجماعات التي ولدتها الحركة الاسماعيلية كالفاطميين والحشاشين والقرامطة والاسماعيلية المتفرقة اليوم في كثير من البلاد ولهذا ترانا مجبرين ان نقتصر على ذكر جماعة واحدة فقط تجلت فيها روح الاسماعيلية في اكمل صورة وتحققت بينها احلامهم الاجتماعية ونظامهم الاشتراكي وهذه الجماعة هم القرامطة او اسماعيلية البحرين كما يدعوهم بعض المؤرخين ولكني احب قبل ان اتكلم عن هذه الجماعة ان ابحث عن تهمة طالما اتهم بها الاسماعيليةَ خصومُهم.

يقول خصوم الاسماعيلية ان زعماء هذا المذهب اظهروا قساوة شديدة في حروبهم ومعاملاتهم مع اعدائهم في المبدأ وانهم افرطوا في قتل الافراد والجماعات من اصحاب النفوذ والسلطة وانهم كانوا يستعملون كل الوسائل لابادة اعدائهم والوصول الى غاياتهم مهما كانت هذه الغايات ، وحجة القائلين بذلك اعمال القرامطة والحشاشين وغيرهم من جماعات الاسماعيلية الذين دخلوا فيما بعد في خدمة بعض السلاطين والامراء[1] واصبحوا آلة صماء في ايديهم يستعملونها للانتقام من اعدائهم الشخصيين ٠

كل هذا صحيح لا ينكره احد لكن تفسيره غير صحيح ٠ لا ريب في ان الاسماعيلية حزب شديد البأس يكاد يكون حزباً حربياً خطته اقرب الى الهجوم منها الى الدفاع ، حزب حاول من يوم ظهر ان يقضي على دولة بني العباس و يبني على انقاضها دولة جديدة ذات نظام اشتراكي الا ان هذا الحزب لم يكن يعمد في بادئ الامر الا الى الوسائل السلمية وهي الحجة والاقناع ، الى ان اضطره خصمه الى الخروج عليه بالسلاح كما حدث سنة ٩٠٩ يوم دعته الى ذلك ظروف الحال ومصالحه الحيوية ٠ اما اغتيال الافراد وقتلهم على غرة فلم يكن معروفاً الا عن فئة صغيرة من جماعة الحشاشين وهي فئة — وان كان لها صلة قرابة بالاسماعيليين — عرفت بينهم بالتطرف وكان لها برنامج وغايات تختلف عما لغيرها من جماعات الاسماعيلية كما كان لها وسائط خصوصية تستعملها للوصول الى غايتها القصوى ونظام قائم بذاته لم يكن يعرفه خصومهم مما نتج عنه ان اكثر الناس صاروا ينسبون لجميع الهيئات الاسماعيلية ما هو

---

(١) ذكر ابن باطوطة (ج اول ص ١٦٦ — ١٦٧) ان اسماعيلية سوريا كانت تخدم عند مماليك مصر كقتلة سريين وهذا اذا صح لا يقدح في الاسماعيلية لانهم في ايام ابن باطوطة كانوا قد تشتتوا ولم يكونوا يؤلفون حزباً واحداً

خاص بفريق منهم فقط و يعاملونهم جميعاً معاملة واحدة فكان من ذلك انهم صاروا يكرهون الاسماعيلية على الاطلاق وقد بلغ بغضبهم لاصحاب هذا المذهب درجة حملتهم على اخراجهم من الامة الاسلامية اي على تحليل دمائهم ومعاملتهم معاملة الكفرة، مع علمهم بان الاسماعيلية يحرمون القتل الا في ساحات الحرب وعند الدفاع عن النفس في حالات معروفة كان يوجدها لهم اعداؤهم ليقضوا عليهم لا لذنب اقترفوه بل لانهم كانوا على غير رأيهم فكم وكم من الاسماعيلية ذهبوا ضحايا هذا التعصب الاعمى وذلك البغض الفظيع ؟

ذكر عماد الدين الهمذاني ان احد امراء خراسان قتل في مدة قليلة « اكثر من مئة الف من الباطنية وبني من رؤوسهم بالري مناراً اذّن عليه المؤذنون » (١) وورد في كتاب ابي منصور البغدادي « ان محمود بن سبكتكين سلطان غزنا المشهور « قتل في مدينة ملطان من ارض الهند الالوف وقطع ايدي الف منهم » (الفرق ٢٧٧)

فكأن خصوم الاسماعيلية قرروا ان لا يبقوا على وجه الارض احداً منهم لانه رسخ في عقولهم « ان ضرر الاسماعيلية على الاسلام اعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس بل اعظم من مضرة الدهرية وسائر اصناف الكفرة عليهم بل اعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان ... ولان فضائح الباطنية اكثر من عدد الرمل والقطر » (الفرق ٢٦٥—٢٦٦) فلا ريب اذن في ان حالة الاسماعيلية في هذه الحرب العامة كانت حرجة جداً، ولما كان عددهم اقل من عدد اعدائهم كانوا والحالة هذه مضطرين الى الدفاع عن انفسهم اكثر من الهجوم الا حيث كانت الاكثرية او الظروف في جانبهم فكانوا يستفيدون

---

(١) انظر تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٧٤

منها للانتقام من اعدائهم انتقاماً يذكرنا بقساوة الحروب الاهلية او حروب الطبقات الناتجة عن تضاد المصالح والمبادئ وهي الحروب التي يعمد فيها الطرفان الي وسائل واساليب قد لا يعمد اليها احد في الحروب الاعتيادية والتي يصعب عندها الحكم في اي من الطرفين هو اشد همجية وقساوة واقرب الى الحيوانية ·

على كل لا ريب في ان الحروب الاهلية اشد همجية من غيرها وان فوز احد الطرفين المتطاحنين على مبدإ او نظام جديد يكلف الانسانية ضحايا اكثر مما تكلفها الحروب السياسية او غيرها ·

الا انه مع كل الاضطهادات والمحن التي احتملها الاسماعيلية ومع الصعوبات التي اعترضتهم في طريقهم الى غايتهم الكبرى ، فأن دعوتهم كانت تنتشر في البلاد بسرعة غريبة حتى لم يبق عمل او مقاطعة في خلافة بني العباس الا دخلتها دعاة الباطنية واسست فيها خلايا عديدة كانت تعمل في السر على نشر المبادئ الاشتراكية وتمهد الطريق للنظام الاجتماعي الجديد وهدم النظام القديم الذي لم يعد يصلح للحياة ·

كاد اصحاب المبدأ الجديد يبلغون اربهم و يقضون على دولة بني العباس لولم تأتها مساعدة قوية من امة حديثة مملوءة حماسة ونشاطاً وهمجيةً نادرة في تلك العصور وذلك الوسط الراقي وهذه الامة هي الامة التركية التي اصبحت من اواسط العصر التاسع صاحبة الامر والنهي في بغداد وصار اليها امر الدفاع عن هذه الدولة وانظمتها الدينية والمدنية فقامت بما عهد اليها حق القيام وقاومت اعداء الدولة والدين بما عرف عنها من الحزم والقساوة والتعصب فأصاب الاسماعيلية منها ما اصاب مما لا حاجة الي ذكره هنا فاضطروا الي

الانسحاب من كثير من ميادين القتال والالتجاء الى الجبال والبلاد البعيدة حيث استطاعوا ان يحافظوا على مطلبهم الاكبر (ideal) ومذهبهم الاشتراكي وكثير من انظمتهم الاجتماعية الى هذا اليوم، وقد زاد في ضعفهم وتشتيت شملهم انهم لم يكادوا ينتهون من قتال الترك حتى دهمهم عدو جديد من الغرب لا يقل تعصباً وهمجية عن خصمهم الطوراني الذي جاءهم من صحارى منغوليا وآسيا الوسطى ونعني بهذا العدو الجديد الصليبيين الذين جاؤوا بلادنا يحملون في قلوبهم البغض لاهلها وفي عقولهم افكاراً ومبادئ اكل الدهر عليها وشرب فكان لا بدّ من ان يشتبكوا في هذا الوسط الجديد في قتال مع اصحاب الافكار الجديدة كان انتهى بفشلهم واخلائهم البلاد التي عاشوا فيها اكثر من جيل فعادوا الى بلادهم يحملون مع البغض والتعصب الاعمى جراثيم افكار جديدة وعالم جديد ظلت تختمر وتنمو حتى ظهرت بعد عصرين او اكثر في صور مختلفة تتجلى فيها او في بعضها تلك الافكار والانظمة التي اخذها اجدادهم عن الشرق عامة والاسماعيليين خاصة .

الفصل الخامس

القرامطة

القرامطة هم عظم من عظام الاسماعيلية ولحم من لحمهم لا يختلفون عن غيرهم من فرق هذه الاخوية المنشتتة في جميع اطراف الخلافة العباسية الا بانهم كانوا يشتغلون بين العرب واخوانهم انباط العراق وسوريا وجزيرة العرب او بامور ثانوية قد يكون لها مساس باساليب الدعوة فقط لا بالمسائل الاساسية المبدئية فان صحّ هذا الظن يكون سبب هذا الاختلاف تباين الحقل الذي كانت تعمل فيه القرامطة ودرجة العمران بين سكان تلك البلاد ، كلهم او اكثرهم كما نعلم من الاعراب ، ولهذا يظهر لي ان القرامطة العرب كانوا اقل تطرفاً في المسائل الدينية والادبية من اسماعيلية الفرس وان بعض العادات الفارسية كالتزوج بالاخوات والقريبات ممن حرّم القرآن التزوج بهن لم يكن معروفاً عندهم كما لم تكن شائعة بينهم « ليلة الامام » وغير ذلك من المحرمات وافعال الفسق والتهتك التي كانوا يتهمونهم بها كذباً وبهتاناً مستندين في ذلك كما يظهر لي على تأويل فاسد لعبارة وردت في كتاب لابن الجوزي المؤرخ حيث قيل عنهم انه « لا يجوز لاحدهم ان يحجب امرأته عن اخوانه » فأوّل خصومهم كلمة « حجب » بمعنى منع او بما شاءت اهواؤهم من مترادفاتها . ويظهر لي ايضاً ان زعماء القرامطة الذين اسسوا هذا الفرع بين العرب والسريان لم يكونوا مطلعين على اغراض رؤساء الحركة السرية [1] اما لانهم

---

(١) يري M. de Goeje ان القرامطة لم يكونوا مطلعين على اعظم اسرار

لم يبلغوا الدرجة الاخيرة من التكريس او لانه لم يكن يسمح لهم بالوصول اليها — اذ لم يكن يصل اليها الا القليلون — على انه من المحقق اليوم ان قرامطة البحرين والعراق العربي لم يكونوا يختلفون عن سائر الاسماعيلية في المسائل الاساسية المبني عليها برنامجهم وانهم كانوا يتبعون في جميع حركاتهم وسكناتهم الاوامر التي كانت تصدر اليهم من امام الزمان ولهذا يجوز لنا ان نعد القرامطة فرعاً من فروع الشجرة الاسماعيلية الكبرى الذي نيط به نشر الدعوة الشيوعية بين العرب والنبط خاصة»

كان مركز هذا الفرع — وهو المكان الذي كان يقيم فيه داعيهم في اول الحركة — مدينة واسط بين الكوفة والبصرة والقرى المجاورة لها وكان اكثر سكان هذه البلاد خليطاً من العرب والنبط والسودان الذين كان اصحاب الاراضي الواسعة يجلبونهم من افريقيا لاعتمال اراضيهم واستغلالها على شروط تذكرنا بشروط الاشغال في الولايات الجنوبية من اميركا الشمالية قبل تحرير العبيد فيها، فلا عجب والحالة هذه اذا كان اكثر سكان تلك البلاد مستائين من حالتهم الاجتماعية وميالين الى كل دعوة من شأنها ان تخفف عنهم حملهم الثقيل وتدعو الى الرحمة والرأفة بهم وهذا سبب نجاح الدعوة القرمطية في تلك البلاد وتهافت الناس عليها اعتقاداً منهم ان « صاحب الزمان » ودعاته سوف يحررونهم من نير العبودية وظلم الدولة واصحاب الاملاك

انا لا نعلم بالتدقيق من اسس المركز المذكور ولا متى أسس

الاسماعيلية اي على تاويلهم رجوع محمد بن اسماعيل تاويلاً فلسفياً (انظر كتابه المذكور ص ١٦٥)

وشرع في العمل فيه الا انه يغلب على ظننا انه اسس قبل حمدان القرمطي الذي عرفت الدعوة باسمه او بالاصح ان بعض دعاة الاسماعيلية كانوا زاروا هذه البلاد قبل ان يزورها حماد الا انهم لم يتركوا فيها اثراً بيناً يدل على اقامتهم فيها مدة طويلة ولهذا لا مانع يمنعنا من ان نعد حماداً المذكور اول داع لهذا القطر واول منظم لشؤون المركز الاسماعيلي الجديد

ذكر المؤرخون ان حمدان — وقد كان قبلاً اكاراً بسيطاً يعتمل الارض لغيره — جاء تلك البلاد مبعوثاً من داع اكبر منه وانه بنى قرب الكوفة مركزاً جديداً للدعوة الاسماعيلية سماه « دار الهجرة » حيث كان يجتمع في اوقات معلومة كل من كان يدخل في دعوته من اهل القرى لاستماع مواعظه والنظر في احوال من قبل الدعوة الاقتصادية والاجتماعية ولتبليغهم ما كان حماد يتلقاه من « امام الزمان » واعوانه من الاوامر والاخبار ثم لاقامة بعض شعائر رمزية لم تكن معروفة ومستعملة بين الاسماعيلية الا في هذه القرى التي كان سكانها من النبط والعرب المستعربة، فلما رأى حماد اقبال الناس على دعوته ودخولهم في المذهب الجديد افواجاً رتب لهم نظاماً يضمن نجاح الحركة وسيرها سيراً حثيثاً ويكون لهم دستوراً يرجعون اليه عند الحاجة ، فكان من شروط هذا النظام ان يؤدي كل عضو من اعضاء المذهب الجديد ديناراً في كل سنة للامام المحجوب زعيم الاسماعيلية ثم ضريبة كانت تعرف عندهم « بالفطر » وهي درهم كان يؤديه جميع الاسماعيليين بدون استثناء وضريبة اخرى تعرف « بالهجرة » وهي دينار كان يؤديه كل بالغ وبالغة لينفق في محله على حاجات « دار الهجرة » فكانوا يؤدونها عن طيبة خاطر حتى اذا عجز احدهم عن تأديتها اداها عنه غيره راضياً مسروراً

ذكر احد المؤرخين الصغار[1] ان حماداً بعد ان بنى « دار الهجرة » ورتب امورها عرض على من احب ممن دخل في دعوته ان يؤدي ضريبة اخرى سماها « البلغة » وهي ضريبة خاصة كان يؤديها كل من اراد ان يشترك في « عشاء المحبة » (Agâpi) اي ان ياكل من « خبز الجنة » او كما سماه حماد نفسه « غذاء اهل الجنة » الذي كان ياتيه من امام الزمان تواً .

وزاد بعض الكتبة ان حماداً بعد ان وضع على اصحابه « البلغة » دعاهم ان يؤدوا للدار الهجرة خمس ما كانوا يملكون او يكتسبون فلبوا دعوته راضين ثم قدروا املاكهم ودفعوا عنها الخمس فرحين حتى كنت ترى المرأة تقدم للداعي خمس غزلها والفاعل خمس اجرته فكانت هذه الضريبة قسطاً يدفعه الشخص الى صندوق الاخوية كعضو فيها الا ان حماداً لم يكتف بهذه الضرائب بل امر اهل القرى التي دخلت في دينه ان يحملوا الى محل واحد كل ما يملكون ، فلما جمعوه جعله مشاعاً بين الاعضاء يتولى توزيعه رجل منهم ذو ثقة فكان يجمع ما كان يحضره الاعضاء من اثاث وحلي وثياب ومأكولات ومال ثم يوزعه على المحتاجين من القرامطة حتى لم يبق بينهم فقير فكنت ترى الرجال منهم يشتغلون برغبة ونشاط والنساء يحملن الى « بيت الجماعة » ما كن يكسبنه من المال بالغزل حتى ان الاولاد الصغار انفسهم كانوا يقدمون الى مدير البيت ما كانوا يأخذونه من الجعالة من اصحاب البساتين « التي كانوا يحرسونها في النهار و يطيرون الطير عن اشجارها و بقولها » حتى لم يعد احد يملك لنفسه الا « سيفه وسلاحه » .

---

(١) هو اخو محسن وحديثه مذكور في كتاب النويري . انظر B. de Sacy Chrestomathie arabe ج اول ص ١٨٢

هذا جل ما ذكره الكاتب المذكور عن النظام الجديد الذي سنه حماد القرمطي لاصحابه في العراق وقد اغفلنا ما عزاه الى زعيم القرامطة من الافعال والسنن المغايرة للآداب العمومية لاننا لم نتحقق صحتها . فلما اتم داعي العراق مهمته في واسط انتقل الى محل آخر يعرف بكلوزة بالقرب من بغداد فاقام فيه مدة طويلة يعمل على نشر الدعوة الاسماعيلية ويكاتب فرع خراسان الذي كان ارسله الى الكوفة و «صاحب الزمان» الذي كان يقيم في عسكر مكرم وحماد يراقب في كل هذا الوقت مجرى السياسة في عاصمة بني العباس ليستفيد من اغلاطها ويطبق عليها سير الحركة الاسماعيلية عامة وسير الاعمال في المركز الذي اسسه خاصة وقد كان يساعده في ادارة اعمال فرع العراق ويقوم بجميع مكاتباته مع «صاحب الزمان» والخلايا الباطنية الاخرى نسيبه (اخو امرأته) عبدان صاحب بعض كتب القرامطة المقدسة وعبدان هذا هو الذي عين زكرويه داعياً في العراق العربي وابا سعيد الجنَّابي في جنوب العجم والبحرين

اخذت دعوة القرامطة تنتشر من واسط الى سائر البلدان العربية المجاورة لها والبعيدة عنها حتى بلغت جنوب جزيرة العرب حيث تكونت خلية او نواة اسماعيلية قوية اصبحت تناوىء بعد قليل من الزمن عمال السلطة المركزية وتستدعي انتباه خلفاء بغداد ثم تكونت بمساعي ابي سعيد الجنَّابي خلية ثانية في الاحسا من بلاد البحرين صار لها بعد مدة قليلة شأن يذكر واصبحت من اهم مراكز الاسماعيلية على الاطلاق لان ابا سعيد المذكور عرف كيف يتقرب من عرب البحرين ويستميلهم الى دعوته التي وقعت بذورها في «ارض خصبة» فنمت سريعاً وانبتت نباتاً حسناً .

اخذت هذه الخلايا تنمو وتتسع حتى عمت اكثر البلاد العربية وسوريا والعراق وكانت كلها ترمي الى غرض واحد وتعمل تحت مراقبة دعاة محنكين مدربين كابي سعيد الجنّابي المذكور وذكرويه الدنداني وغيرهما ممن كانوا يستمدون قواهم الروحية من دعاة اعظم منهم كصاحب الناقة (ابي عبدالله محمد) واخيه صاحب الخال (ابي عبدالله احمد) فلا عجب اذا عظم امر هذه الدعوة واقبل الناس عليها من كل جانب حتى من عاصمة الخلافة حيث دخل فيها جماعة كبيرة من اصحاب الطبقات العالية كانت القرامطة تعتمد عليهم عند الملمات وكانوا لهم عيوناً على حكومة بغداد التي لم تكن تعرف من امر هؤلاء الخوارج الا الشيء القليل فلم تكن تشعر بالخطر الذي اخذ يحدق بها ويتهدد كيانها الى ان دخلت سنة ٢٧٨ (= ٨٩١) فخرجت الاسماعيلية فيها من خفائها واخذت تستعد لمهاجمة عدوها الاكبر ثم جاءت سنة ٢٨٤ (= ٨٩٧) وهي السنة التي حاولت فيها لاول مرة جماعة من القرامطة ان تحقق برنامجها الاشتراكي بالفعل فلم توفق الى ذلك فاضطرت ان ترجيء عملها الى فرصة اخرى فأخذت تراقب خصمها وتبث عليه العيون ثم تخرج عليه كلما سنحت لها فرصة (سنة ٢٨٧، ٩٠٠ و٢٨٨ ٨٩١ و٢٨٩، ٨٩٢) وتقاوم عماله في الاقاليم البعيدة عن العاصمة لكنها لم تنجح في معركة من المعارك لان عدوها كان لم يزل اقوى منها وكان يترأسه صنديد من صناديد بني العباس النادرين في هذه الاسرة ولا سيما في العصر المذكور وهو الخليفة المعتضد الذي بقي يقاوم الحركة الاسماعيلية ويرد شرها عن دولة اجداده الى ان توفي سنة ٢٨٩=٨٩٢ فخلفه رجل ضعيف الهمة والارادة غير موفق في اعماله فلم يلبث زعماء الحركة الشيوعية ان استفادوا من ضعفه فأعادوا الكرة على خصمهم وانصبوا عليه من كل جانب حتى لم يعد

في وسع السلطة المركزية ان تراقب حركات الاسماعيلية في كل الجهات وتخمد ثوراتها في الاقاليم البعيدة فصارت هذه الاقاليم تنفصل عن خلفاء بغداد وتؤلف كتلاً مستقلة

نحن لا نرى من الضرورة ان نأتي هنا على ذكر الثورات العديدة التي قام بها القرامطة في السنين المذكورة ولا ان نتوغل في تاريخ الدول التي انسلخت عن الخلافة العباسية وانشأت امارات او ممالك مستقلة لان هذا ليس من شأننا الآن الا انه لا بدّ — للاسباب التي بيناها سابقاً — من ذكر شيء من تاريخ احدى تلك الامارات وهي الامارة التي قامت على شواطئ خليج العجم وعرفت بامارة او الاصح بجمهورية القرامطة ·

ذكرنا ان من الدعاة الذين كانوا يعملون في العراق تحت مراقبة حماد القرمطي ابا سعيد الجنابي من قرية جناب في جنوب بلاد العجم [١] وان حماداً ارسله داعياً الى البحرين ونزيد على ذلك الآن ان ابا سعيد لم يكد يطأ ارض البحرين و يشرع في عمله حتى اخذ يلتف حوله سكان تلك المقاطعة على اختلاف طبقاتهم وعناصرهم من اهل المدن الناقمين من الدولة العباسية ونظامها السياسي والاجتماعي الذي لم يخلق لهم ولم يخلقوا له ومن اعراب البادية الذين عرف عنهم من يوم ظهر الاسلام انهم كانوا يكرهونه و يكرهون شعائره واحكامه ولاسيما ما له علاقة بالزكاة والاعشار التي لم يتعودها البدو واظنهم لن يتعودوها [٢] فلا عجب والحالة هذه اذا رأيناهم يلبون دعوة ابي سعيد

---

(١) نرجح ان ابا سعيد كان من طبقة العمال فقد ذكر عنه انه كان يشتغل بترقيع اكياس الطحين باجرة بخسة جداً

(٢) يعلم القارئ ان سكان البحرين كانوا في طليعة اهل الردة ومن خرج على الاسلام بعد وفاة النبي (انظر مقالة الاستاذ بارتولد عن مسيلمة الكذاب (ستظهر حديثاً في مجلة « الرابطة الشرقية » في مصر)

و يؤ يدونه في بلادهم وقد دعاهم الى ترك الشعائر الدينية واكثر حدود الدين التي لم يألفوها الى ذلك الوقت ثم الى مؤاخاة الناس على اختلاف اجناسهم ودياناتهم و وعدهم بالسعادة على هذه الارض وفي هذه الدنيا لا في عالم آخر يكادون لا يتصورونه ولا يعرفون عنه شيئاً ، فكان ممن قبل دعوة ابي سعيد واخذ يشد ازره و يساعده في نشر مبادئه في البحرين حسن بن سنبر [١] وكان رجلاً وجيهاً محترماً في قبيلته وذا نفوذ كبير في البحرين ، فلما دخل في دين ابي سعيد و زوجه بنته قويت منزلة ابي سعيد في تلك البلاد و كثر اقبال الناس عليه فلم تمض على اقامته هناك مدة طويلة حتى اصبح ذلك الاقليم في يده ولم يبق في طاعة الخليفة الا عاصمة البلاد و بعض القرى المجاورة لها، لكن ابا سعيد تمكن بعد زمن قصير من الاستيلاء عليها (سنة ٢٨٧—٩٠٠) وضمها الى جمهوريته الشيوعية ثم اخذ يزحف منها على البصرة، فبلغ هذا الخبر الخليفة المعتضد فقلق له فامر ان يمدوا عامله هناك ، وهو يومئذ عباس الغنوي ، بالمال والرجال فامدوه بعشرة آلاف رجل فزحف على رأسهم لملاقاة القرامطة الذين كان يقودهم ابو سعيد نفسه ، فلما التقى الجمعان قرب البصرة انكسر جيش الخليفة واسر قائده وتبددت عساكره تطلب النجاة في الفلاة فلم ينج منهم الا القليل اما من وقع في الاسر فانه قتل بامر من ابي سعيد انتقاماً للقرامطة الذين قتلوا قبل هذه الوقعة في بغداد بأمر من خليفتها [٢] ولم يبق ابو سعيد الا على قائد جيش الخليفة عباس الغنوي المذكور فانه امر بالمحافظة عليه ثم اطلق سراحه وارسله الى امير المؤمنين ليبلغه ما كان من امر جيشه و بأس القرامطة وليسلمه

---

(١) وهو الذي عناه ابو العلاء المعري في بيته :

عكس الانام بحكمة من ربه   فتحكم الهجري فيه وسنبر

(٢) انظر التاريخ الكامل لابن الاثير ج ٥ ص١٨٢و١٨٩ (من الطبعة المصرية)

الكتاب الآتي [1] الوحيد من نوعه . قال ابو سعيد في كتابه هذا الى امير المؤمنين وخليفة المسلمين :

« ما هذا ؟ اتخرق هيبتك وتقتل رجالك وتطمع اعداءك في نفسك بانفاذ الجيوش اليّ وانما انا رجل في فلاة ولا زرع عندي ولا ضرع ولا لي بلد وقد رضيت بخشونة العيش والامن على المهجة والعز باطراف الرماح وانظر فاني ما اغتصبتك بلداً كان في يدك ولا ازلت سلطانك عن عمل جليل ومع هذا فوالله لو نفذت لي جيشك كله ما جاز ان تظفر بي ولا تنالني لاني رجل نشأت في هذا القشف فتعودته انا ورجالي فلا مشقة علينا فيه ونحن في اوطاننا مستريحون وانت تنفذ جيشك من الحرير والثلج والرياحين والند ثم يجيئون من مسافة بعيدة وطريق شاق فيصلون الينا وقد قتلهم السفر قبل قتالنا وانما غرضهم ان يبلو عذراً في قتالنا ومواقعتنا ساعة ثم يهربون فان حقوا مع ما قد لحقهم من وعثاء السفر وشدة الجهد كان اكبر اعواني عليهم فما هو الا ان حققت عليهم حتى ينهزموا واكثر ما يقدرون عليه ان يجيئوا فيستريحوا ثم تكون عدتهم كثيرة وبصيرتهم قوية فحينئذ لا يكون لي بهم قبل فانهزم فلا يقدر جيشك ان يتبعني الا مسافة قريبة فما هو ان ابعد عشرين فرسخاً او ثلاثين واجول في الصحراء شهراً او شهرين ثم اكبسهم على غرة حتى اقتل جميعهم وان لم يتم لي هذا وكانوا متحوزين فما يمكنهم ان يطوفوا حولي وخلفي في البراري ولا يتبعني الطلب في البوادي ثم لا يحملهم البلد في المقام ولا الزاد ان كانوا كثيرين فلا بد ان ينصرف الجمهور ويبقى الاقل منهم قتلى سيوفي اول يوم نلتقي فيه هذا ان سلموا من وباء هذه الناحية ورداءة مائها

(١) انظر « تجارب الامم » لابن مسكويه ج ٧ ص٥ (طبع E. J. W. Gibb Memorial)

وهوائها الذي لا طاقة لهم به لانهم نشأوا في ضده وربوا مع غيره ولاعادة لاجسامهم بالصبر عليه ففكر في هذا ونحوه وانظر هل يفي تعبك وتغريرك بعسكرك وجيشك وانفاقك الاموال وتجهيزك الرجال وتكلفك هذه الاخطار وتحملك المشاق بطالبي وانا مع هذا خالي الذرع منها سليم النفس والاصحاب جميعاً واما هيبتك فتخرق واما الاطراف فتنتقض واما الملوك من الاعداء فتتجاسر كما جرى عليك من هذا شيء ثم لا تظفر من بلدي بطائل ولا تصل مني الى حال ولا مال فان اخترت بعد هذا محاربتي فاستخر الله تعالى واقدم على بصيرة وانفذ من شئت واضطرب كيف احببت وان امسكت فذلك اليك »

فلما قرأ الخليفة كتاب ابي سعيد امتعض جداً واراد ان يزحف عليه بنفسه الا ان حالة الخلافة في ذلك الوقت وعلى الاخص حالة الجيش الخليفي وبيت المال اضطرته الى قبول نصيحة خصمه فتركه وشأنه ، وهذا كل ما كان يرجوه ابو سعيد فانه انتهز هذه الفرصة النادرة واستولى على مدينة هجر عاصمة البحرين بعد حصار طويل ثم استولى على غيرها من البلاد والاراضي التي كانت لم تزل تحت سلطة الخليفة او شيوخ وامراء مستقلين حتى صار كل اقليم البحرين في يده (سنة ٢٩٠—٩٠٣) لا يزاحمه فيه مزاحم، لكنه لم يكتف بذلك على اخذ يستعد للاستيلاء على البلاد المجاورة للبحرين وبث دعوته فيها فزحف الى اليمامة وضمها الى بلاده ثم اتى عمان فاستولى على قسم كبير منها ومن الجزائر التابعة لها ولو لا ان يتوفاه الله (قتل في الحمام سنة ٩١٤) لضمها كلها الى جمهوريته بل كان ضم غيرها من البلاد العربية والعراق والف منها جمهورية كبيرة مبنية على اسس اشتراكية جديدة ·

توفي ابو سعيد عن ابناء كثيرين لم يشتهر منهم بعلو الهمة و بعد النظر

والثبات في القتال الا ابو طاهر سليمان وهو الذي خلف اباه في وظيفته واخذ يعمل على تحقيق امانيه فلم يكد يتولى الحكم وقيادة الجيش القرمطي حتى اخذ يزحف تارة على البصرة و بغداد وطورا الى الغرب اي الى الحجاز والحرمين وهو في كل غزواته موفق ومعقود له الظفر حتى صار الخليفة يخشى بأسه وصارت العاصمة وسكانها يرتعدون عند ذكر اسمه او اسم القرامطة فاصبحت كلمة « قرمطي » مرادفة لكلمة جندي مخيف لا يقهر يخوفون به اولاد بغداد الصغار . وقد ساعد على انتشار هذا الخوف ظهور قرامطة الشام وقطعهم الطرق على الناس ونهبهم السابلة الى غير ذلك من النكبات التي اصابت الخلافة العباسية في الربع الاول من العصر العاشر فاحرجت مركزها وجعلت سقوطها على قاب قوسين او اقرب وان اعظم نكبة اصابتها في هذا الوقت وكادت تقضي على هيبتها في البلاد ونفوذها الادبي هي ولا شك دخول ابي طاهر مكة عنوة (في ١٢ كانون الثاني من سنة ٩٣٠) وسلبه بيتها المقدس وقتله حجاجها وسكانها الى غير ذلك من الفظائع التي اقترفها هو وجيوشه في بيت الله والمدينة مما لا بد من ذكر بعضه هنا للوقوف على قسم من برنامج القرامطة له علاقة بالدين والادب .

يظهر ان الغرض من الزحف على مكة والاستيلاء عليها كان اولاً الانتقام لاحد دعاة القرامطة الكبار وهو زكرويه ولجنوده الذين اسرهم امير الامراء سنه ٩٢٩ وامر الخليفة بقتلهم وثانياً الحط من قدر خليفة بغداد وهيبته في عيون المسلمين وثالثاً اشغال الخليفة وجيشه عما كان يجري في هذا الوقت من الحوادث المهمة في افريقيا الشمالية حيث بدأ « امام الزمان » وزعيم الاسماعيلية الاكبر عبيد الله يمهد السبيل لنزع تلك البلاد من ايدي عمال خلفاء بغداد

او خلفائهم وتأسيس دولة مستقلة عرفت بعيد ذلك بالدولة الفاطمية ، فان صح ذلك كان الباعث على هذه الغزوة ليس حب السلب والقتل فقط بل اسباب سياسية وحربية مهمة تخفف ولو قليلاً من ذنب ابي طاهر واصحابه لما فعلوه في البيت الحرام من الفظائع ومع ذلك ومهما كانت اسباب تلك الغزوة الحقيقية فان ابا طاهر لم يكن يدع فرصة تسنح او سنة تمرّ الا واستفاد منها فكان يتعرض للحجاج في طريقهم الى الحرمين او منهما ويحاول ان يمنعهم من تأدية الحج واقامة شعائره التي كان يحسبها من شعائر الجاهلية ومن قبيل عبادة الاصنام حتى كاد يقضي على الحج وشعائره[1] وينسي المسلمين طريقهم الى الحرمين الا في ما ندر من السنين وكان يقتصر في هذه الغزوات على نهب الحجاج ومنعهم من زيارة البيت الحرام الى ان دخلت سنة ٣١٢ · ٩٢٤ وهي السنة التي نكب فيها الحجاج اعظم نكبة من يوم ابتدأ العرب والمسلمون يحجون الى الكعبة

ذكر مؤرخو العرب ان عدد الذين قتلهم القرامطة في تلك السنة من حجاج المسلمين وفي بيت الله وشوارع مكة وضواحيها بلغ ثلاثة آلاف ما عدا الذين ماتوا من الجوع في الفلاة والذين اسرهم العدو وبينهم جماعة كبيرة من اهل العلم واصحاب المقامات العالية كالازهري (توفي ٣٧٠) وعبدالله بن حمدان ابي الامير سيف الدولة وغيرهم وذكروا ايضاً ان ما غنمه القرامطة في تلك الغزوة من الاموال فقط بلغ بضعة ملايين من الدنانير ارسل قسم منها الى « الامام » وانفق الباقي على حاجات « المؤمنين » اي القرامطة ·

بلغت اخبار هذه النكبة العظيمة وتفاصيلها الفظيعة عاصمة الخلافة وسائر

---

(١) « ومنها ان في سنة اربع عشرة وثلثمائة وفي سنة خمس عشرة وثلثمائة وفي سنة ٣١٦ لم يحج الي مكة من العراق على ما ذكر العقيقي ··· للخوف من القرمطي » (انظر اخبار مكة طبع Wüstenfeld ج ٢ ص ٢٤٥)

الاقطار الاسلامية فضج الناس لها واخذوا يهجرون العاصمة او ينتقلون الى الشاطئ الآخر ويعتصمون بجدران بيوتهم والعدو لا يزال بعيداً عنهم

حاول ابن الفرات وزير الخليفة يومئذ ان يخفف من الم المصاب ويسكن روع سكان العاصمة ويتلافى الخطر الذي اخذ يهدد الاسلام وعاصمته بالطرق الدبلوماتية القديمة اي بالتهديد تارة وبالوعود والهدايا مرة اخري فلم يوفق الي ذلك لان هذه الوسائل لم تعد تجدي نفعاً ولم يكن طاهر لينخدع بها لانه كان واقفاً بواسطة اعوانه في بغداد على حالة الدولة الحقيقية وقوة خلفاء بغداد المادية والادبية فصار يطمع بتوسيع املاكه وضم البلاد العربية كلها الى جمهوريته الصغيرة ولهذا طلب الي الوزير المذكور ان يتنازل له باسم الخليفة عن البصرة والاهواز ولما لم يجب الى طلبه زحف على الكوفة واحتلها وقتل اكثر سكانها ودنس مسجدها الاكبر بان حوله الى اصطبل لخيله ثم اخذ يفكر في الزحف على العاصمة نفسها لكنه لم يقدم على ذلك لاسباب نجهلها فخافه الناس وبطل الحج بضع سنين

اما حكومة بغداد فانها كانت عاجزة عن مقاومة القرامطة بالقوة المسلحة فكانت تكتفي بالقبض على بعض اشخاص ينتمون اليهم او هي تظنهم منهم فتوقع بهم او بهدم مسجد[1] من مساجد بغداد كان يجتمع فيه بعض القرامطة المتكتمين فقد ذكر ابن الجوزي انه كان للقرامطة «خواتيم من طين ابيض يختمها لهم البكمكي[2] وعليها «محمد بن اسماعيل الامام المهدي ولي الله»[3] فكانت

(١) كان يعرف بمسجد براثا «حيث كانت تجتمع الروافض فتشتم الصحابة»
(٢) هو رئيس الروافض وكان يدعو الى مذهب القرامطة
(٣) انظر المتن في تأليف M. de Goeje المذكور ص ٢١٦

حكومة بغداد تعرفهم بهذه الخواتيم فتقبض عليهم وتقتص منهم حين كانت تعجز عن محاربة اخوانهم خارج اسوار العاصمة . نعم انها جربت ان تجرد عليهم جنود اذربيجان تحت رئاسة الامير يوسف ابن الساج عامل الخليفة هناك الا ان هذا العمل لم يؤد الى نتيجة حسنة او الاصح كاد يؤدي الى نتائج سيئة وذلك لانه كان للعامل المذكور ضلع مع القرامطة فكان يطلعهم على اسرار حكومة بغداد وحركات جيشها ، لانه كان ينتظر قرب سقوط الدولة العباسية او يعمل مع غيره على ذلك راجياً ان يقيم على انقاضها دولة مستقلة في اذربيجان يجعلها ارثاً في ولده ، وهذا ما كان يحلم به قبله رجل آخر من اسرته يدعى محمداً ، هذا اذا صحت وشاية كاتب الامير يوسف ، محمد بن خلق النيراماني ، التي ادلى بها الى نصر حاجب الخليفة وقد ذكر فيها « ان يوسف كان يستر عنه (عن كاتبه) مذهبه في الدين وانه لما سار الى واسط أنس به وانبسط اليه فكشف له انه يتدين بان لا طاعة (للخليفة) المقتدر عليه ولا لبني العباس على الناس طاعة وان الامام المنتظر هو العلوي الذي بالقيروان وان ابا طاهر الهجري صاحب ذلك الامام وانه قد صح عنده انه يتدين بدين القرامطة .. وانه (اي يوسف) يرى انتقاص المقتدر وسائر ولد العباس الغاصبين اهل الحق فرضاً لله عزوجل عليه وان طاعته طاغية الروم اصلح من طاعته للخليفة »[1]

فان صحت هذه الوشاية نتج عنها انه لم يبق عند بني العباس رجال مخلصون يعتمدون عليهم عند الحاجة وان اقرب الناس اليهم كوزرائهم وحجابهم وعمالهم على البلاد وامراء جنودهم اصبحوا يميلون الى خصومهم ويتجسسون لهم ويدسون

(١) التاليف المذكور ص ٩١

لدولتهم الدسائس او على الاقل صار يرتاب في اخلاصهم لولي نعمهم وللدولة التي اقسموا لها المحبة والاخلاص وابعد من ذلك في الدلالة على سوء الحال ان الداء لم يقتصر على الطبقة العالية بل تناول سائر الطبقات بل العائلات والافراد حتى كنت ترى في العائلة الواحدة نزعات سياسية واجتماعية متباينة كانت تفرق بين الزوج والزوج والابن وابيه والاخ واخيه والصديق وصديقه « فصار الناس فيهم (في القرامطة) فريقين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من بطشهم ومن سالمهم نسب الى شركهم في شركهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين »[1]
وها نحن موردون من تاريخ ابن الاثير حكاية وحيدة من نوعها تجلت فيها روح ذلك العصر ودرجة انحلال الهيئة الاجتماعية الادبي وتأثير الحركة الاسماعيلية على عقول الناس وحياتهم الاجتماعية وخلاصة هذه الواقعة ان شاباً ممن التحق بالاسماعيلية واشترك في غزوة ابي طاهر التي انتهت كما ذكرنا بقتل بعض الحجاج وسبي البعض الآخر رأى بين السبايا اللواتي اخذهن القرامطة امرأة فتفرس فيها فاذا هي امه فسألها عن حالها ودينها فلما عرف انها لا تزال مسلمة على مذهب اهل السنة والجماعة اعرض عنها وابى ان يساعدها ثم لما عرف انها حصلت على رخصة من زعيم القرامطة للرجوع الى بناتها اللواتي بقين وحدهن في بغداد لحقها وضربها بالسيف . قالت « فجرحني ومنعه القوم وساروا بي الى القوم الذي سماه لهم صاحبهم وتركوني وجئت الى هاهنا قالت ولما قدم الامير بالقرامطة وبالاساري رأيت ابني فيهم على جمل عليه برنس وهو يبكي فقلت له لا خفف الله عنك ولا خلصك »[2]

---

(١) انظر تاريخ آل سلجوق المذكور ص ٦٣
(٢) ج ٧ ص ٣٦٢ (من الطبعة الاوروبية)

فهل من بغض اشد من هذا البغض،وهل ذكر التاريخ الاسلامي عداوة اشد من هذه العداوة ، بل هل مر تاريخ الاسلام بدور بلغ فيه التفكك الاجتماعي والتنافر بين طبقات الناس هذا المبلغ؟ و والله ان امة انقسم ابناؤها قسمين اقسم كل منهما ان يموت او يقهر عدوه لا بد ان يؤول امرها الى الزوال او ان يتغلب فريق منها على فريق آخر فيفنيه او يبتلعه،وو يل يومئذ للمغلوب في هذه الحرب المبدئية التي لا تعرف رحمة ولا شفقة .

اخذ الفريقان يستعدان للنزال الاخير ويهيئان له اسبابه فلما حان الوقت وظن كل منهما انه هو الاقوى وان الظفر معقود له ، اشتبكا في حروب عديدة كانت حتى سنة ٣١٢—٩٢٤ سجالاً بينهما ثم اخذ الحظ يخون جيوش الخليفة و يبتسم للقرامطة فاستولوا سنة ٣١٥—٩٢٧ مرة اخرى على البصرة ونهبوها ثم كسروا عساكر يوسف بن ساج عامل اذربيجان الذي ارسله الخليفة مدداً لعامل المدينة المذكورة و بددوا شملهم وكذلك فعلوا بسائر الجيوش التي كان يرسلها خليفة بغداد ضد القرامطة حتى ضج الناس وشملهم الرعب فصاروا يختلقون الاحاديث الغريبة عن جيش ابي طاهر وعدده و يعتقدون ان نجاحه في ساحات الحرب يرجع الى مخاريق واعمال سحرية يقوم بها هو واصحابه في معمعان القتال وان قوى غير بشرية تساعده الى غير ذلك من الترهات التي كان يمليها عليهم الخوف ، في حين ان انتصار القرامطة في اكثر المواقع لم يكن الا نتيجة اجتماع كلمتهم وطاعتهم العمياء لزعيمهم وثقتهم التامة به وثباتهم في القتال المتوقف على اعتقادهم الراسخ في صحة ما يقاتلون عليه ، فضلاً عن انهم كانوا اشد بأساً واثبت جناناً واقوى على احتمال مشقات الحرب من جنود الخليفة الذين كان اكثرهم من سكان المدن المعتادين الراحة « والثلج والرياحين والنديم »

كما قال رئيس القرامطة في رسالته السابقة الى الخليفة المقتدر . ذكر ابن الجوزي[١] «ان احدهم سأل يوماً قرمطياً عن اسباب انتصارات اصحابه مع قلة عدد جيوشهم فأجابه القرمطي « لانا نطلب نجاتنا في الثبات وانتم تطلبونه في الهزب »[٢] ولعل هناك اسباباً اخري لاحاجة هنا الى البحث عنها نذكر منها جواز خيانة رئيس الجيش الخليفي وهو يوسف بن ساج المذكور ان صح ما ذكره عنه كاتبه .

كان لانتصار القرامطة الاخير وسقوط البصرة في ايديهم ضجة كبيرة في بغداد وتأثير قوي على سكانها الذين اخذوا يفرون[٣] منها الى ما جاورها من البلاد لان الطريق اليها اصبحت مفتوحة ولانه لم يعد لدي الخليفة جيش يعتمد عليه ويردّ به غارات القرامطة ان هم ارادوا ان يفتحوا دار الخلافة او يحتلوها احتلالاً دائماً، الا ان ابا طاهر لم يكن يفكر — لاسباب لا نعلمها — في الزحف مع جيشه الصغير على عاصمة الخلافة فلوى راجعاً الى بلاده مكتفياً بما اصابه من الغنائم وبما وضعه من الضرائب على المدن والقبائل التي كان يمر بها في طريقه الى عاصمته البحرين فلما ترك البصرة ارسل الى مونس قائد جيش الخليفة قصيدة تهكمية يقول فيها :

قولوا لمونسكم بالراح كن آنساً   واستتبع الراح سرنايا ومزمارا

---

(١) انظر ملحق كتاب M. de Goeje ص ٢١٥

(٢) « ولما علم المقتدر بعدد عسكره وعسكر القرامطة قال : لعن الله نيفاً وثمانين الفاً يعجزون عن الفين وسبعماية » (ابن الاثير ٨ ص ١٢٧)

(٣) «وورد الخبر الى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفاً شديداً وعزموا على الهرب الي حلوان وهمذان ودخل المنهزمون بغداد واكثرهم رجالة حفاة عراة» وجاء في موضع آخر : « ولما أشرفوا (القرامطة) على عسكر الخليفة هرب منهم خلق كثير الى بغداد من غير ان يلقوهم» (الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ١٢٥)

وقد تمثلت عن شوق تقاذف بي بيتاً من الشعر للماضين قد سارا
نزوركم لا نؤاخذكم (كذا) بجفوتكم ان الكريم اذا لم يستزر زارا
ولا نكون كانتم (كذا) في تخلفكم من عالج الشوق لم يستبعد الدارا

لم يكد سليمان ابو طاهر يدخل عاصمة بلاده ويستريح حتى اخذ يستعد بامر، كما يظهر لنا، من « صاحب الزمان » لغزوة بعيدة لم يقدم عليها قبله احد ممن دخل في دين النبي العربي فلم يطلع على عزمه وغايته احداً الى ان تمت معدات السفر فترك عاصمة بلاده وخرج يريد بيت الله الحرام ليضرب الاسلام في صميم قلبه و يقضي عليه في منشأه ان استطاع الى ذلك سبيلاً ولعل قصده من هذه الغارة كان ان يقضي ايضاً على هيبة خلفاء بغداد ونفوذهم السياسي والادبي في دار الاسلام .

دخلت سنة ٣١٧ — ٩٣٠ وليس فيها ما يدعو الى القلق فاخذت الوف الحجاج ترد الى بيت الله آمنة لا هم لهم الا قضاء شعائر الحج والعود الى بلادهم سالمين مطمئنين لكنهم لم يكادوا يتمون هذه الشعائر وبعضهم لم يبدأ بها حتى جاءتهم الاخبار ان ابا طاهر زاحف على مكة في جيش مؤلف من ٦٠٠ فارس و ٩٠٠ راجل ولم يمض على شيوع هذه الاخبار بضعة ايام الا وكان ابو طاهر واصحابه على ابواب مكة ، واميرها[1] وجماعة كبيرة من اعيانها يستعطفونه ويحاولون ان يقنعوه بالرجوع الى بلاده مزوداً بالمال والهدايا الثمينة فلم يوفقوا الى ذلك فدخل ابو طاهر واصحابه مكة واخذوا يقتلون اهاليها ومن كان فيها من الحجاج من رجال ونساء « وهم متعلقون بالكعبة وردم بهم زمزم وفرش بهم المسجد وما يليه وقتل في سكك مكة وشعابها من اهل خراسان والمغاربة وغيرهم زهاء

(١) وهو محمد بن اسماعيل المعروف بابن مخلب (او محلب او محارب)

ثلاثين الفاً وسبى من النساء والصبيان مثل ذلك واقام بمكة ستة ايام ولم يقف احد تلك السنة بعرفة ولا وفى نسكاً » وكان اشد الناس قساوة واقلهم رحمة ابو طاهر نفسه فكان ينتقل من مكان الى مكان آخر في الكعبة والمدينة ومن جماعة الى جماعة اخرى وهو يدعو اصحابه، وقد ثملوا بنشوة الفتح وما غنموه من المال والحلي، ان اجهزوا «على الكفار وعبدة الاحجار » ودكوا اركان الكعبة واقلعوا الحجر الاسود حتى لا يبقى منه اثر [١]

حدث احد الذين كانوا في الكعبة يوم دخلها ابو طاهر يصف حالة مكة والحرم وما اصاب الحجيج في تلك السنة قال : « رأيت رجلاً قد صعد البيت ليقلع الميزاب ولم يقلع ثم سكنت النائرة [٢] بعد يوم او يومين قال فكنت اطوف بالبيت واذا بقرمطي سكران وقد دخل المسجد بفرسه فصفر له حتى بال في الطواف وجرد سيفه ليضرب به من لحق وكنت قريباً منه فعدوت فلحق رجلاً كان الى جنبي فضربه فقتله ثم وقف وصاح يا حمير ! الستم قلتم في هذا البيت من دخله كان آمناً وكيف يكون آمناً وقد قتلته الساعة بحضرتكم » [٣]

وحدث آخر ممن اسرهم القرامطة قال « تملكني رجل منهم كان يسومني سوء العذاب ويستخدمني اعظم خدمة ويعربد علي اذا سكر فسكر ليلة واقامني حياله وقال: ما تقول في محمد هذا صاحبكم؟ قلت: لا ادري ولكن ما تعلمني ايها المؤمن اقوله فقال: كان رجلاً سائساً فما تقول في ابي بكر؟ فقلت: لا ادري فقال:

---

(١) « وطلع ابو طاهر الى باب الكعبة وقلع بابها الشريف وصار يقول :
انا بالله وبالله انا يخلق الخلق وافنيهم انا

(٢) النائرة هي العداوة والشحناء

(٣) انظر Chroniken d. Gtadt Mekka III 162
اخبار مكة (مجموعة اخبار نشرها المستشرق Wüstenfeld) ج ٣ ص ١٦٢

كان ضعيفاً مهيناً فما تقول في عمر ؟ قلت لا ادري قال كان والله فظاً غليظاً فما تقول في عثمان؟ قلت لا ادري قال كان جاهلاً احمق فما تقول في علي؟ قلت لا ادري قال كان ممخرقاً ... فاذا القوم زنادقة لا يفكرون في احد من الصحابة»[١]

وحدث ابن الجزار (+ ٣٩٥) عن رجل ثقة ان « احد اصحاب ابي طاهر دخل الحرم وانا بين القتلى جريح مطروح لا ابدي حراكاً الى ان داسني بحافر فرسه فلما رآني تحركت تقدم الي وسألني اتعرف سورة الفيل ؟ فقلت نعم اعرفها فقال اين الابابيل؟ فقلت حيث شاء ربك فصاح بي ايها الحمير انكم تسجدون للحجارة وتطوفون حولها وترقصون اكراماً لها وتمسحون وجوهكم بها وفقهاؤكم الذين تتفقهون عليهم لا يملونكم شيئاً خيراً من هذا فلم يبق لمحو هذه الخرافات الا هذه السيوف والسلام »[٢]

اقام ابو طاهر واصحابه في مكة اثني عشر يوماً وهم يعملون السيوف باهاليها ويحجاج بيت الله وينهبون اموالهم ويأتون من الافعال ما تقشعر له الابدان وقد اخذوا كل ما وصلت اليه ايديهم من الحلى الثمينة والتحف القديمة التي كانت معلقة على جدران الكعبة او محفوظة في خزائنها كالدرة الثمينة ذات الاربعة عشر مثقالاً وقرطي مريم وقرن ابراهيم وعصا موسى المرصعة بالذهب الخالص والاحجار الثمينة الى غير ذلك من المثمنات النادرة والاواني الغالية التي نقلها ابو طاهر الى عاصمة بلاده او كسرها ثم ذراها في الهواء حتى لا يبقى منها اثر، وقد بالغ احد الناقلين في مقدار ما اخذه معه الى عاصمة البحرين فقال انه سخر خمسين جملاً لنقل ما نهبه من الكعبة فقط ومئة الف

(١) M. de Goeje كتابه المذكور ص ٢٣٠

(٢) الكتاب نفسه (نظراً لعدم وجود الاصل بين يدينا عربنا العبارات المذكورة من الترجمة الفرنساوية)

جمل لما غنمهٔ في المدينة وضواحيها ونقل السبايا اللاتي بلغ عددهن مقداراً كبيراً الا ان اكثرهن عاد الى مكة او بلادهن البعيدة بمساعدة بني هذيل الذين كمنوا للقرامطة في الطريق واضطروهم الى اخلاء سبيل اكثر السبايا .

كان في جملة ما نهبه القرامطة في مكة الحجر الاسود المعروف وهو الحجر الذي كانت ولا تزال الحجاج تطوف حوله وتتبرك به فبقي هذا الحجر في الاحسا ملقىً في احدى زوايا المدينة ومهجوراً الى سنة ٣٣٩ — ٩٥٠ حين رده القرامطة بامر من المنصور احد الخلفاء الفاطميين (٩٤٩—٩٥٣) الذين كانت القرامطة تأتمر بامرهم في بادئ الامر كما سنرى بعيد ذلك .

خرج ابو طاهر وجماعته من مكة وهم ينشدون :

فلو كان هذا البيت لله ربنا لصبّ علينا النار من فوقنا صبا
لانا حججنا حجة جاهلية محللة لم تبق شرقا ولا غربا
وانا تركنا بين زمزم والصفا جنائز لا تبغي سوى ربها ربا

كان ينتظر ان يكون لهذه المصيبة العظمى التي اصابت الاسلام [1] وقع شديد على جميع المسلمين وخليفتهم في بغداد وتكون من وراء ذلك حركة طيبة تؤدي الى جمع قوى المسلمين المادية والروحية ووضع حد لغزوات القرامطة وفظائعهم وتهكمهم على الدين واهله ، ولكن انّى ذلك « ولم يبق للخلفاء بني العباس في هذا الوقت الا الاسم » ولم يبق من عزهم السابق الا الالقاب الطويلة العريضة ؟

خليفة مات لم يأسف له احد وقام آخر لم يفرح به احد

---

(١) « وتلك مصيبة ما اصيب الاسلام بمثلها » انظر مجموعة Chron. d. Stadt Mecca ج ٣ ص م ١٦

فمرّ ذاك ومرّ الشؤم يتبعه   وقام ذا فقام النحس والنكد

وقال آخر :

خليفة في قفص   بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له   كما تقول الببغا

فالسلطة الحقيقية في هذا العصر كانت في الحقيقة في ايدي امراء الجيش واكثرهم من الاتراك[1] ثم في ايدي اصحاب الدواوين والوظائف العالية (burocratie) واكثرهم من الفرس وغير العرب الذين لم تكن تهمهم الا مصالح دواوينهم او منافعهم الشخصية ، ومن شذ عن هذه القاعدة، التي كادت تكون عامة ، كرئيس الحكومة الوزير العاقل الفاضل علي بن عيسى ، كان عاجزاً عن بث روح جديدة في جسم الدولة المريض وحفظها من الانحلال السريع فكأنه هو ايضاً كان يشعر بدنو اجل دولة المنصور فلم تكن له قدرة على تنجيتها او رغبة في توثيق عراها ، ولهذا لم تحدث واقعة مكة في بغداد الا ضجيجاً لم يخف امره على القرامطة الذين كانوا يعرفون حقيقة الحال في عاصمة بني العباس بواسطة اتباعهم هناك الذين كانوا يرسلون لهم الاخبار مع الحمام[2]

مضى على نكبة حجاج مكة ما يزيد عن سنة وحكومة بغداد لم تبد حركة يستدل منها على انها تنوي تعقب القرامطة للاقتصاص منهم او وضع حد لغاراتهم في المستقبل، فلما رأى القرامطة ضعف الحكومة وايقنوا انها عاجزة عن قتالهم

---

(١) قال المسعودي في الاشراف « ولم نعرض لوصف اخلاق المتقي والمستكفي والمطيع اذ كانوا كالمولى عليهم لا امر ينفذ لهم ... فتفرد بالامور غيرهم فصاروا مقهورين خائفين قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة » ص ٣٩٦ وهكذا قل عن اكثر خلفاء هذا العصر (انظر كتاب تاريخ الوزراء لابن طباطبا)

(٢) انظر تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابي (بيروت ١٩٠٤)ص ٣١٥

قرروا ان يستفيدوا من هذه الحالة فزحفوا على عمان واحتلوها سنة ٣١٨ ٩٣٠ فكان احتلالهم لها احتلالاً لجزيرة العرب كلها لما لعمان من الاهمية الاقتصادية والحربية ولان في الاستيلاء على البلاد المذكورة تأميناً على الجيش القرمطي من الخلف، وهذا مكّن اباطاهر من الزحف في السنة الآتية على الكوفة واحتلالها، وكوفة كما يعلم القارئ مفتاح بغداد وحصنها الحصين فلو اراد ابو طاهر ان يدخل في تلك السنة بغداد ويجهز بذلك على سلطة بني العباس لاستطاع الا انه اكتفى باخذ الكوفة ونهبها حسب عادته ثم تركها وعاد الى عاصمته وهو ينشد :

اغركم مني رجوعي الى هجر	فما قليل سوف يأتيكم الخبر
اذا طلع المريخ من ارض بابل	وقارنه النجمان فالحذر الحذر
الست انا المذكور في الكتب كلها	الست انا المنعوت في سورة الزُمر
ساملك اهل الارض شرقاً ومغربا	الى قيروان الروم والترك والخزر (١)

وكان رجوعه اما لاسباب داخلية اوبامر من خليفة مصر الفاطمي او لاعتبارات فلكية (٢) كانت القرامطة تثق بها وتبني عليها اموراً كثيرة في حياتها الاجتماعية والفردية . على كل حال يظهر ان رجوع ابي طاهر الى عاصمة بلاده وتأجيله فتح عاصمة خصمه الاكبر لم يكونا عن ضعف او تردد في وجوب فتح بغداد بل عن اسباب عرضية اضطرته الى ارجاء ضربته الاخيرة لدولة بني العباس الى فرصة اخرى كما يستفاد من بعض الابيات المذكورة فوق

---

(١) انظر مختصر كتاب الفرق بين الفرق لعبد الرزاق الرسعني (طبع الاستاذ فيليب حتي. مصر ١٩٢٤) ص ١٧٧

(٢) يظهر ان القرامطة كانوا يستدلون بالمراقبات الفلكية على سقوط الدولة العباسية في سنة ٣٢٠ — ٩٣٢

ذلك . الا ان الظروف لم تسمح لابي ظاهر وان يقوم بوعده في القريب العاجل وهذه الظروف هو ما وقع بين القرامطة من الفتن الداخلية التي احدثها بينهم احد مشعوذي خراسان فالهاهم بها عن متابعة حروبهم مع جيوش الخليفة واضعف قواهم المادية والمعنوية فاضطروا ان يتربصوا حتى اذا دخل عام ٣٢٥ =٩٣٧ زحف ابو طاهر مرة اخرى على الكوفة فاحتلها واضطر الخليفة ان يعقد معه هدنة ويؤدي له مئة وعشرين الف دينار كل سنة ويعطي عن كل حاج ضريبة معلومة ثم هو لم يكتف بذلك بل اخذ يتدخل من السنة المذكورة في سياسة بغداد ويؤثر على سير الاعمال فيها .

بقيت الامور على هذه الحالة نحو نصف قرن لم تؤثر فيها وفاة[1] ابي طاهر (٣٣٢=٩٤٣) لان خلفاءه ، واكثرهم من ابنائه وانسبائه الاقربين ، ورثوا عنه كثيراً من صفاته الايجابية كالشجاعة وحسن الادارة والميل الى تضحية المصالح الشخصية في سبيل المصلحة العامة والاهتمام بما يعود على الزراع والعملة بالخير والاخلاص للنظام الجديد الذي سنه مؤسس مذهب القرامطة في البحرين وحافظ عليه ابو طاهر الى آخر يوم من حياته . اضف الى ذلك ان خلفاء ابي طاهر كانوا قد اكتفوا بما فتحه من البلاد ولم يعودوا يتطلعون الى فتوحات جديدة لا سيما وان دولة بني العباس كانت قد سقطت بعد سنة من وفاة ابي ظاهر وقامت محلها دولة جديدة قوية تعرف بدولة بني بدويه الشيعية التي اخذ خلفاء ابي طاهر يطلبون ودها ويتقربون منها لما بينها وبينهم من القرابة المعنوية وذلك بعد ان كادت تتوتر بينهما العلائق وتؤدي الى ما لا تحمد عقباه ولهذا لم نعد نسمع شيئاً عن غزوات القرامطة وحركاتهم الى

(١) الاصح انه قتل بامر من خليفة مصر الفاطمي حسداً وخوفاً على سلطته في سوريا

سنة ٣٥٣=٩٦٤ فكأنهم عدلوا للاسباب التي ذكرناها عن الغزو والنهب واشتغلوا بالمتاجرة مع جيرانهم الاقربين واصلاح احوالهم الداخلية وتعزيز نظامهم الاجتماعي الجديد وتطبيق عيشتهم ، عليه وبالحقيقة ان ما نعرفه عن جمهورية البحرين في ذلك العصر لا يدع محلاً للشك في انها بلغت من الرقي في اقتصادياتها ومعداتها الحربية واخلاقها وآدابها شأوا بعيداً جعل اكثر البلاد الاسلامية تحسدها عليه وتتمنى لو يتاح لها ان تبلغ هذا الرقي الذي لم تبلغه جمهورية القرامطة الا بنظامها الجديد الذي ادخلوه على حياتهم لاول مرة في تاريخ الاسلام

هذا ما يتعلق بتاريخ الحركة القرمطية في البحرين اما مايتعلق بنظامهم الداخلي فيمكننا ان نلخصه، استناداً على ما عندنا من اخبار القدماء عنه ، في العبارات الآتية:

ذكرنا في ما سبق ان مؤسسي الجمهورية القرمطية او الاسماعيلية في البحرين كانوا من عامة الناس وانهم كانوا يدعونهم الى الدخول في المذهب الجديد باسم «امام الزمان المحجوب» ثم باسم الخلفاء الفاطميين من يوم ظهرت هذه الدولة، وهذا يدل على ان القرامطة كانوا في بادئ الامر يقرون برئاسة الخلفاء المذكورين الروحية والسياسية، فكانوا يجمعون الضرائب والزكاة باسمهم ويؤدون اليهم قسماً كبيراً منها وكانوا يساعدونهم بالمال والرجال في حروبهم مع خلفاء بغداد ويأتمرون بامرهم في كل شيء حتى انهم لم يحجموا عن ارجاع الحجر الاسود الى مكة لما امرهم بذلك الخليفة المنصور (سنة ٣٣٩/٩٥٠) ارضاء لرعاياه السنيين في مصر وتزلفاً منهم ، مما يستدل منه على ان ابا طاهر وابا سعيد وخلفاءهما لم يكونوا في الحقيقة الا عمالاً «لامام الزمان» في البحرين يحكمون البلاد باسمه ويؤدون له الطاعة. الا انه يظهر من بعض افعال القرامطة

هناك ان بعد المسافة بينهم وبين امامهم واسبابا اخرى نذكرها بعد ذلك جعلت صلة القرامطة بالفاطميين ضعيفة وادت الى نوع من الاستقلال الداخلي او الحكم الذاتي في البحرين وهو اقرب الى الحكم الجمهوري او الشوروي منه الى حكم الفرد . نعم لا ننكر انه كان يرأس حكومة القرامطة افراد من اسرة ابي طاهر الجنابي او المقربين اليها مما قد يحمل البعض على الظن ان حكومة البحرين كانت اقرب الى حكومة الاقلية المستبدة (oligarchie) منه الى الجمهورية الحقة، الا ان هولاء الافراد لم يكونوا ليمتازوا عن غيرهم من الوزراء او اعضاء المجلس الاداري المعروف عندهم «بالعقدانية» الا في امور معلومة كقيادة الجيش وترأس مجلس الوزراء والاشراف على بعض الاعمال الثانوية فهم والحالة هذه اقرب الى رؤساء جمهوريات اميركا الجنوبية[1] في هذا العصر منهم الى امراء العرب والعجم في ذلك الوقت اي انهم كانوا primi inter pares (الاولين بين الاسواء) كما تقول العبارة اللاتينية، اما القوة الحقيقية اي قوة التشريع والتنفيذ فانها كانت محصورة في ايدي اعضاء المجلس المؤلف من ستة اشخاص او وزراء يختارهم الشعب من اسرة ابي طاهر واعوانه المقربين او من غيرهم ممن كان يثق بهم ومن اصحاب الدرجات العالية في الحزب وكان لهولاء الوزراء ستة وكلاء يجلسون وراءهم على تخت عال او على مقاعد الوزراء ان هم تغيبوا لسبب ما عن حضور الجلسة . والذي نعلمه من امر هذا المجلس المعروف «بالعقدانية» انه كان يسوس البلاد ويحل ما يعرض عليه من المسائل بالاجماع وان جلساته كانت غالبًا تحت رئاسة ابي طاهر

---

(١) لم يكن هذا النوع من الحكم مألوفاً عند العرب ولهذا ترى كتبتهم يخبطون في الكلام عنه خبط عشواء

او نسيبه (اخي امرأته) ابي محمد سنبر احد رجال البحرين المعروفين بكرمهم وعدالتهم وتعلق الشعب بهم

جاء في «سفرنامه» لناصرخسرو الذي زار بلادالقرامطة سنة١٠٥٢ اي بعد ابن موقل بسنين عديدة ما يثبت قول هذا الكاتب ويدل على ان عرى المحبة والوفاق بين «المؤمنين» ما زالت موثقة حتى تلك السنة، فقدذكر في سياحته المذكورة ما تعريبه «واحفاد ابي سعيد يقيمون الان في قصر واسع يعرف «بدار الهجرة» وهذا القصر هو دار الحكومة ايضاً حيث يوجد التخت الذي يجلس عليه الوزراء الستة الذين يضعون الاحكام بعد ان يبحثوا فيها ويتفقوا على رأي واحد، ولهولاء الوزراء ستة مساعدين يقعدون على تخت آخر وراءهم ولا يقرر المجلس امراً الا بالشورى [1]» والفضل في هذا الوفاق يرجع لا الى الشرطة او قوة حربية اخرى لا نعلم عنها شيئاً بل الى النظام الاشتراكي الجديد وثقة الشعب به وبزعمائه . والغريب في كلام ناصر خسرو انه لم يذكر شيئاً عن رئيس مجلس العقدانية مما يستنتج منه اما انه لم يكن وقتئذ رئيس لهم واما انهم اتفقوا ان لا يكون لهم رئيس بعد ابي سعيد وابي طاهر واولادهما وذلك اكراماً لمؤسسي الجمهورية الشيوعية وتعظيما لقدرهم او خوفاً من استبداد خلفائهم ونبذهم للمبادىء الاشتراكية التي اسست عليها دولتهم واسباب اخرى لم يذكرها الكاتب المذكور ولم نقف نحن عليها عند غيره . نعم ان احفاد ابي طاهر واقرباءه ظلوا محافظين على نفوذهم وبعض امتيازاتهم الى ايام خسرو وربما الى ما بعد ذلك الا انهم لم يكونوا ينتخبون لرئاسة مجلس العقدانية الا نادراً فكانت السلطة محصورة في ايدي الوزراء واعوانهم واكثرهم كما رأينا

---

(١) انظر «سفرنامه» ص٢٢٦و٢٢٨ (طبعة C. Schefer في باريز)

من اسرة موٌسس الجمهورية القرمطية واقربائه فاذا صح ذلك كانت هيئة الحكم في البحرين اقرب الى حكم الجمهورية الروسية في الوقت الحاضر اي حكومة شوروية (صوفيت) يرأسها موٌسس الجمهورية ما دام حياً ثم اعوانه الاقربون بعد وفاته وعليه نستطيع ان نقول ان لكل نظام اجتماعي هيئة ادارية خاصة به هي وليدته كما يظهر لكل من قابل بين نظام القرامطة في العصر العاشر ونظام روسيا الشيوعي في هذا اليوم، ولولا ضيق المقام لاتينا على مقارنات عديدة بين النظامين لا تدع محلاً للشك في صحة الفكر الذي ذكرناه قبل ذلك ولا غرابة في ذلك لان مصدر القوة عند الفريقين واحد وهو الطبقة السفلى من الشعب او طبقة العمال والمزارعين وهم الاكثرية المتغلبة عند القرامطة كما يستنتج من كلام ابن الاثير عن اهل العراق (السواد)[١]

استقلت البحرين وما جاورها من البلاد التي فتحها القرامطة في ايام ابي طاهر واولاده عن الدولة العباسية واصبح امرها اليها تسير في حياتها الداخلية والخارجية على نظام جديد سنته هي لنفسها لا يعارضها في تطبيقه معارض فكانت اول خطوة خطتها العقدانية نحو اصلاح البلاد وسعادة اهلها انها الغت الضرائب التي على الاراضي ثم الغت او انقصت بعض الرسوم التي كان يئن تحتها الزارع والعامل واخذت تبحث عن موارد اخرى تقوم باحتياجات الدولة ولا يشعر السكان بثقلها ، فكان من جملة تلك الضرائب الجديدة ضريبة على المراكب التي كانت تمخر في خليج العجم ثم ضريبة على مقاطعة عمان وعلى الحجاج الذين كانوا يوٌمون الحرمين كل سنة فضريبة اخرى على صيادي اللوٌلوٌ في

---

(١) « ..... وقتل منهم مقتلة ثم تركهم خوفاً ان تخرب السواد وكانوا فلاحيها » ج ٧ ص ١٧٨ (الطبعة المصرية)

مياه البحرين وخليج العجم . فاذا اضفنا الى هذه الضرائب الغرامة التي كانت تؤديها كل سنة بعض مدن وقرى العراق والكوفة وغيرهما كان لنا من كل ذلك نحو مليون ومئتي الف دينار في السنة اي نحو خمسين او ستين الف جنيه مصري ليس منها الا ثلاثون الف كانت تؤخذ عن الاراضي بصورة اعشار او خراج ومقدار طفيف يكاد لا يستحق الذكر لا سيما اذا تذكرنا ان اراضي البحرين وعمان كانت ولا تزال من اخصب اراضي جزيرة العرب وقد عرفت بجودة ثمرها الذي كان ولا يزال يحمل منها الى البلاد البعيدة وكان من البضائع التي كانت حكومة القرامطة تتاجر بها مع جيرانها الاقربين كبلاد العجم والعراق وسوريا الخ وعليه يجوز ان يقال ان مالية البحرين بلغت في عهد القرامطة درجة لم تبلغها على ما اظن في دور آخر من ادوار تاريخها . فلو طرحنا من الميزانية المذكورة قسماً كانت القرامطة ترسله سنوياً الى صندوق «الامام» او الى «خزينة الامام» كما كانوا يعبرون في ذلك الوقت وقسماً آخر اكبر منه كان ينفق على «دار الهجرة» او دار الحكومة واسرة ابي طاهر لبقيت قيمة كبيرة كانت تنفقها الحكومة على الاشغال والمنافع العمومية اي على تحسين احوال المزارعين والعمال وابتياع الاراضي لتوزيعها على المحتاجين اليها

اننا نأسف ان ما لدينا من الاخبار عن النظام الجديد في البحرين لا يكفي لحل اهم مسالة تتعلق بهذا النظام وهي ملكية الاراضي او عدمها اي هل بقيت الاراضي في ايدي اشخاص معلومين يتصرفون فيها كيف يشاؤون ام اصبحت شائعة في يد الحكومة تعطيها لمن تريد و يقدر ان يعتملها بيده على انه يظهر من بعض اقوال الكاتب الفارسي التي سنأتي عليها فيما بعد ان

الحكومة لم تتعرض لنزع الاراضي من ايدي اصحابها اما لان اكثرها كان مشاعاً بين المزارعين كما هي الحال عند البدو على الاطلاق واما لانه لم تكن هناك مسالة تعرف بمسالة الاراضي اي لم يكن في البحرين ازمة ارضية او فلاحون لا اراضي لهم كما هي الحال اليوم في اكثر البلاد الاوروبية او لان الحكومة كانت تبتاع على حسابها ما تحتاج اليه من الاراضي لتوزعه على الفلاحين الذين لم تكن لهم اراض يعتملونها بايديهم . هذا ما يتعلق بالاراضي اما ما عدا ذلك من اركان الحياة الاجتماعية وظواهرها والحياة الفردية ومعالمها فان الصبغة الشيوعية كانت ظاهرة عليها والحكومة القرمطية عاملة على نشرها وتأييدها بكل ما لديها من الوسائل . ذكر الكاتب الفارسي الذي استشهدنا به مراراً انه رأى يوم كان في الاحسا « ثلاثين الفاً من السودان يشتغلون في الحقول والبساتين على حساب العقدانية وهي الحقول التي اشترتها بمال الامة وان الشعب هناك لم يكن يؤدي لحكومته ضرائب ولا اعشاراً وانه اذا كان يصيب احدهم فقر او كان يقع تحت دين لا سبيل الى وفائه كانت العقدانية تسلفه مايحتاج اليه من الدراهم الى ان يصلح حاله وكان اذا استدان من احد دراهم لا يدفع له عند حلول الاجل الا ما استدانه فقط اي بلا رباً »[1] وقال في مكان آخر من سياحته : « ان كل غريب يدخل الاحسا و يعرف حرفة ما كانت الحكومة — اذا اراد — تقدم له مبلغاً من النقود لينفقه على اشتراء ادوات حرفته و يبقى تحت تصرفه الى ان يجمع من المال ما يكفيه و يكفي اسرته فان هو اشتغل و كسب رد ما استلفه الى الحكومة بدون رباً »[2] وقال ايضاً : اذا

---

(١) انظر « سفرنامه » طبع C. Schefer باريز ١٨٨١ ص ٢٢٧ — ٢٢٨

(٢) انظر « سفرنامه » الصفحة المذكورة سابقاً

اصابت صاحب بيت او طاحون مصيبة وكان عاجزاً عن ردها والتخلص منها بنفسه امدته العقدانية بعدد معلوم من الفعلة السود ليصلحوا ما تصدع من بيته او طاحونه بلا عوض » وزاد الكاتب المذكور على ذلك « ان في الاحسا طواحين تخص الحكومة وهي تطحن للناس قمحهم مجاناً اي بدون اجرة لان الحكومة نفسها تنقد الفعلة اجورهم وتقوم بجميع نفقات الطواحين» [(١)]

اذا عارضنا هذه الاخبار على ما عندنا من اقوال بعض كتبة العرب عن القرامطة كقول احدهم « ان كل شيء كان عندهم شائعاً الا السيوف والاسلحة» استطعنا ان نستنتج منها ان حياة القرامطة الاجتماعية والفردية كانت مبنية على مبادئ شيوعية وهي تلك المبادئ التي كانت تبثها وتسعى الى تحقيقها ائمة الحركة الاسماعيلية ووكلاؤهم في البحرين

نحن لا ننكر انه قد يكون طرأ على حياة القرامطة ونظامهم الداخلي بعض التغير في ايام ناصر خسرو الا ان الصبغة الشيوعية على الاطلاق ما زالت ظاهرة على حياة البلاد وسكانها الى الجيل الخامس عشر او الى ما بعد ذلك وكان من اهم ظواهرها انه « لم يبق في البلاد فقير [(٢)] وان مجلس العقدانية ضرب نقوداً جديدة لم تكن متداولة الا في البحرين والبلاد المتاخمة لها وكان غرضه من ذلك ان تبقى النقود في البلاد ولهذا سكها من رصاص فكانت لذلك رخيصة جداً حتى ان من اراد ان يبتاع شيئاً في السوق كان مضطراً ان يملأ من تلك النقود زنابيل يضع في كل منها ستة آلاف درهم » [(٣)]

---

(١) انظر « سفرنامه » الصفحة المذكورة سابقاً
(٢) » » »
(٣) » » »

ومن ظواهر النظام الشيوعي في البحرين ان التجارة ولا سيا الخارجية منها كانت في يد الحكومة وان ارباحها كانت تنفق على الاعمال العمومية وتحسين احوال المزارعين والعملة ، فلا عجب والحالة هذه اذا كان سكان البلاد المذكورة راضين عن حكومتهم ونظامها وعاملين على تأييدها عند الحاجة ، كما لا عجب ايضاً اذا كنا لم نسمع ولم نقرأ شيئاً يستفاد منه وجود طبقة من الناس تعمل على قتل النظام الجديد او اسقاط الحكومة التي اوجدته ومشت عليه .

هذا جل ما عثرنا عليه عند كتبة العرب والفرس من الاخبار المتعلقة بالقسم الاجتماعي والاقتصادي من برنامج القرامطة وها نحن الآن نأتي على ما وجدناه عندهم من المعلومات التي لها مساس بمبادئهم الادبية والدينية مما لم نذكره عند كلامنا عن الاسماعيلية او ذكرناه بصورة عامة موجزة .

ان قيام الجمهورية العربية الاشتراكية في البحرين كل هذه السنين الطوال وحفظ نظامها الغريب وتأثيره اكثر من خمسة اجيال ثم بلوغها ذلك النجاح الاقتصادي الذي اشرنا اليه سابقاً وذلك مع ما كان يحيط بها من الصعوبات وتعدد الخصوم المتشوقين الى هدمها والاستيلاء على ثروتها لاكبر دليل على ان الجمهورية المذكورة كانت قائمة ليس فقط على دعائم اقتصادية واجتماعية قوية بل على اسس ادبية قويمة ومبادئ اخلاقية صحيحة كانت تتجلى في حياة المجموع والافراد على السواء فقد رأينا حين تكلمنا عن مجلس العقدانية ما كان عليه اعضاؤه من الاتفاق في القول والعمل وهناك شواهد اخرى على ذلك لا بأس من ذكر بعضها تثبيتاً لما قلناه قبلاً وتعميماً للفائدة .

ان ابن حوقل الكاتب والسائح الشهير كان اقام بين القرامطة اشهراً

عديدة ودرس نظامهم وحياتهم اليومية عن كثب فذكر عنهم اموراً كثيرة تخالف ما يتهمونهم به من الافعال البذيئة والمبادئ السافلة وتدل على احترامه لهم واعترافه بفضلهم وادبهم وحسن سيرتهم ثم زارهم بعده المقدسي وكتب عنهم فصلاً في رحلته لم يذكر فيه ما يمس كرامتهم ويشوه سمعتهم وجاء بعده الكاتب والشاعر الفارسي ناصر خسرو فاقام بينهم اشهراً [1] يراقب فيها حياتهم الاجتماعية والفردية ويتعرف بكبيرهم وصغيرهم ويتردد الى مجتمعاتهم ليقف على افكارهم واخلاقهم ويطلع عليها قراءه وابناء وطنه فلو رأى منهم ما يخالف المبادئ الادبية العامة لاشار الى ذلك في « سفرنامته » ولانحى عليهم باللائمة وصورهم بغير الصورة التي نراها في كتابه حيث جاء : « ان ابا سعيد اوصى خلفاءه واشياعه ان يعاملوا الشعب بالعدل والشرف » وقال في محل آخر « انه اذا دخل انسان على عضو من اعضاء العقدانية وحياه او سأله شيئاً اجابه ذلك العضو بكل رقة وتواضع » وقال عن سكان الاحسا « انهم لا يشربون خمراً لا لانه كان محرماً عندهم بل محافظة على النظام » [2] ثم اننا نستنتج من كلام خسرو واقوال غيره ان الزنا لم يكن معروفاً او شائعاً عند القرامطة بل لم يكن شائعاً عندهم — كما ارجح — تعدد الزوجات بدليل ان جميع ابناء ابي سعيد كانوا من ام واحدة وليس هذا من الغرابة في شيء لان الامتناع عن المسكرات والفسق نتيجة منطقية لتعليم القرامطة عن الغرض من وجود الانسان على هذه الارض وغاية هذا العالم القصوى .

من التهم التي اتهم بها القرامطة خصومهم والاكاذيب التي كانوا يختلقونها

---

(١) اقام خسرو بين البدو تسعة اشهر لا نعلم كم قضى منها بين القرامطة (انظر ص ٢٣٣)

(٢) ص ٢٢٧

عنهم لاغراض مفهومة هو وصفهم اياهم بالرياء وعدم الاخلاص في النية وقد استدلوا على ذلك بان القرامطة كانوا يتظاهرون بحب علي وبيته ويتشيعون له ولاصحابه لا حباً به و بشيعته كما يقولون بل لقضاء حاجتهم ومنافعهم الشخصية او الحزبية و بلوغ مآربهم السياسية وقد استدلوا على ذلك بان اباطاهر لم يزر ولا مرة قبر علي او ابنه الحسين مع انه كان في القرب منهما مرات عديدة وانهم بعد ان حاربوا في جانب الخلفاء الفاطميين وساعدوهم مراراً على اعدائهم خذلوهم بعد ذلك بل خرجوا عليهم سنة ٣٩٠ — ٩٧١ وانضموا الى عدوهم الاكبر الخليفة العباسي وصاروا يساعدونه عليهم ٠

نحن لا ننكر هذه الحوادث الا اننا نعللها بغير ما يعللها خصوم القرامطة فتوقف ابي طاهر عن زيارة قبري علي وابنه الحسين لا يدل على بغضه او عدم حبه لهذين الشخصين اللذين كانت الاسماعيلية على الاطلاق تحترمهما بل على ان القرامطة كانت تحرم زيارة القبور وتقبيلها كما هو الحال عند الوهابيين اليوم اما الدليل الثاني فمبني اما على جهل لتاريخ الحركة القرمطية في البحرين واما على تجاهل يراد به اخفاء الحقائق التاريخية او اظهارها في غير صورتها الحقيقية واليك بيان ذلك ٠

من المحقق ان علاقة القرامطة بالفاطميين كانت علاقة ودية ملؤها الاخلاص والطاعة وانهم كانوا في اول الحركة الفاطمية يساعدونهم بالمال والرجال و يظهرون لهم الطاعة والمحبة لا لانهم كانوا يخشون بأسهم بل لانهم كانوا يعتقدون ان مؤسس الدولة الفاطمية عبيد الله هو حقيقة « امام الزمان » و « المهدي » المنتظر وآخر انسان تجسم فيه العقل الاعلى اي هو ذلك الانسان الذي كانت القرامطة وسائر فرق الاسماعيلية تنتظره وتعوّل عليه في ذلك

دولة الظلم واقامة دولة العدل والمساواة ومملكة « السلم والمحبة » الى غير ذلك من الآمال التي كان ولا يزال اصحاب الامام المحجوب يعلقونها على ظهوره الا ان اباطاهر واصحابه اخذوا يدركون مع الزمن وبعد ان تعرفوا بالفاطميين في سوريا ومصر وشاهدوا عيشتهم واعمالهم هناك وما ادخلوه من الانظمة الجديدة في مصر وشمال افريقا ان مؤسس هذه الدولة افاق كاذب وممخرق محتال كبير لا صلة بينه و بين الامام السابع اسماعيل بن جعفر ولا نسب وان هـذا الامام الكاذب خدعهم واستخدمهم آلة للوصول الى غاياته الشخصية فلما صح عند القرامطة هذا الخبر كان له وقع شديد على هؤلاء الاعراب الذين عرفوا دائمًا بسذاجتهم وصفاء قلوبهم فثار غضبهم على مؤسس الدولة المذكورة واولاده فقطعوا علاقاتهم بهم واخذوا يتقربون من اعدائهم الذين اصبحوا في نظرهم خيراً من حلفائهم السابقين الكاذبين فنتجت عن ذلك حروب كلفت الفاطميين ضحايا لا تحصى وخسائر مادية لا تعد لان القوة كانت في اغلب الاحيان في جانب القرامطة فاضطر خلفاء القاهرة ان يلجأوا الى سياسة الدفاع بعد ان كانوا قبل ذلك يفضلون عليها سياسة الهجوم ولعل هذا هو الذي اضطرهم بين ٣٧١ و٣٨٥ الى بناء قلعة القاهرة، عاصمة مصر اليوم ، للدفاع عن عاصمتها القديمة المعروفة سابقًا بالفسطاط[١] . ولم يقف القرامطة عند هذا الحد بل اخذوا يتقربون من حكومة بغداد و يعقدون معها المعاهدات السياسية والتجارية ويكاتبون خلفاء بني العباس و يهدون اليهم الهدايا وهم مع كل هذا محافظون على حقوقهم ومصالحهم غير متساهلين في شيء مما له مساس بعقائدهم الدينية

---

(١) من fossatum اللاتينية ومعناها الحفير او الخندق (من الفارسية خنده = محفور)

والادبية ونظامهم الاشتراكي، فهل في ذلك رجوع عن المبدأ او شيء من الرياء والمداهنة؟ اذن فحكومة روسيا الشوروية خائنة ومرائية وكاذبة لانها، كما يعلم القارىء، عقدت مع اعدائها في المبدأ والغاية معاهدات تجارية وسياسية

بناء على ذلك لا صحة لما يتهم به القرامطة اعداؤهم من الصفات السلبية المذكورة بل انا اعتقد ان كل من وقف على تاريخ القرامطة في البحرين وطالع ما حفظ من اخبارهم مترفعاً عن الغرض وغير منفعل بانفعالات شخصية يشعر باخلاص هــذه الاخوية وصدقهـا وصفاء قلوب اعضائها، وهذا المستشرق الهولاندي الشهير M.de Goeje الذي جمع اخبارهم المبعثرة ونظر فيها نظرة عالم لا يطلب غير الحقيقة المجردة ثم وضع فيهم كتابه الذي طالما استشهدنا به في هذا الفصل يقول فيهم « اني مع مـا اعرفه عن تلك السنن الشيطانية التي سنها حسن ابن القداح للاسماعيلية اعتقد اعتقاداً قوياً ان القرامطة وعلى الاخص قرامطة البحرين كانوا يعملون عن اعتقاد راسخ فيهم بانهم انما يخدمون عملاً طيباً (١) » ومعلوم ان الايمان القوي في صحة ما يكرس له الانسان او الجماعة حياته او حياتهم هو الذي يتغلب على جميع الصعوبات ويأتي بالمعجزات واني والحق اولى ان يقال، اشعر بهذا الايمان في اقوال القرامطة وافعالهم ولو خالطها احياناً شيء من القساوة وغلظة البداوة . حدث ابن الاثير في « كامله » عن رجل من القرامطة كان يسكن في بغداد قال : « جاء انسان الى علي بن عيسى (وزير الخليفة المقتدر) واخبره ان في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب ابا طاهر بالاخبار فاحضره وسأله واعترف وقال ما صحبت ابا طاهر الا لما صح عندي انه على الحق وانت وصاحبك كفار تأخذون ما

(١) انظر كتابه المذكور ص ١٦٢

ليس لكم ... فقال له علي بن عيسى قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن منهم على مذهبك؟ فقال: وانت بهذا العقل تريد الوزارة كيف تطمع مني انني اسلم قوماً مؤمنين الى قوم كافرين يقتلونهم؟ لا افعل ذلك »[١]

هذا في ما يختص باداب قرامطة البحرين اما عقائدهم وشعائرهم الدينية فلا نطيل الشرح فيها خوفاً من الملل ولانا ذكرنا قسماً منها في الفصل السابق ولهذا نكتفي بما يأتي .

اذا عنينا بالدين وشعائره ما يفهم منها اليوم او ما الفه الشعب البسيط من معنى هذه الكلمة فيصح ان نقول انه لم يكن للقرامطة دين او شعائر دينية تذكر ولو استعمل احياناً زعماؤهم وكتبتهم من المفردات والاصطلاحات المتداولة بين اصحاب الدين ما قد يوهم السامع الغير الواقف على مذهب القرامطة ان لهم ديناً وشعائر دينية كغيرهم من معاصريهم من المسلمين وغير المسلمين الا ان القرامطة، كاعراب من جهة وكاسماعيلية من جهة اخرى، كانوا بعيدين عن الدين وشعائره الخارجية بعد اكثر شيوعيي هذا العصر عنها اذ ان دينهم الحقيقي هو مطلبهم الكبير الاجتماعي الذي كانوا يعبدونه و يؤمنون بوجوب تحقيقه ايماناً قوياً يحيون لاجله و يموتون عليه . نحن لا ننكر ان للقرامطة بعض عقائد دينية بمعنى هذه الكلمة المعروف كاعتقادهم مثلاً بتجسد الله الدوري او بتجسم العقل الاول في ائمتهم او المهديين او الرجال العظام والحكماء الذين وكل اليهم امر تحقيق المطلب الاكبر (ideal) الاشتراكي . قال القرمطي الشيرازي المذكور آنفاً «انه لا بد لله من حجة في ارضه وان امامنا المهدي هو محمد حفيد محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق » الا ان هذه العقيدة هي اقرب

---

(١) ج ٨ ص ١٢٧ (من طبعة Tornberg في ليدن)

الي فكر سياسي او فلسفي منها الى عقيدة دينية محضة . ثم لا يغرنا ان القرامطة كانوا يبنون تحقيق احلامهم الاشتراكية على رجل من نسل علي لا من بيت آخر لان حبهم لبيت علي لم يكن منهم الا خطة سياسية وسبباً متيناً يربطهم بغيرهم من الشيعة ويستميل اليهم قلوب الناقمين من بني العباس والا فسواء عندهم أكان الامام ، مخلص هذا العالم ومهديه ، من ابناء علي او من بيت آخر لانه لم يكن يهم القرامطة الا مبدأهم الاساسي وهو ايمانهم بامكان تحقيق مطلبهم الاكبر الاشتراكي في هذه الحيوة الدنيا ، اما من يحقق هذا المطلب فهذا في نظرهم امر ثانوي وفي نظر زعماء الحركة امر لا اهمية له البتة لانهم كانوا يعتقدون ان تحقيق امالهم واحلامهم السياسية امر منوط باي شخص تجسمت فية الحكمة العالية والعقل الاعلى الذي هو الله .

ترى مما ذكر ان ديانة القرامطة لم تكن في الحقيقة الا عبارة عن عبادة العقل السليم او العقل الاعلى ولهذا لم تكن عندهم شعائر او طقوس دينية ولا كانت لهم حاجة اليها وهذا ما انتبه اليه الكتبة المسلمون واشاروا اليه مراراً بقولهم ان القرامطة « ينكرون الرسل والشرائع كلها » (١) وانهم « تأوّلوا لكل ركن من اركان الشريعة تاويلاً يورث تضليلاً فزعموا ان معنى الصلوة موالاة امامهم والحج زيارته وادمان خدمته والمراد بالصوم الامساك عن افشاء سرهم بغير عهد ولا ميثاق وزعموا ان من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وحملوا اليقين على معرفة التأويل » (٢) ومع ذلك فهم لم يكونوا يمنعون المسلمين المقيمين بينهم من بناء المساجد واقامة الصلاة وسائر اصول الدين وشعائره . قال ناصر

---

(١) كتاب الفرق بين الفرق ص٢٧٧
(٢) الفرق . . . ص ٢٧٨

خسرو ما تعريبه : « وليس في الاحسا مسجد تقام فيه صلاة الجمعة وهم لا يخطبون ولا يصلون الا انهم (سمحوا) ببناء مسجد على حساب احد الفرس السنيين »⁽¹⁾ وقال بعيد ذلك « ولا يمنعون هنا احداً من اقامة الصلاة اما هم فلا يقيمونها »⁽²⁾

اما وقد نبذوا كل ديانة من الديانات التاريخية الوضعية فلم يعد يصعب عليهم بل كان من الواجب عليهم ان ينبذوا ايضاً كل ما يستند على هذه الاديان من الحدود والسنن المتعلقة بالاكل والشرب واللبس الخ وان يقولوا بتحليل كل ما ليس منه ضرر على الصحة ولا يحول دون تتميم الواجب والحصول على السعادة في هذه الدنيا لا في العالم الآخر وهذا خسرو يشهد لهم « انهم كانوا يبيعون في الاحسا لحوم جميع الحيوانات كالقطط والكلاب والحمير والثيران والخرفان الخ على شرط ان يضع البائع رأس الحيوان وجلده قرب لحمه وهم يربون الكلاب كالخرفان في المراعي حتى اذا سمنت وعجزت عن الجري ذبحوها واكلوها »⁽³⁾ و بذلك قضوا على سنن الاديان القديمة وحدودها المتعددة وجاهروا بانهم اعلى من ان ينقادوا لهذه الحدود التي وضعت في نظرهم لضعفاء العقول وصغارها او « للحمير » كما كانوا يسمون الطبقات السفلى الغير الراقية من الناس وكان من جملة الحدود التي الغوها تحريم الخمر فصار بعضهم يشربه جهاراً كما يستدل على ذلك من اقوال بعض الكتبة⁽⁴⁾ الا ان استعماله لم يشع بينهم للاسباب التي ذكرناها سابقاً حتى ان ناصر خسرو الذي اقام بينهم اشهراً لم ير بينهم

---

(١) سفرنامه ص٢٢٨
(٢) سفرنامه ص ٢٢٨
(٣) سفرنامه ٢٢٩
(٤) انظر تأليف M. de Goeje ص ١٧٥

من كان يشربها جهاراً او سراً والا لما كتب في رحلته ان سكان الاحسا لا يشربون الخمر » الا ان يكون نظر القرامطة الى الخمر ومعاطاتها قد تغير في ايام خسرو او ان هناك اسباباً اخرى حملتهم على ترك الخمر لا علم لنا بها . على كل حال لا ريب في ان شرب الخمر او عدمه لم يعودا في نظر القرامطة من المسائل الدينية كما كانا قبلاً بل اصبحا من المسائل الاجتماعية او الاخلاقية التي لا اهمية لها البتة فلا معاطاتها محرمة ولا في الامتناع عنها ثواب من الله والناس .

انا لنأسف جداً ان انقطاع الاخبار او ندرتها عن قرامطة البحرين بعد النصف الثاني من الجيل الحادي عشر الناتجين عن بعد بلادهم عن مراكز العمران العربي الاسلامي وعما اصاب البلاد العربية والخلافة الاسلامية من المحن في ايام الاتراك والمغول يحولان دون الوقوف على تاريخ الجمهورية الشيوعية في شرق الجزيرة العربية بعد العصر المذكور وعلى ما طرأ على نظامها الاشتراكي من التغير قبل ان تتفكك عراها وتصبح في خبر كان ، فكل ما يمكننا ان نستنتجه من اقوال بعض الكتبة المتأخرين عن حالة القرامطة بعد الزمن المذكور هو ان حروبهم الخارجية مع سلاطين بغداد وخلفائها ومع القبائل المجاورة لهم ثم ما وقع من الاختلاف في بيت ابي طاهر واقربائه كقتل ابنه سابور سنة ٣٦١ ٩٧٢ وانقراض اعضاء مجلس « السادة » القدماء ادّى كل ذلك ولا ريب الى اضعاف قوة القرامطة واطمع بهم جيرانهم وأعداءهم الذين كانوا يتحينون الفرص ليفتكوا بهم و يقضوا عليهم وعلى نظامهم الممقوت ، الا ان هذا الدور لم يكن طويلاً ودليلنا على ذلك ان جعفر احد احفاد ابي سعيد الجنابي التقى سنة ٣٦٨ —٩٧٨ بعساكر الفاطميين فكسرهم واضطرهم الى الفرار، وان ابا بحر ابن شاخو به

احد قواد القرامطة زحف الى الكوفة واحتلها باسم السلطان عضد الدولة البويهي (٩٤٩—٩٨٣) مما يستنتج منه ان احوال القرامطة في الوقت المذكور كانت لا تزال حسنة وكلمتهم عالية وهيبتهم محفوظة حتى ان سلاطين بغداد كانوا يطلبون ودهم ومساعدتهم و يتقربون اليهم بالعطايا والكتب الى ان دخلت سنة ٣٧٤—٩٨٤ حين اخذ نجمهم يأفل وحالهم يسوء واول ما ظهر ذلك في حروبهم مع السلطان صمصام الدولة (٩٨٩—٩٩٨) التي انتهت بكسرهم ورجوع فلولهم الي البحرين فلم يكد هذا الخبر ينتشر بين جيرانهم حتي خرجت عليهم سكان اواسط جزيرة العرب وانفصلت عنهم ثم تبعهم سكان عمان سنة ٣٧٥—٩٨٥ وقبائل المتفق التي انقضت عليهم سنة ٣٧٨ — ٩٨٨ وكسرتهم شر كسرة ثم تعقبتهم الى عاصمتهم التي التجأ اليها القرامطة فحاصرتهم فيها لكنها لم تقو على فتحها فتحولت عنها الى القطيف ففتحتها وغنمت فيها غنائم كثيرة حملتها الى بلادها ، فكان لهذا الفشل اثر سيء على حالة القرامطة الاقتصادية والداخلية اثار بينهم استياء عاماً ادي الى نزع السلطة من ايدي احفاد ابي سعيد الجنابي وتسليمها الى رجال آخرين حاولوا ان يسيروا على خطة من السياسية جديدة فأخذوا يتقربون من الفاطميين اخوانهم القدماء ليستندوا عليهم في حروبهم مع البدو وسلاطين بغداد او ليضمنوا حيادهم ، الا ان هذه السياسة الجديدة لم تجدهم نفعاً بل كانت عاقبتها شراً من السياسة الاولى لان سلاطين بغداد اخذوا يراقبون حركاتهم وسكناتهم ويخشون تقربهم من الخلفاء الفاطميين حتى اذا اطلعوا على مكاتباتهم مع اولياء مصر انقلبوا عليهم فاوعزوا الى الاعراب ان تخرج عليهم فخرجت وحاربتهم وكادت تقضي على استقلالهم فاضطروا ان يلزموا بلادهم و يكفوا عن نشر دعوتهم في ما وراء البحار .

قال ابن النديم صاحب الفهرست : «... ومنذ نحو عشرين سنة تناقص امر المذهب (مذهب القرامطة) وقل الدعاة فيه حتى اني لا ارى من الكتب المصنفة فيه شيئاً بعد ان كان في ايام معز الدولة في اوله ظاهراً شائعاً ذائعاً والدعاة منبثون في كل صقع وناحية » [١]

كان ينتظر ان تتبدل هذه الحال باحسن منها في ايام الحاكم بامر الله (٩٩٦—١٠٢١) الذي عرف بميله الى مذهب المتطرفين من الاسماعيلية [٢] او في ايام الخليفة الظاهر حين كان الفاطميون ينتظرون سقوط دولة بني العباس فلما لم تحقق هذه الاماني المبنية على اسس فاسدة رأى القرامطة ان يخلدوا الى السكينة وان لا يفكروا الا في المحافظة على استقلالهم وتقوية نظامهم الداخلي الذي ظلوا محافظين عليه زمناً طويلاً كما يظهر من كلام ناصر خسرو الذي زارهم في اواسط سنة ٤٤٣—١٠٥٢ واقام بينهم نحو نصف سنة

مما يستفاد من اقوال خسرو ان النظام الاشتراكي كان لا يزال معمولاً به بين القرامطة في اواسط العصر الحادي عشر وان القرامطة كانوا يدعون في ايامه « ابو سعيديين» نسبة الى ابي سعيد مؤسس جمهوريتهم وانه كان على رأسهم احد احفاد ابي سعيد المعروفين يومئذ « بالسادة » مما يستدل منه على انه قد حصل بعض تغيير في هيئة الادارة عند القرامطة ثم يستفاد من كلام الكاتب المذكور ان حالة البلاد كانت حسنة والتجارة رائجة بفضل احتكار الدولة لها وسياستها الاقتصادية العادلة وان الشعب كان مطمئناً راضياً عن حالته من كل الوجوه لان خسرو لم يسمع احداً يشكو من الحكومة او يتذمر من

(١) انظر صفحة ١٨٩ (من طبعة Flügel الالمانية)

(٢) معلوم ان في ايامه ظهرت شيعة الدروز وهم من الفرق الاسماعيلية المتطرفة في المسائل الدينية

عمالها او من النظام الجديد الذي ادخلته الى البلاد، وقد ذكر اشياء تدل على ان موارد العيش كانت كثيرة وان الناس كانوا في بحبوحة عيش لا ينقصهم شيء من الضروريات « وفي الاحسا يكثر البلح حتى ان الناس يعلفون به الغنم » وهم « يبيعون الالف من منه بدينار »[1] ولهذا كانت البحرين موضوع حسد جيرانها ومطمح ابصارهم يودون لو يقضون عليها ويستولون على خيراتها وكان اشد الناس طمعاً بثروة القرامطة اقرب الناس اليهم نسباً واشرهم الا وهم عرب البادية الكسالى الجياع الذين كانوا ولا يزالون حتى اليوم عالة على غيرهم يعيشون من النهب والسلب فكانوا يتحينون الفرص لينقضوا على الجمهورية الغنية المغضوب عليها ويغنموها ان استطاعوا الى ذلك سبيلاً

ذكر السائح الفارسي انه التقى باميرعربي — لعله امير قبائل المنتفق — وهو زاحف على الاحسا « وبعد ان حاصرها سنة كاملة استولى على حظيرة من حظائر المدينة الاربع » واصاب غنائم كثيرة الا انه لم يتمكن من الاستيلاء على الاحسا ولا تغلب على اهاليها « فلما رآني اخذ يسألني عن مواقع النجوم ثم قال لي ان غرضي ان استولي على الاحسا لان اهلها كفرة لا دين لهم فهل انا موفق في عملي» ؟

نحن لا نعلم بماذا اجاب ناصر خسرو على سؤال الامير العربي الا انا نرجح ان سعي الامير كان خائباً لان لدينا من الاخبار ما يستدل منه على ان جمهورية البحرين كانت لا تزال في اوائل الجيل السابع للهجرة حية مستقلة راقية يدير امورها مجلس منتخب من اهاليها بحسب النظام القديم الذي بقي جارياً في البلاد

---

(١) سفرنامه ص٢٣٣ — أشتهرت البحرين وخاصة عاصمتها هجر ببلحها حتى ضرب بها المثل المعروف « كجالب التمر من هجر »

الي اوائل العصر الثالث عشر حين زارها السائح المغربي ابن بطوطه وحين لم يبق احد من سلالة ابي سعيد · اما ما كان من امر هذه الجمهورية بعد ابن بطوطه فلم يطلعنا عليه احد لا من كتبة العرب ولا من كتبة الفرس الذين هم اقرب الناس اليهم مذهباً ومكاناً الا انه يظهر من بعض اخبار مبعثرة [١] ان آثار النظام القرمطي بقيت ظاهرة في البحرين وعمان حتى اوائل العصر الثامن عشر ولعل بعضها لا يزال باقياً الي هذا اليوم ، فياحبذا لو قام بيننا سائح كناصر خسرو او ابن بطوطه فزار تلك الجمهورية العربية وما يجاورها من البلاد التي تأثرت بنظامها وتعاليمها الاشتراكية ويحث هناك عن تاريخها في الاعصر المظلمة وما حفظ من كتبها القديمة فيطلعنا على احوالها الحاضرة ، والا فان كل ما نعلمه اليوم عن هذه البلاد بل كل ما نعرفه عن سائر الفرق الاسماعيلية وعن حركتهم في الهند وافريقيا الخ لا يشفي غليلاً ولا يدخل في باب العلم الصحيح ·

يظهر مما تنشره احياناً جرائدنا ومجلاتنا عن الاسماعيلية ان عددهم لا يزال كبيراً في عمان ولا سيما في مدنها كمسقط والمطرحة وغيرهما وان مذهب الاسماعيلية انتقل مع المهاجرين من المدن المذكورة الي زنجبار وافريقيا الشرقية التي كانت قبل الحرب مستعمرة للالمان حيث نرى حركة فكرية ونشاطاً في نشر المبادئ القرمطية بين سكان البلاد الاصليين ، الا انا نجهل لسوء الحظ نوع هذه الحركة وما تتضمنه من المبادئ القرمطية القديمة وألا يزال ذكر ابي سعيد وابي طاهر واحفادهما حياً بين اسماعيلية البحرين وعمان ومستعمرتها

---

(١) انظر عن قرامطة البحرين في الاعصر المتأخرة مقالة ل M. de Goeje في Journ. Asaitique سنة ١٨٩٥

الافريقية؟ على انا لا نشك في ان قرامطة هذا اليوم — لو فرضنا انه لا تزال منهم بقية — ليسوا بقرامطة امس «الذين كان الناس يخشونهم في المدن والفلاة»[١] ويرتعد من ذكر اسمهم خلفاء بغداد والقاهرة فما هم اليوم — وقد فقدوا او نسوا اكثر مبادئهم الاجتماعية والسياسية واضاعوا نظامهم الاشتراكي — الا نحلة دينية سلبية جمدت وتحجرت منذ اجيال فلا تكاد تبدي حركة تدل على حياة داخلية الا فيما ندر

هذه هي اليوم حالة خلفاء القرامطة في البحرين وعمان والهند والعجم وآسيا الوسطى وافريقيا وسوريا (المتاولة والدروز) لا يستثني منهم الا فرق قليلة كالدروز في سوريا والزيديين في اليمن الذين لا يزالون محافظين على حماستهم العربية القديمة وعزة نفوسهم وكرم اخلاقهم وان لم يحافظوا على جميع مبادىء الاسماعيلية الاجتماعية والفلسفية .

---

(١) انظر تأليف M. de Goeje ص ١٩٨

الخاتمة

لا ريب في ان ظهور الاتراك والمغول على ساحة التاريخ وتغلغلهم في البلاد الاسلامية ابتداءً من العصر التاسع الى اواسط الخامس عشر مع ما تبع ذلك من الحروب والاهوال والخسائر المادية والروحية التي لا تقدر ولا توصف ، ثم مجيء الصليبيين ينفثون تعصبهم الديني في الشرق العربي و يحاولون ان يستولوا على اجمل وارقى اراضيه، وما وقع بين الفاطميين والقرامطة من الخلاف الناتج عن تباين في بعض مبادىء واغراض هاتين الفرقتين الكبيرتين من مذهب الاسماعيلية، واختلافات اخرى وقعت بين القرامطة انفسهم الى غير ذلك من الاسباب الثانوية قد حالت دون تحقيق برنامج الصباغ تحقيقاً تاماً وخصوصاً تحقيق ما له علاقة بقسمه الاشتراكي، على انه لا بد من الاقرار في ان قسماً كبيراً من ذلك البرنامج قد تحقق اي صار مبدأ حياة لكثير من الناس وان النجاح الذي اصابته دعوة الاسماعيلية بين الامم المؤلفة للخلافة العباسية على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم كان ايضاً عظيما حتى بالقياس الى دعوة الحزب الجمهوري الديموقراطي في الاسلام اي حزب الخوارج واني لا إظن ان دعوة او حركة عقلية اخرى تركت في تاريخ الاسلام وعقول وحياة ابنائه من الاثار العميقة وكان لها من النتائج العملية مثل ما كان للحركة الاسماعيلية

من المعلوم ان العالم الاسلامي وقسما من العوالم الاخرى ظلا يشعران بتأثير الافكار والانظمة الاسماعيلية سنين بل اعصراً عديدة كحزب او كتلة واحدة وما ذلك الا لان البذور التي بذرها اصحاب المذهب المذكور بين الامم

الاسلامية خاصة و الشرقية عامة كانت قوية ومملوءة حياة حتى ان حوافر خيل الترك والمغول والصليبيين والاهوال التي رافقت هجرة هولاء الاقوام من آسيا الوسطى ومنغوليا واوروبا الغربية لم تقو على قتلها . على اني لا اريد ان يفهم من كلامي ان كل ما زرعه الاسماعيلية نبت وانبت نباتاً حسناً وان كل ما نبت تغلب على محن الدهر وبقي الى يومنا هـذا بل ان كثيراً منـه نبت وان قسما مما نبت بقي الى هذا اليوم مشوّها محرّفاً في تعاليم الفرق الاسماعيلية التي ذكرناها آنفاً وفي انظمة جماعات اخرى كاصحاب الحرف او الاصناف والطرق الصوفية وغيرها من الهيئات المبنية على مبدأ التعاون المادي والعدل والمساواة الاجتماعية ووحدة المبادىء الاخلاقية الخ . . . فقد اصبح اليوم من المقرر ان من اهم مميزات الاصناف والاخويات والطرق الصوفية والدرويشية التي يحق للشرق ان يفاخر بها لانه اول من مهد السبل الى ظهورهـا هي فكرة التضامن بين الطبقات والدفاع عن حقوقها الاقتصادية والاجتماعية وذلك بجمع كلمة اعضائها وتكوين جماعات او حلقات منها موثقة العرى ومرتبطة بنظـام واحد وغاية واحدة ووسائل واحدة . وغني عن البيان ان الاصناف في الشرق لم تكن هيئات او جماعات تربطهم وحدة الحرفة والرغبة في تحسين احوال اعضائها المالية فقط كما هي الحال الان في اوروبا وبعض البلاد الشرقية في عهد الاتراك الذين، نظراً لضعف عقولهم وضيق صدورهم وميلهم الى الاستبداد وحصر السلطة في يد واحدة، منعوا الاصناف وسائر الجماعات التي ذكرناها من التدخل في السياسة والمسائل الاجتماعية واجبروها ان تقف عند غايات مادية فقط مع انها كانت قبل هذا الدور تعني ليس فقط بتحسين احوال اعضائهـا المادية بل كانت تعمل ايضاً على تقويـة وانمـاء حقوقهم الاجتماعيـة

واخلاقهم وعقولهم كما كانت الحال عند الاسماعيلية والقرامطة وانا لنعرف من الاصناف من لم يكن اصحابها يعنون بالمسائل المادية او كانوا يعنون بها قليلاً وكان همها الاكبر نشر مبادئها بين الناس و تربية اعضائها تربية صالحة ادبية تتفق مع مبادئها الاساسية مما ينتج عنه ان الاصناف الشرقية كانت في اول ظهورها اقرب الى الجمعيات الخيرية الدينية منها الى نقابات العمال في عصرنا هذا وانها كانت تقوم باداء وظائفها المتنوعة تحت مراقبة رؤساء خبيرين منتخبين ذوي مراتب عاليـة يعرفون بالشيوخ والأئمة والبيران (ج · بير) الخ والمعروف عن اعضاء هذه الجماعات انهم كانوا متساوين في الحقوق والواجبات يعاملون بعضهم بعضا معاملة الأخ لاخيه ولهذا اطلق عليهم اسم [1] «الاخوان» وهو الاسم الذي لا يزال مستعملاً حتى اليوم عند اكثر اصحاب الاصناف والطرق · بناء على ذلك وعلى شهادات بعض الكتبة المعاصرين نرجح ان اول حلقة او اخوية ظهرت بين القرامطة كانت حلقة «اخوان الصفا» التي تأسست في النصف الثاني من العصر العاشر كما يستفاد من بعض «رسائلهم» [2] واقوال كتبة الاعصر المتأخرة

«اخوان الصفا» جمعية او حلقة علمية سرية لم يشأ اعضاؤها ان يطلع الناس على اسماءهم واغراضهم ومحل اقامتهم ولهذا ترى كتبة العرب المتقدمين واكثر من بحث عن هذه الجمعية او ذكر شيئاً عن احوالها ومبادئها من علماء

١) انظر عن اصل هذه التسمية المجلة الالمانية Der Islam ١٢٢ : ٢٦ — ٢٦ و ٤ : ٣٢٤

٢) طبعت هذه الرسائل (٥٢ رسالة) لاول مرة في بومباي من اعمال الهند ثم اعيد طبع قسم منها في القاهرة ونحن الان في حاجة الى طبعة ثالثة علمية لا تجارية ···

هذا العصر يخبطون فيها خبط عشواء و يظنون فيها الظنون على غير هـدًى ولا بصيرة الا انه يظهر من بعض سطور في رسائلهم ومما نعرفه اليوم عن محل اقامتهم وزمن ظهورهم ونوع فاعليتهم او على الاقل فاعلية بعض اشخاص منهم ينسب اليهم الاشتراك في وضع الرسائل المذكورة—هذه الانسكلوبدية العلمية الاولى من نوعها— ان اخوان الصفا حلقة او اخوية قرمطية اسست في البصرة لنشر المبادىء الاسماعيلية والسعي وراء تحقيقها بالطرق السلمية العقلية قال الاستاذ فون بوير (T. von Boer) احد المشتغلين بالفلسفة الاسلامية «إنا امام امر واقع وهو نشوء عصبة دينية اجتماعية ذات ميول متطرفة او بالاحرى ذات ميول ومبادىء اسماعيلية اما اعضاء هذه العصابة التي كانت البصرة من اهم مراكزها فقد اطلق عليهم اسم «اخوان الصفا» لان غايتهم الكبرى كانت ان يعمل الناس على خلاص نفوسهم بالتعاون وسائر الوسائل وخاصة « بالعلم المُطَهِّر» وانا لا نعرف في الشرق الاسلامي عصابة اخرى كانت تعوّل على قوة العلم والحكمة (الفلسفة) في تمهيد سبل السعادة الانسانية في الحياة الدنيا مثلما كانت تعول عليها جمعية « اخوان الصفا »[1] فان صح هذا الرأي ،وهو اقرب الاراء الى الصحة، كان «اخوان الصفا» اول من قال بوجوب تسخير «العلم والعمل» لسعادة الانسان وهو ما قاله بعد مئات من السنين لاسّال وماركس وما اصبح اليوم شعار حكومة البلاشفة في روسيا حيث تجده مكتوبًا على جدران المدن وابواب البيوت اينما قلبت نظرك فيها .

إنا لنأسف انه ليس لدينا من المعلومات ما نقدر معها ان ندرس حياة

١) انظر Encyclop. Musulm. ج ٢٥ ص ٤٨٧

تلك العصابة الداخلية والخارجية ونعرف اذا كان لها فروع في غير البصرة وما كانت علاقة هذه الفروع بامها وما هي اعمالها الى غير ذلك من المسائل التي يتشوق القارىء الى معرفتها على إنا نستطيع بديهيا ان نفرض وجود هذه الفروع في عاصمة البلاد و بعض مدن ايران واسيا الوسطى وسوريا ومصر وغيرها من البلاد التي انتشرت فيها مبادىء الاسماعيلية وكان لها فيها تأثير ظاهر وانا نرجح ان رد الفعل الذي اخذت تبدو ظواهره في النصف الثاني من العصر العاشر وتقهقر القرامطة في البحرين ثم ما طرأ على خلافة بني العباس من الحوادث السياسية المهمة في اوائل العصر الحادي عشر كان لها تأثيرها على «اخوان الصفا» وفاعليتهم وانه كان من نتائج هذا التأثير ان اصحاب السلطة المدنية والدينية اخذوا يضطهدون الاخوان و يقيمون عليهم العيون فاضطروهم الى التخفي والعمل «تحت الارض» او الى ايقاف عملهم او تغيير نوعه وكذلك نرجح ان الخلايا الاسماعيلية التي كانت منتشرة في البلاد اضطرت ايضا تحت ضغط العوامل المذكورة ان تتجنب السياسة وتوقف حياتها على المسائل الاجتماعية والاقتصادية او الادبية والدينية فقط فصار بعضها يشتغل بهذه المسائل وبعضها بتلك وانا نرجح حصول هذا التطور في حياة «اخوان الصفا» وخلاياها المتعددة استناداً على ما نعلمه من اعمال الجماعات التي خلفت حلقات «اخوان الصفا» وتأثرت بمبادئها نذكر منها الهيئات التي ظهرت في عهد الاتراك بين العرب والفرس والترك كالاصناف والاخوان (اخيلر ٠ برادران) و بعض الطرق الصوفية والدراويش كالنقشبندية والرفاعية واليكيچار وغيرهم ممن يمتون بنسب روحي الى «اخوان الصفا» او جماعات الاسماعيلية اما انه كانت بين الجماعات المذكورة صلة روحية فهذا امر يكاد يكون اليوم

ملموساً ومتفقاً عليه عند العلماء[1] قال المستشرق الروسي غوردلفسكي استاذ اللغة التركية في «مدرسة اللغات والعلوم الشرقية» في موسكا ما تعريبه : « يستدل من اعمال « اخوان » (اخيلر) آسيا الصغرى — واعمالهم تكاد تنحصر في اكرام الضيوف والاعتناء بالسياح والغرباء — انهم غرباء الاصل او بعبارة اوضح انهم من اصل ايراني وان كلمة « يا اخي » او « اخي» التي كانت شائعة بين « اخوان الصفا » والنزعات الشيوعية والتشيع الظاهر لعلي بن ابي طالب او « للفتى » كما كانوا يسمونه ولاولاده ثم نوع اعمال هؤلاء « الاخيلر» ونظامهم الداخلي والخارجي وامور اخرى لا يسعنا ذكرها تحملنا على الظن في ان هذه الجماعات وما هو من جنسها وليدة جماعة القرامطة وو ريثتها الشرعية»[2] ومعروف اليوم ان هذه الجماعات لا تزال حتى اليوم تحافظ على شيء من القرابة الروحية التي تربطها بالقرامطة او الاسماعيلية على الاطلاق مثال ذلك ان الاصناف او نقابات الحرف التركية لا تزال حتى اليوم تحافظ في بعض المدن الداخلية على شعائر دينية وعوائد غريبة لا نجدها عند غيرها من النقبات الغربية او الشرقية وهو ما اشار اليه الكاتب الروسي المذكور بقوله : « ان « الصنف » التركي اقرب الى اخوية روحية ادبية مبنية على مبدأ الاعتراف بالرئاسة والرتب والطاعة للشيخ او للرئيس طاعة عمياء منه الى نقابات المحترفين

---

(١) من اراد ان يقف على تاريخ الاصناف في الشرق فليطالع كتاب
H. Thorning, Beiträge zur Kenntniss d. islamischen Vereinwesens—Berlin 1913

(٢) طالع عن «اخيلر» في اسيا الصغرى، سياحة ابن بطوطه (ج ٢ ص ٢٦٠ — ٣٦٠ من الطبعة الباريزية) وكتاب رئيس فرع الاداب في جامعة الاستانة الاستاذ كوبريلي زاده محمد فؤاد — تحت عنوان، ايلك متصوفلر ص ٢٣٧

مما يستدل منه على ان نظام الاصناف التركية قديم لا تزال تتجلى فيه روح غير روح نقابات المحترفين الصرفة »

ونحن لو انعمنا النظر في هذا النظام لوجدناه يقرب جداً من نظام الدراويش الذين يعنون اكثر من « الاصناف » بالحياة الروحية النظرية وتربية السالكين في طرقهم تربية دينية ادبية وان كانوا احياناً يتدخلون في الامور السياسية كما كان يفعل اسلافهم الاسماعيلية ويدافعون عن حقوق الشعب المهضومة ويطالبون سلاطين آل عثمان باصلاحات اجتماعية ٠

ان من يقف على تاريخ الطرق الدرويشية كالمولوية والبكطاشيه والنقشبندية ويطالع كتب شيخ الطريقة المولوية ويدقق في اعمال بعض اعضائها الاجتماعية لا بد ان يعثر هناك على نزعات شيعية متطرفة وروح ايرانية [1] او روح اسماعيلية ولهذا وبناء على ما ذكرناه قبلاً عن الاصناف والطرق الصوفية نرانا غير بعيدين عن الحقيقة لو فرضنا ان كل هذه الجماعات على اختلاف اسمائها ونزعاتها وانظمتها الخارجية والداخلية ترجع في الحقيقة ومن جهة معلومة الى جماعة واحدة تولدت منها واخذت عنها اموراً كثيرة لا تزال تحافظ عليها — ربما عن غير ادراك — الى هذا اليوم واهم هذه الامور تلك الروح الاجتماعية التي كانت تجيش في صدور اشياع حسن الصباغ وتدفعهم الى اعمال عظيمة فالاصناف اذن وبعض الطرق الدرويشية التي لا نزال نرى فيها نزوعاً الى التطرف في المبادىء والافكار هي ذاك الحمى الذي حفظت فيه الروح

---

(١) نرجح ان جماعات كثيرة من الاسماعيلية انتقلت من بلاد العجم — على اثر دخول هولاكو خان اليها — الى آسيا الصغرى وهناك دخل قسم كبير منها في طريقة النقشبندية

الاسماعيلية الثائرة العاملةوذاك الملجأ الذي كنا نسمع فيه احياناً اصواتاً عالية جريئة كانت تدعو اصحاب الاستبداد المطبق وسلاطين آل عثمان و پادشاهات وخانات العجم والترك الى ادخال الاصلاح اللازم للبلاد وتذكرهم بواجباتهم نحو شعوبهم المتألمة المهتضمة حقوقهم ·

لو لا ضيق المكان لاتيت على امثلة كثيرة من تاريخ الاصناف والطرق الصوفية والدرويشية تؤيد هذا الفكر الذي قد يظهر غريباً لبعض الناس الا اني اكتفي بمثلين فقط وهما ثورة الدراويش في تركيا سنة ١٤١٥—١٤١٨ وحركة البابيين او البهائيين في بلاد العجم ·

من المعلوم عند اصحاب تاريخ آل عثمان ان زعيم الثورة المذكورة وهو الدرويش العالم بدر الدين سيماوي اوغلي جاء من بلاد العجم اي من عش الاسماعيلية الكبير ومصدر الحركات الاجتماعية والادبية في كل الشرق وهناك تشرب المبادىء الاشتراكية المتطرفة التي حاول هو وتلميذاه بركلدجه مصطفى واليهودي المهتدي طورلاق كمال ان يبثوها بين سكان آسيا الصغرى الذين كانوا في ذلك الوقت اقرب الناس الى اتباعها والعمل بموجبها لما اصابهم قبيل ذلك من المحن والمصائب التي جرها على بلادهم الفاتح المغولي دمبرلنك والحروب الاهلية التي عقبت هذا الفتح وحولت اكثر البلاد الخصبة الى صحاري يهيم فيها من بقي من سكانها ولا مأوى لهم ولا طعام ·

رأى بدر الدين واشياعه هذه الحالة ثم رأى سلاطين وامراء البلاد واصحاب الاملاك الواسعة فيها لا يهتمون الا بانفسهم وبجمع المال من الفقراء المعدمين فاحتج على ذلك في الجوامع والطرق فكان لكلامه وقع شديد على طبقات الفقراء والمظلومين فاخذوا يلتفون حوله و يؤيدون كلمته فلما رأى ذلك

برز يدعو الناس جهاراً « الى العدل والمساواة بين جميع الطبقات على اختلاف اديانها وقومياتها والى توزيع الاموال بين الناس على السواء » فكان لدعوته هذه صدى قوي في البلاد حمل كثيرين من المستائين من الحالة الاقتصادية والاجتماعية في ذلك الوقت على الانضمام اليه وتأييده واصحابه بالقوة المسلحة فدارت بينهم و بين الحكومة حروب عديدة استغرقت نحو ثلث سنوات كان الحزب الاشتراكي يدافع فيها عن نفسه ومبادئه دفاع الابطال الى ان خارت قواه وفقد ما كان عنده من الذخائر فتغلبت عليه قرب مدينة ازمير جيوش السلطان محمد الاول المعروف بچلبي وقبضت على احد زعمائه مصطفى بركلدجه وصلبته قرب مدينة مغنيزيا ثم تعقبت زعيم الحركة الاكبر ومصلي نارها بدر الدين سياوي فقبضت عليه ايضاً في جبال مكدونيا وقتلته فتشتت اصحابه وماتت الحركة ولم تبلغ غايتها [1]

اما الحركة البابية او البهائية المشبعة — كما هو معلوم — بالافكار الشيعية المتطرفة والمبادئ الاشتراكية فامرها معلوم عند اكثر القراء لانها حديثة العهد ولان مجلاتنا وجرائدنا تنشر عنها حيناً بعد حين المقالات الضافية ولان زعيمها الاكبر وقسماً من اتباعه يقيمون بيننا في عكا و بعض مدن فلسطين وسوريا ومصر فلا حاجة اذن الى الافاضة في اخبارها و يكفي القارئ ان يعرف ان الحركة المذكورة ظهرت ايضاً في بلاد العجم و بين الشيعيين المتطرفين (الحروفيين) حفظة روح الاسماعيلية القديم ونارهم المقدسة ، اذ من المحقق ان علي محمداً (١٨٢١ — ١٨٥٠) المعروف « بالباب » كان من فرقة

---

(١) انظر عن هذه الحركة تواريخ تركيا وتأليف الاستاذ كوپريلي زاده « ايلك متصوفلر » ص ٢٣٤

الاثنا عشرية وان كلمة « باب » ولغة « بيانه » واساليب تأويله وبعض افعاله وانظمته الرمزية ناهيك عن تعاليمه تقودنا تواً الى مذهب الاسماعيلية حيث ورد لاول مرة في الاسلام استعمال كلمة «باب» بمعناها الحاضر (١)

اني اشعر بل اعتقد ان كل عبارة من عباراتي السابقة تحتاج الى براهين واستنادات مقنعة الا اني عاجز الآن لما قدمته من الاعتبارات عن الاتيان بها ورجائي ان ينتبه غيري من عشاق تاريخ الافكار الاجتماعية في الشرق الى اهمية هذا الموضوع فيكرس له قسماً من حياته و يوفيه حقه من البحث والتنقيب واني لا ارتاب في انه لو فعل ذلك لاهتدى الى تلك القنى التي كانت ولا تزال تصل الاسماعيلية بالبابية وغيرها من فرق الشيعة المتطرفة ولظهرت له تلك الاسباب التي لا تزال تحمل الامة الفارسية على الخروج على النظام المدني والديني في بلاد البادشاه ولادرك كيف ان البابيين الذين بدؤوا عملهم بطلب بعض اصلاحات دينية واجتماعية معتدلة لم يلبثوا ان تحولوا الى اجتماعيين فقط نعم اجتماعيين من نوعهم (sui generis) ولكن على كل حال اجتماعيين وان اختلفوا عن اجتماعيي اوروبا باساليبهم وبعض مبادئهم ·

حاولنا ان نبين في اول هذا الفصل ما كان للافكار الاسماعيلية القرمطية من التأثير على نقابات المحترفين او الاصناف والجمعيات الخيرية وطرق الدراويش الخ على انه لا يجوز ان يستنتج احد من كلامنا هذا ان الهيئات المذكورة كانت دائمًا مصدر الحركات الاجتماعية الحرة في الاسلام وان افكار ومبادىء حسن الصباغ واشياعه التي تسربت اليها بشتى الطرق كانت دائمًا تتجلى في تعاليم وسيرة هذه الجماعات · كلا ثم كلا ! لاننا نعرف ان زوايا كثيرة من زوايا

(١) انظر Encyclop. musulmane ج ٧ ص ٥٥٥

الدراويش كانت منبعثا للحركات الرجعية والتعصب الديني او القومي الاعمى وآلة لاستغلال عواطف جماهير الناس الدينية الطيبة وانما عنينا بعباراتنا السابقة بعض الطرق الصوفية لا كلها وعلى الاخص تلك الطرق التي نبتت في ارض ايران وتشربت منها الافكار الشيعية وكذلك بعض الحركات لا كلها او على الاقل ادواراً معلومة من حياة الهيئات والحركات المذكورة فكم من حركة ابتدأت باسم الله و بركته وانتهت باسم الشيطان فهذه حركة « باب » و « بهاء الله » كانت في دورها الاول حركة مباركة حرة يرجى منها خير للامة والبلاد الفارسية الا انها تحولت بعد وفاة مؤسسيها الى بدعة دينية او اخوية ادبية بسيطة ذات صبغة رجعية و برنامج اجتماعي ضعيف فكلنا يذكر كيف ان اصحابنا البهائيين الذين كانوا يؤيدون من سنة ١٩٠٥ الى سنة ١٩٠٩ حزب الاحرار وبرنامجهم السياسي القائل بوجوب اعطاء بلاد العجم دستور يقرب من دستور انكلترا و يشدون ازرهم اصبحوا عاجلاً من حزب الملكيين واخذوا يقاومون زعماء الشيعة الذين انضموا الى الاحرار وصاروا من قادة الحركة القومية الناقمة من الشاخ وحكومته الرجعية

كل ذلك لم يخف علينا كما لم يخف علينا ايضاً ان في تعاليم « الباب » و « بهاء الله » عن التساهل الديني ووحدة الدين والعدل والمساواة بين الامم تناقضاً ظاهراً لم يهتد اصحاب المذهب المذكور وخلفاؤهم الى ازالته بكتبهم و « رسائلهم » العديدة التي ينشرونها حيناً بعد حين او يبعثون بها خطاً الى اشياعهم في الخارج او بمحادثاتهم الطويلة مع السيدات الاميركيات او الانكليزيات وغيرهن من الناس ثم لا حاجة بنا لان نذكر القارئ المطلع بما وقع في اول الحركة البابية من الخلاف بل من العداء بين « بهاء الله » واخيه

«صبحي ازل» وانقسام البابيين الى فرقتين متعاديتين متطاحنتين كانت تسعى كل واحدة منها الى ابادة الاخرى بالسلاح والوشايات وسائر الوسائط المحرمة .

يقول البعض ان البهائيين يحرمون القتل باسم الدين ولمسائل دينية الا ان الاستاذ برون (Brown) المعروف بعطفه عليهم ومساعداته لهم يذكر في بعض تآليفه عنهم انه سمع من احدهم في شيراز ما حرفه : « للنبي (رئيس الجماعة) ان يتخلص من كل شخص يحسبه عدوا للدين و يرى فيه خطراً على الانسانية كما يبعد الطبيب العضو المصاب بداء معد »زد الى ذلك ان البهائيين انفسهم يقرون بانهم لن يحصلوا على السلطة المدنية في بلادهم الا بعد حروب دينية تسيل فيها الدماء انهاراً قد يكون من وراءها تحسين احوال اليهود والمسيحيين ولكن لا المسلمين ولا اصحاب « صبحي ازل » و (الشيخيين) الذين ولا شك ستسوء حالهم و ربما يقضى عليهم .

كل هذا صحيح الا انه لا يقدح في صحة ما حاولنا ان نثبته من وجود صلة تاريخية او معنوية بين الاسماعيلية والبابيين [1] لان عدد نقط التشابه بين هاذين المذهبين كبير جداً يصعب تعليله عن طريق الصدفة وفوق ذلك فانا لم اقل بمطابقة المبادئ الاسماعيلية وصورها الخارجية مطابقة تامة لمبادئ الاصناف ودراويش البكطاشية والبابيين وغيرهم من الجماعات والهيئات القريبة منهم بل رجحت ان بعض الافكار والانظمة الاسماعيلية تسربت بطرق عديدة الى الوسط المذكور وان هذه الافكار ظلت كامنة الى ان توافرت الشروط الاقتصادية والسياسية فهبت من رقادها وخرجت من العالم الغير المدرك الى عالم الادراك فتحولت الى قوة محركة دافعة تجسمت في صور مختلفة .

---

(١) يسرنا ان نشير هنا الى ان الاستاذ المرحوم غولدزيهر يرى ايضاً في الحركة البابية صدى الحركة الاسماعيلية (انظر مقالته في « الاسلام » ص ٤١)

نحن لا نرتاب في صحة هذا الفكر كما انا لا نرتاب اليوم في صحة فكر آخر وهو ان تأثير المبادئ الاسماعيلية الباطنية لم ينحصر في المجتمع الاسلامي والشرق على الاطلاق بل تعداه الي اوروبا وبعض الامم المسيحية وهناك ترك اثراً بيناً في حياة تلك الامم الفكرية وانظمتهم الاجتماعية ودساتير اديرتهم وجمعياتهم الي غير ذلك مما لا يسعنا الوقت الي التبسط فيه ولسنا مبالغين او بعيدين عن الحقيقة اذا قلنا انه كان للقرامطة تأثير تختلف درجاته على دستور الرهبنة اليسوعية مثلاً وبعض الطغمات الرهبانية وعلى دستور الاصناف والفرسان الهيكليين والمالطيين وغيرهم فمن الادلة على ذلك ان الاصناف في اوروبا لم تكن في بادئ الامر نقابات للمحترفين انشئت للدفاع عن مصالح اعضائها المادية فقط بل نوعاً من الاخويات او الجمعيات الخيرية التي كانت غايتها تقوية المبادئ الدينية والادبية الحسنة بينهم كما كانت الحال في الشرق « فكان لكل نقابة ولي[1] (patron) واحياناً هيكل في احدي كنائس المدينة صندوق تجمع فيه اعانات الاعضاء لتوزع على المرضي والمحتاجين منهم عند الضرورة ... فكان اذا مات احدهم يشيعه رفقاءه الى القبر ويهتمون باولاده اضف الي ذلك انه كان للنقابة حق المراقبة على حياة اعضائها وسيرتهم وتعليمهم وتربيتهم الي غير ذلك من الواجبات التي نجد ذكرها في قوانين جماعات الدراويش وجميع الاصناف والهيئات الاسلامية على ما نعلم »[2]

لم تتغير صبغة هذه الهيئات وتصبح نقابات صرفة لا علاقة لها بالدين

---

(١) نذكر القارئ ان علي كان « فتى » (patron) الاصناف في الشرق الاسلامي

(٢) عن مقالة في « الاصناف » نشرت في « دائرة المعارف » الروسية لبروكهوز وافرون

والادب الا رويداً رويداً كما وقع لاخوانها في الشرق وليس من غرضنا الان ان نبحث [1] عن العوامل والمؤثرات التي ادت الى هذه النتيجة بل نحب ان نلفت نظر القارىء الى امر آخر قد يكون له منه فائدة اعظم وهي الطرق التي دخلت بها المبادىء والانظمة القرمطية الى اوروبا واثرت على هيئاتها الاجتماعية واحدثت بينها حركات وانظمة متشابهة . فمن هذه الطرق الحروب الصليبية وما نتج عنها من التماس بين العالم الاسلامي والعالم العربي المسيحي والتقرب بينهما على ما كان بينهما من العداوة . فلا شك ان بعض الغربيين الذين اقاموا مدة طويلة في الشرق وخصوصاً في سوريا وفلسطين كانوا عرفوا الحركة الاسماعيلية هناك فتأثروا بها وحملوا الى بلادهم معلومات كثيرة عنها وعن احدى فرقها المعروفة بفرقة الحشاشين وهناك اخذوا يطبقونها على حاجاتهم واغراضهم فكان من ذلك ما ذكرناه من الهيئات الدينية والغير الدينية وكانت تلك الحركات الفكرية التي ادت الى دور « التجدد » في ايطاليا وما جاورها من البلاد ثم الى دور الاكتشافات والعلوم الحديثة . اضف الى هذا الطريق ذلك التيار الفكري والتأثيرات القوية التي كانت تتغلغل في اوروبا عن طريق اسبانيا وجنوب ايطاليا اللتان بقيتا تحت الحكم العربي وتأثير ثقافته وسننه الاجتماعية مئات من السنين ثم لا يجوز ان ننسى او نتناسى ما كان بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي في الاجيال الوسطى من الصلات التجارية والسياسية والعمرانية وان هذه الصلات كانت اقوى واكثر مما يتصوره بعض المؤرخين .

على كل حال لا ريب عندنا في ان افكار وسنن الشرق الاسلامي كانت تتسرب بطرق عديدة لا نزال نجهل اكثرها الى اوروبا وتؤثر على حياة

(١) نحيل المستزيد من القراء الى الكتاب الالماني المذكور سابقاً

شعوبها الاجتماعية والعقلية فربما كان من آثار ذلك ان الامة الجرمانية مثلاً اخذت عنا في تلك الاجيال كلمة صنف او اصناف فحولتها الى (Sumft)[١]

اما ما يتعلق بتأثير اراء وانظمة الاسماعيلية على نشوء وصبغة بعض جماعات رهبان اللاتين كاليسوعيين مثلاً [٢] فهذا فكر قديم لا يزال بعض كتبة الغرب [٣] يحوم حوله ويرجع اليه حيناً بعد حين وله انصار وله خصوم لا تزال الحرب بينهم سجالاً فمن ادلة انصار هذا الفكر على صحته ان لدساتير بعض الطغمات الرهبانية ولا سيما لدستور اليسوعيين مميزات وخواص فارقة كوجود عدة رتب او منازل يرتقي اليها السالك في طريقه الى الكمال الادبي وحصر السلطة في يد رئيس مستبد والميل الى الاشتغال بالمسائل العلمية ثم الغرض البعيد من تأسيس الرهبنة المذكورة والطرق الشاذة التي يستعملها اصحابها للوصول الى غاياتهم الى غير ذلك من الصفات التي يختلف بها دستور هذه الاخوية عن دساتير غيرها من الاخويات المسيحية وبعكس ذلك يتفق مع دساتير « الاخوان » . فحبذا لو اعتني بهذه المسائل بعض علمائنا ممن اوقفوا

---

(١) ان صح اشتقاقي هذه الكلمة من كلمة « صنف » العربية

(٢) من المعلوم مثلاً ان ابن براجان انشأ مذهباً فرمطياً صوفياً في اسبانيا (انظر كتاب « عجبنامه » الذي قدمه بعض المستشرقين للاستاذ Browne اعجاباً بعلمه وفضله ص ٣٣٣)

(٣) نذكر منهم :

H. Mullet, Les origines de la compagnie de Jésus. 1896

Charbonel, l'origine musulmane des Jésuites

ومقالات ظهرت في مجلتي Quarterly Report on Semitic Studies et Revues des Revues الخ

حياتهم على الابحاث الشرقية او بعض مستشرقي اوروبا فالقوا عليها نوراً جديداً وساعدوا على حلها خلاً علمياً منزهاً عن الغرض ٠

يخال لي ان ما اتيت على ذكره من الحركات الاجتماعية والاشتراكية في الاسلام — وهو قليل من كثير — يكفي لان يقنع القارىء الغير المصاب بداء العناد ان الامم الشرقية على الاطلاق والعربية الإسلامية على التخصيص اجتازت في حياتها التاريخية الطويلة ذات المراحل الاجتماعية التي اجتازتها امم الغرب المسيحية فاذا صح هذا الفكر ، ولا نراه الا صحيحاً ، كان لنا من ورائه أعتقاد قوي في ان شعبنا العربي لا بد ان يمر في المستقبل القريب بذات الادوار الاجتماعية التي تمر بها الآن امم الغرب — اخواننا في الانسانية — الذين سبقونا لحسن حظهم ولعوامل تاريخية وغيرها سنين نأمل — استناداً على ما نراه اليوم في الشرق من النهضة العمرانية وتنبه الادراك الذي في ابنائه — ان تكون قليلة ٠

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
واستعبدادهم	واستعبادهم	١٩	١٤
فلباها	فلبى	٢٣	١


Bibliotheca Alexadrina
0230554